

إبراهيم لنكولن

هدية الأحرار إلى عالم المدنية

محمود الخفيف

اسم الكتاب: إبراهيم لنكولن

اسم المؤلف: محمود الخفيف

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٦٦-٣٩-٩

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر
الأدبي للنشر والتوزيع المشهرة برقم ٢٤٨٢١ بتاريخ ٢٠١٥/١٠/١. ومقرها
جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق استعادة
المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر
يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية
الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

يا شباب الوادي! خذوا معاني العظمة في نسقها الأعلى من سيرة هذا
العصامي العظيم

ما أحوج بني الإنسان كلما قطعوا شوطاً في طريق هذه الحياة، أن يديروا
وجوههم لحظة عن الأفق الذي يستقبلون، وأن يرجعوا إلى ما استدبروا من
آفاق متطلعين إلى تلك النجوم الزواهر التي تلتهم على جوانبها، والتي ستبقى
هناك ساطعة باهرة ما دار الفلك وما تصرمت السنون

أجل، وما أحوج الإنسانية أن تهتدي في سبيلها بهدى الذين رسموا لها ذلك
السبيل؛ وما أخرى قافلتها كلما آدها العبء، أو أعيأها السير، أو اعترضتها
العقبات، أن تستأنس بقبس من تاريخ أولئك البواسل الأبرار الذين تتألف من
سيرهم مجتمعة سيرة البشرية في هذا الوجود

وها نحن أولاء نتجه بعقولنا وقلوبنا إلى سيرة الزعيم (لنكولن) رئيس
الولايات المتحدة، أحد أبناء الإنسانية الغر الميامين وأحد أفذاذها البواسل. ولا
لوم علينا معشر الشرقيين إذا تخطينا مشرق الأرض إلى مغربها، بل إذا
تخطينا الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة، متخذين قبسنا في هذا الحديث من وراء
المحيط. لا لوم علينا في ذلك، فأبناء الإنسانية العظماء متى اجتازوا باب الخلود
صاروا للعالم كله، ولا اعتبار في ذلك لشرق ولا لغرب

وما هذه الدنيا الجديدة التي أخرجت بطل حديثنا وما فصلها في تاريخ
الوجود؟ برزت الولايات المتحدة كدولة من دول العالم على حين غرة، فكان
بروزها السياسي شبيهاً بما يزعمه الجغرافيون عن وجودها المادي، إذ يقولون
إن أمريكا، أو الدنيا الجديدة قد برزت من تحت الماء في حركة من حركات
هذا الكوكب! وما كان بروزها السياسي في الحق إلا حركة من حركات
الشعوب في هذا المضطرب الواسع الذي نسميه العالم؛ حركة لم تكن متوقعة
من قبل، ولم يكن يظن أحد يوم بدأت أنها واصله إلى ما وصلت إليه!

سمع الناس في أوربا قبل أن تتبعث الرجفة الكبرى من فرسنا بسنوات قليلة عن أنباء عجيبة تأتيهم من وراء المحيط. سمعوا عن الحرية يرف جناحها الجميلان ويتهلل وجهها الأبلج في تلك الربوع الفسيحة التي وجه كولمبس أنظار العالم القديم إليها قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون؛ وسمعوا عن أختها الديمقراطية ترفع علمها وتشهر سلاح الإيمان واليقين، سلاح (جان دارك) الخالد في وجه الطغيان المربد العبوس؛ سمعوا عن مراكب من الشاي تقذف حمولتها في البحر وتأكلها النيران، وسمعوا عن جموع ثائرة تلقتي هاتفة صاخبة، وعن جنود تحشد خفافا وثقالاً، ثم ما لبثوا أن علموا أن الناس روعوا هنالك وزلزلوا زلزالاً شديداً

وجاءت الأنباء تترى بعد ذلك عن حرب طاحنة، تسمع في ضجيجها صيحات الاستقلال وحقوق الإنسان حتى ترامت إليهم الأخبار عن انتصار يتلو انتصاراً تحت راية (واشنطن). وأخيراً علموا أن إنجلترا سلمت مغلوبة على أمرها واعترفت في عام ١٧٨٣م بمولد دولة جديدة انتزعت منها انتزاعاً؛ ورأى العالم في ذلك دليلاً جديداً على أن الإيمان يفعل أكثر مما يفعل الحديد والنار!

ولدت دولة جديدة كانت قبل ذلك ولايات متنافرة متباغضة ولكنها وجدت نفسها بعد مولدها مملكة فراضت أحرارها على خشونة العيش، وما كان هؤلاء الأحرار بعد استقلالهم ليشتروا به ثمناً قليلاً وهم سلائل أولئك الذين هاجروا من قبل في سبيل الحرية إلى هاتيك الأصقاع من موطنهم الأصلي في إنجلترا. لذلك تحملوا الفاقة وأخذوا يكدحون كدحاً شديداً، وتولت قبائل منهم حين ضاقت بهم المدن أصقاعاً من الأرض البكر تنمو فيها الألفاف والأحراج من وحشي النبات، يشقونها ويفلحونها، ويعيشون فيها عيشة أولية كأنما عادت الإنسانية في أشخاصهم تبدأ حياتها من جديد!

وكان هؤلاء في أصقاعهم هذه منعزلين عن عالم المدنية الانعزال كله، يقيمون الأكواخ من كتل الخشب في جوانب الغابات، ويعيشون على الصيد وعلى قليل من الزرع، ويفعلون ما كان يفعل آباء الإنسانية الأولون، يتعرضون لعشرة الطبيعة ولا يأمنون شرة الوحوش ولا هجوم القبائل الأصلية من (الهنود الحمر) ويتناثرون هنا وهناك في مساحات هائلة يمشون في مناكبها جماعات ضئيلة العدد حتى ليخيفهم الفضاء وحده ولو لم يكن فيه شيء من عوامل الخوف

في هذه البيئة الساذجة وفي كوخ حقير من الخشب يقوم وسط فضاء الطبيعة الرهيب الرحيب، فتح إبراهيم لنكولن عينيه على هذا الوجود في اليوم الثاني عشر من شهر فبراير عام سنة ١٨٠٩م!

خرج الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، بل خرج إبراهيم لنكولن أحد القلائل الأفذاذ الذين تفخر البشرية بانتمائهم إليها من هذه البيئة ودرج من ذلك الكوخ. وما كان ذلك ليعيبه، بل إنه لمن دواعي الفخر إن قدر لمثل هذا العظيم أن يزهى أو يفخر. وهو لعمرى مدين بجانب كبير من عظمة نفسه وسمو روحه إلى تلك البيئة التي خرج منها؛ ذلك أنه نجا على نقاء عنصره وصفاء روحه من زخرف الحياة وغرورها، ومن مفاسد المدينة وأضرارها، ومن أوهام المجتمعات وكواذب أحلامها، فخلص له معدنه الحر وبقي نقياً لم تعلق به الأوشاب؛ وصار في جميع أفعاله تتكشف جوانب نفسه عن طبيعة صادقة كأنما تتحرك عن إلهام أو تعمل بوحى! وتمثلت فيه البشرية في سذاجتها وكمالها وفي ضعفها وقوتها وفي إسفافها وعلوها؛ وصار الناس يلمحون في سجاياه براءة الطفل وتوقد عاطفته إلى جانب نزعات الفيلسوف ورجاحة عقله! وكم للفقر من يد على العظماء! وكم أخرجت مثل تلك البيئة الطليقة الخالصة من رجال أمثال ومصاييح أعلام قادوا القافلة واستقاموا على الطريقة، أو على الأصح استقامت بهم الطريقة ووضحت المحجة!

ذلك هو لنكولن الناشئ في الشوك من أيامه، وتلك هي صفاته في جملتها كما ستتضح لك فيما سيأتي من حديثه. وكأنك تقرأ سجاياه في أسارير وجهه؛ وتحس فيها ما تعودته في حياته من البأساء والضراء. فإذا نظرت إلى صورته رأيت شبح حياته الأولى في رأسه الأشعث، ولمحت زكانة نفسه في جبهته العريضة العالية المجعدة، وأحسست طيب قلبه وصفاء طويته ورقة عاطفته ونفاذ بصيرته في عينيه الوديعتين المتسائلتين، وتبينت صرامته ومضاء عزيمته في أنفه الغليظ الأشم. ثم أبصرت قوة صبره وشدة تحمله وروعة استسلامه تختلج كلها على شفتيه المضمومتين المعبرتين عن مض الحوادث، وطالعتك من هاتيك الملامح في جملتها سذاجة الأطفال وهيبة الرجال؛ ثم تهلل من وراء ذلك كله سر العبقرية الذي يدق عن كل وصف ويسمو على كل تحليل!

فتح الوليد عينيه على الوجود في لوح أقيم من الكتل الخشبية في مقاطعة كنتوكي بعد استقلال الولايات بنحو ستة وعشرين عاماً، فنما كما ينمو وحشي النبات في ذلك الإقليم! نما على ما تجود به الحيوانات من ألبانها، وتدثر بجلودها، ثم تغذى ثمار الشجر واضطجع في مهد من أوراقها الجافة كأنه فرخ من أفراخ الطير. ولما بدأ يدر الأشياء وجد عالمه في ذلك الكوخ الذي لم يكن يزيد اتساعه على أربعة أمتار في مثلها والذي لم يكن فيه من الأثاث إلا وحشية وغليلة، من جلود مجففة إلى أنية جافة شوهاء إلى قطع غليظة من الخشب سوتها فأس أبيه التي كان يراها بين آونة وأخرى معلقة على الحائط بجانب أداة أخرى كانت تبدو غريبة في عينه الغريرة، تلك هي بندقية أبيه التي كان يحملها على كتفه كلما سار نحو الغابة، فهي لذلك تختفي في النهار وترى بالليل على حائط الكوخ

وكانت الغابة أو كان الجزء المحيط منها بالكوخ هو نهاية ما يصل خيال من هذا الوجود. حسبه الآن من الوجود أن يلعب ويمرح في هذا المضطرب

وإن لم يكن له فيه من رفقة سوى أخته التي تكبره بعام؛ وأن يستمع إلى ما ترويه له أمه من أقاصيص وأنباء يلتهمها التهاماً وأن يصغي إلى ما تجيب به عن أسئلته الكثيرة

على أنه كان ينظر إلى الغابة نظرة الرهبة والدهشة معاً؛ وكان يعجب كلما رأى أباه مقبلاً من بين الأشجار، بندقيته على كتفه ومعوله في منطقتة، وفي يده طائر أو حيوان يدفعه إلى أمه إذا وصل إلى الكوخ فتأخذه في فرحة ظاهرة وتهيي الطعام للأب وللأسرة جميعاً

في هذه السن الباكرة يرى الغلام الحياة من قرب رؤية مباشرة، فهو يعيش كما كان يطلب (روسو) في أحضان الطبيعة حيث يرهف حسه ويقوي وجدانه ويعمق خياله وتنبسط نواحي نفسه الصغيرة وتستشف ما في هذا الكون العجيب من سحر وجمال وتستشعر ما فيه من سر ورهبة

أليس يرى من كثب كيف تطعم الأسرة وكيف تكتسي؟ أليس يرى التعاون بين الوالدين وما ينتج من راحة واطمئنان؟ أليس يرى الكدح في سبيل العيش؟ وحسبه في سنة أن يرى ذلك وأن يلمسه

على أن مجال الحياة يتسع أمامه بعد أن تخطى سنته الخامسة إذا انتقلت الأسرة فأقامت كوخاً جديداً على طريق مطروقة كانت تؤدي إلى إحدى المدن القريبة. وهناك يرى الغلام أنماطاً من الناس غادين رائحين ويرى دواب وعربات وأشكالاً من الملابس تختلف اختلافاً كبيراً عما اعتاد رؤيته على جسد أبيه، فيتأمل ويعجب بينه وبين نفسه

وفي السابعة من عمره يصحب الغلام أباه إلى الغابة، هنالك حيث بدأ يقوم بنصيبه من العمل، فيساعد ذلك الأب الذي يقطع الأخشاب ويصنع الأثاث ويبيعه، ويكسب من وراء ذلك نقوداً تحتاج إليها الأسرة، وإنه لفخور الآن بمساعدة أبيه، لا يحفل بتعب في تلك المساعدة التي يباهي بها أخته، وإن كانت هي أيضاً تقوم بنصيبها في مساعدة أمها؛ ولكن هل كانت (سارا) تستطيع أن

تسوي الخشب وتجره وترتبه؟ هل كانت تستطيع أن تحمل الصيد إلى الكوخ كما كان يفعل (أيب) الصغير؟

كان لا ينقطع عن العمل إلا في أيام الأحاد، إذ يجلس وأمه وأخته وأباه أمام الكوخ فيستمع في شغف ولذة لما تلقي أمه من أقاصيص وما تتلو من حكايات مشتقة من الإنجيل. ولقد أحدثت تلك الحكايات في نفس الغلام أثراً عميقاً وظلت مسحتها الدينية تلازمه بعد ذلك في جميع أطوار حياته

وجاء بعض ذوي قرباه فأقاموا إلى جوارهم وأقبل الغلام على خاله وخالته يستزيدهما الأنباء والأقاصيص، وكم كان معجباً بتلك الخالة التي تكتب وتقرأ وتحب أن يتعلم الغلام القراءة والكتابة على الرغم من إعراض أبيه عن ذلك وعدم اهتمامه به

وبدا للغلام يوماً فسأل عن أسرته، وأين نشأت، وممن انحدرت؟ فسمع ردوداً مبهمه لم ترو ظمأ نفسه، وماذا كان يتوقع الغلام؟ أكان يحسب نفسه سليل سادة أكابر؟ ولكن ما كان أبعد فكره عن هذا؟ وهل رأى غير بيئته وأسرته؟

ولئن سمع غيره من الأطفال من آبائهم عما كان عليه جدودهم من عظمة وما تقلبوا فيه من نعيم الحياة ورفيع المناصب، لما كان لمثله أن يسمع شيئاً من هذا. وأنى له ذلك وهو ابن الأحرار والأدغال؟! وغاية ما سمعه عن جده ما حدثه به أبوه ذات مرة، أنه بينما كان يساعد أباه - جد (أيب) - في الغاب ومعه أخواه إذ انطلقت رصاصة من بين الأدغال فأصاب ذلك الأب فخر صريعاً، وجرى الأخوان نحو الكوخ، وبرز من بين الأشجار أحد الهنود الحمر وحمله يريد أن يأخذه إلى داخل الغابة بعد موت أبيه، لولا أن صوب أكبر الأخوين بندقيته التي أحضرها من الكوخ مسرعاً، إلى رأس ذلك الهندي فأرداه قتيلاً

فسمع الطفل ذلك الحديث وقد علقت أنفاسه ودق قلبه إذ رأى مبلغ ما أحق بأبيه من الخطر، ورأى أنه أشرف على الموت لولا بسالة عمه لذهب كما ذهب

جده، وهاله موت جده على تلك الصورة، وكان ذلك كل ما عرفه عن ذلك الجد، أو قل كان هذا هو نصيب جده من العظمة ومن جاء الحياة! ولكن متى كان الإنسان بجدوده وآبائه؟ وأي فضل لأمرئ يرث الجاه ولا يكسبه ويُعطى العظمة ولا يبنيناها؟

تلك هي حياة (أيب) وذلك هو محيطه وهو في السابعة. أجل هي تلك حياة رئيس الولايات المتحدة في أولى مراحلها في أحراج مقاطعة كنتوكي حيث لا مدنية ولا تعليم ولا رفاهة! كلا، بل لقد ذهب الغلام إلى المدرسة في خاتمة تلك المرحلة؛ ولكن أية مدرسة هي؟ كانت كوخاً من كتل الخشب أقيم كما أقيم كوخه الذي يعيش فيه، وكانت تبعد عنه نحو أربعة أميال، وكان يذهب إليها كلما استطاع أن يطلقه أبوه من أعمال النجارة في الغابة فيجلس ساعات مع الصبية على الأرض إلى معلم يعلمهم الهجاء بأن يناولهم كتاباً واحداً يمر عليهم جميعاً الواحد بعد الآخر فيتعلمون الحروف ورسمها ونطقها! ويسأل الصبي نفسه في لهفة شديد متى يستطيع أن يكتب ويقرأ كما تفعل خالته وأمه؟ وإن ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه.

ما لبثت الأسرة أن رأت في عميدها (توماس لنكولن) ميلاً شديداً إلى الرحيل من (كنتوكي) إلى حيث يسهل عليه كسب قوته وقوتها مع اليسير من الجهد، وكان توماس من نفر الذين يضيقون بالجهد والذين يطلبون أكلاف العيش من أيسر سبلها فهو لذلك لا يكدح إلا مضطراً؛ وما فتئ يذكر اسم (انديانا) مقروناً بالخير والبركة وهو يزين لزوجته الرحيل إلى تلك الجهة، ثم ذهب فخبرها بنفسه وعاد بعد قليل يحمل إليها متاعه وأسرته. وما كان أسرع بعد عودته في توطيد ما اعتزم! حزم متاع بيته وحمله على جوادين أحدهما لذلك، وكان ابنه (أيب) يركب معه على ظهر أحد الحملين، وتركب زوجته وابنته (سارا) على الآخر وقضوا في الطريق زهاء أسبوع يشقون في سيرهم الأجرار ويجتازون بعض مجاري المياه، فإذا جنهم الليل قام عميد الأسرة على حراستهم حتى ألقوا رحالهم آخر الأمر في (انديانا)

وشمر توماس لنكولن عن ساعديه وشمر معه أيب وأهوى بفأسه على الأشجار يقطعها ويشققها ويسوي فروعها وابنه يعاونه ما وسعه العون وهو لا يني يشق هاتيك الخشبة، ويقطع تلك ويشذب هذه، حتى تم له إعداد ما يلزم لإقامة كوخ تأوي إليه الأسرة، ثم دعا إليه بعض جيرانه ليساعده في رفع تلك الأخشاب بعضها فوق بعض. وكان رفع الأخشاب عملية يدعى إليها الجيران فيلبون في سرور وإخلاص، وكان يجري فيها من فنون اللهو والمزاح ومن ضروب التندر واللعب بقدر ما يكون فيها من مشقة ونصب أقامت الأسرة في انديانا، وتركت موطنها في كنتوكي، وإنك لترى هذا الارتحال من مكان إلى آخر ومن مقاطعة إلى مقاطعة أشبه بتنقل البدو في الصحراء. ليس بين الحياتين من فرق إلا بمقدار ما يكون بين الغابة والبيداء، وبين البيت يتخذ من الشعر أو يقام من كتل الخشب؛ ومن ثم فليس بين المعيشتين من فرق من حيث أثرهما في الخلق والخيال إلا بقدر ما يقوم بين الطبيعتين من اختلاف

وكان لهذا الترحال أثره في نفس الغلام، إذ أخذ الوطن منذ ذلك الحين يتسع في نظره ويمتد حتى أصبح وطنه هو أمريكا كلها؛ فهو مرتحل أبداً مادام العيش يتطلب الارتحال، وهو متخذ من كل مكان وطناً يتصل بنفسه ويعلق بخیاله، وظل ذلك شأنه حتى انتهت إليه زعامة الولايات جميعاً وحتى أخذ بيده مقاليد الحكم فيها

وكانت الحياة في انديانا سهلة لا تكلف الناس عناء ولا ترهقهم عسراً، إذ كانت تقوم على الصيد، وكانت الحيوانات موفرة في الغابات لمن يطلب الصيد، ولكن تلك المعيشة كانت إذا قيست إلى معيشة المدن بعيدة كل البعد عن أسباب الرفاهة، بل عن أبسط وسائل الراحة، وحسبك دليلاً على ذلك أن الملابس كانت ما تزال تتخذ من جلود الحيوانات، إلا في بعض الأحيان حين كان يغزل الصوف وينسج بالأيدي وفي الأكواخ، وأن البيوت كانت كما رأيت، وما كانت تفتقر إليه تلك الأصقاع من المتاجر أو سبل الاتصال أو دور الاستشفاء أو دور التعليم إلا ما كان منها في أبسط حالاته، أو غير هذه من مظاهر العمران المعروفة في غير تلك البيئة من البيئات

على أن الصبي كان مغتبطاً ببيته الجديد في أنديانا، يأنس بكثرة الجيران هنا، ويرى الحياة أكثر نشاطاً وأوسع مجالاً، ولقد جاء ذوو قرياه فأقاموا معهم حيث كانوا يقيمون. ومرت الأيام في هدوء وسلام وصفو، وكان كل يقوم بنصيبه من العمل لم يتخلف عن ذلك حتى الصغار؛ فهذا (أيب) وكان غلاماً قوي الساعدين - على نحافته - يبذر الحب في الربيع، ويشترك في الحصاد وقت الصيف، ويطعم الخنازير، ويحلب الأبقار، ويساعد أباه في أعمال النجارة؛ وهذه سارا تساعد أمها فيما لا يحسنه أيب من أعمال البيت. وظل هذا حال تلك العشيرة مدة عامين

ولكن الزمن القاسي يأبى عليهم أن يظلوا في أمنهم وسكنهم فتنتابهم حمى مروعة ينوء بها الناس والدواب، ويحار الكبار والصغار في أمرها وهم لا

يجدون طبيبياً. وهيهات أن يظفروا بطبيب إلا أن يقطعوا نيفاً وثلاثين ميلاً على الأقل. وهل كانوا يستطيعون أن ينتقلوا بضع خطوات؟. . . لقد هدهم المرض فرقدت الأم ورقد الجيران من ذوي القربى. ثم جاء دور أيب وأخته. . . وأخيراً حم القضاء ووقعت الكارثة فماتت الأم وقد أضنتها الحمى وفكت بكسدها النحيل! ماتت الأم ورزى أيب بأول صدمة من صدمات الأيام. وأي صدمة! لقد ضاقت في وجهه الدنيا، وأحس معنى اليتيم إحساساً قوياً زاد من وقعه ما فطر عليه الصبي من عمق الخيال واشتداد العاطفة. ولقد ظل واقفاً أمام تلك البقعة من الأرض التي دفنت تحتها أمه حتى تناوحت من حوله رياح المساء، ومشيت في الأفق ظلال الطفل، فذرف الدمع سخياً وعاد إلى الكوخ كسير القلب موجع النفس يحس كأنه غريب في هذا الوجود الواسع!

وكان قد سبق أمه إلى الموت أبوها وأمه، ذهباً كما ذهبت ضحية تلك الحمى القاسية، وعلى ذلك صارت ربة الأسرة سارا الصغيرة التي لا تزيد سنّها على الثانية عشرة! وكانت سارا تخدم أباه وأخاهما فيما يلزمهما من شؤون البيت؛ ولكن الرجل لم يطق صبراً على تلك العيشة، فترك - بعد سنة من وفاة زوجته - ابنه وابنته وصحبتهم طفلة دونهما في العمر هي بقية العشيرة؛ ثم عاد إليهم في عربة يجرها أربعة من الجياد! ونزلت من العربة سيدة يذكر أنه رآها قبل ذلك في كنتوكي، ونزل منها غلام وأختان له، وكانت تلك السيدة - كما عرف - زوج أبيه!

ودهش أيب لما رأى من متاع جديد! فقد رأى سرراً حقيقة وكراسي وخواناً ومائدة ومُدَى وسواها مما لم تقع عليه عينه من قبل بين جدران الكوخ. وسرعان ما توثقت عرى المودة بين الجميع، فكوّن الصغار رفقة تربطها المودة والمحبة، لا يحسون جوراً في المعاملة من جانب ربة البيت الجديدة؛ فلقد كانت امرأة صالحة طيبة القلب، رقيقة العاطفة حلوة الشمائل، ذكية الفؤاد، ازدادت محبة في نفس أيب إذ رأى منها - فوق ما أولته من عطف - ميلاً إلى

تعليم الصغار، وسمعتها تجادل زوجها في ذلك وتصر على أن يذهبوا عصابة إلى المدرسة؛ وكان الزوج في بداوته يقدم الفأس على القلم ويضن بابنه وقد أنس من قوة ساعديه ومهارة يده أن يرسله إلى المدرسة وهو أحوج ما يكون إلى مساعدته، ولكن رأيها تغلب في النهاية وسار الأولاد إلى المدرسة وكانت على مسافة ميل ونصف ميل من كوخهم

وفي المدرسة أقبل أيب على تعلم القراءة والكتابة إقبالاً لم يعرف له مثيل في قرنائهم. أليس ذلك غاية مبتغاه ومنتهى هواه؟ لقد كان يعتمد إلى قطع الفحم إذا عاد إلى الكوخ فيكتب بها على غطاء صندوق من الخشب تارة، أو على ظهر لوح الخشب الذي كانوا يحركون به النار تارة أخرى! يكرر ذلك في غير ملل مع صعوبة الكتابة بالفحم على مثل تلك الأشياء. وأنى له الحبر والورق إلا ما ندر من قصاصات رديئة كان يضمن بها على التمرن فلا يخط عليها إلا ما يحسنه فيزهي به ويباهي. . . هكذا تعلم إبراهيم لنكولن القراءة والكتابة!

لكن أباه لا يهتز لذلك ولا يهش له، بل إنه ليقطع عليه أكثر الأحيان هوايته فيستصحبه إلى الغابة ليعاونه فيما كان يراه أجدى على الأسرة من الأعمال. وهو يرى فيه الآن وقد ناهز الرابعة عشرة خير عون له إذ كان الفتى حاذقاً قوياً حتى لتبدو قوته مدهشة تحمل على العجب ما رأى الجيران مثلها قط فيمن كان في مثل عمره. ورأى فيه أبوه فوق ذلك قدرة على الرماية تجلت له في حادثة واحدة ولكنها كانت مقنعة: تناول البندقية ذات يوم وصوبها نحو فرخ بري فأصابه في مهارة وخفة. . . على أنه قد جزع وأخذ الرعب وندم على ما فعل، وعافت نفسه هذا الفعل وما فيه من قسوة، وما رآه أحد بعدها يصوب سلاحاً نحو مخلوق. . .

وما كان إذعان إبراهيم لأبيه إذا دعاه ليصرفه عما مالت إليه نفسه، فكان يختلس الساعات فيكتب ويقرأ ويكتب ويقرأ والشوق يحدوه واللذة تدفعه حتى صار قادراً على تناول الكتب! وأول ما تناوله من الكتب الإنجيل وخرافات

إيزوب وروبينسن كروزو ورحلة الحاج. وكم كان لهذه الكتب من أثر في خياله ووجدانه، ذلك أن نفسه أخذت تتفتح للحياة كما تتفتح الزهرة أحست دفء الربيع ونوره وصفاءه! وتاقت تلك النفس الذكية إلى تاريخ العظماء، فقرأ حياة هنري كليي وحياة فرانكلن ثم حياة وشنجرتون بطل الاستقلال وزعيم الحرية. ولقد كان جد معجب بهذا الزعيم العظيم مأخوذاً بما يطالع من مواقفه في حرب الاستقلال، مسحوراً بما تجلّى في تلك الحرب ممن أعمال البطولة. ولا يخفى ما تركته مثل هاتيك المطالعة من عميق الأثر في تلك النفس الوثابة الجياشة بأنبل المعاني

وعرف عنه وهو في السادسة عشرة من الشمائل ما لا يتحقق إلا للمصطفين الأخيار. كان على قوة جسمه مضرب المثل في دماثة الخلق وعفة اللسان واليد، وكان حديث القوم في أمانته ونزاهته وسمو أدبه. تحدثت عنه زوج أبيه مرة فقالت: (لم يوجه إلى مرة كلمة نابية أو نظرة جافة، ولم يعص لي أمراً قط سواء أكان ذلك في مظهره أم في حقيقة أمره) ويروي عنه أنه استعار من أحد الجيران كتاباً عن وشنجرتون لمؤلف آخر فأقبل عليه يطالعه حتى جن عليه الليل فوضعه في شق بين الكتل الخشبية في أحد جدر الكوخ فبلله المطر، فلما رآه في الصباح اشتد أسفه وحمله إلى صاحبه، وهو لا يقوى على الوقوف أمامه من شدة الخجل، ولا يدري كيف يعتذر! ثم بدا له فعرض على صاحب الكتاب أن يدفع ثمنه، وكان ذلك الثمن أن يأجره الرجل عنده ثلاثة أيام في عمل من أعمال الزراعة! وقد تم له ذلك فطابت به نفسه وصار الكتاب ملكاً له، وذلك ما اغتبط له أشد الاغتباط

وراح يقرأ وهو يقتتل شبابه كل ما تصل إليه يده. يقرأ في ضوء النهار حتى ينقضي فيقبع في الليل إلى جانب الموقد يقرأ على ضوء اللهب! لا يكل له طرف ولا تأخذه سنة حتى لينسى طعامه وشرابه إذا كان حيال فقرة قوية أو حديث ساحر

ومالت نفسه إلى تفهم أسرار الحياة وهو بعد في تلك السن، فأخذ يتأمل ويتأمل، يلتقط جريدة قديمة فيقرأ فيها ما يعجب له ولا يفهمه، يقرأ عن الانتخابات وعن مسألة العبيد، ويسمع أشباه ذلك في الكنيسة وفي أحاديث الجيران فيعجب بينه وبين نفسه، وهو لا يدري كنه هذه الأشياء على وجه اليقين

وأخذ يدرس من كتب طباع الناس، وكانت له نظرة نافذة إلى أعماق الأشياء، وكانت نفسه بطبيعة تكوينها تتفعل للجمال والحق وتتفر من الشر وتتأى عنه. ولو رآه خبير بطباع البشر يومئذ لظن أنه حيال شاعر تنبسط جوانب نفسه، وتتهياً لرسالة من الرسائل روحه. ولقد كان إبراهيم يكتب الشعر يومئذ ويقرأه على خلانه؛ وصارت للشاعر بيرنز عنده مكانة سامية حتى لقد حفظ ديوانه عن ظهر قلب، وصار لا يقدم عليه شاعراً سوى شكسبير عجيب حقاً أمر هذا الفتى الذي تنقسم حياته بين المدرسة وبين أعمال النجارة في الغابة، والذي يقرأ مثل هذا النوع من الكتب قراءة تمعن وتمحيص! ولكنها العبقريّة تفتح وتعلن عن وجودها بشتى الصور والأساليب، وهي هي الجوهر الثابت لا تدركه الأبصار وإن أحسسته القلوب والعقول.

هو الآن يتخطى السادسة عشرة، طويل الجسم مديد القامة عريض الصدر، ولكنه نحيف تستوقف الأبصار نحافته كما يستوقفها طوله، وهو على نحافته قوي الجسم قوة ما توافقت لمثله في هذه السن؛ وكأنما تجمعت تلك القوة في ساعده، فليست هناك دوحة تقوى عليه إذا هو أهوى بفأسه عليها. بذأبه في قطع الأشجار وتسوية الأخشاب، وغالب أقرانه في الغابة حتى سلموا له بالتفوق مكرهين

وكانت هيئته وحشية بسبب شعره الأشعث المغبر وهندامه الساذج المتهدل، وتقاطيع وجهه المسنون الذي يبرز فيه الأنف بروزاً شديداً فيبدو كأنه أضخم من حقيقته، ولذلك ما كان يطمع إبراهيم وهو في سن الأحلام والتظرف أن

تنظر إليه فتاة نظرة ذي علق. . . وهل كان يتجه خياله إلى شيء من هذا؟
حسبه ما هو فيه مما هو أسمى من ذلك وأجدى

ولاحظ عليه أقرانه شيئاً من الشذوذ يومئذ، فهو يلقي بفأسه أثناء العمل في الغابة ويخرج من جيبه كتاباً فيقرأ ويقرأ في صوت جهوري كأنه خطيب. . . وهو يضحك أحياناً بلا سبب ظاهر وقد يعلو في ضحكه مبتدئاً من ابتسامة حتى يصل إلى قهقهة، وهو على رقة عاطفته ورفق قلبه يقوم للجيران إذا دعوه بأعمال الجزارة فيقتل لهم الخنازير بوقظها في جباهها في جراحة وسرعة. وبينا يرى الناس منه ذلك يعجبون العجب كله إذ يرونه يمد يد المساعدة إلى الضعفاء والبؤساء. لقي وهو في طريقه مع رفيق له رجلاً قد ألقاه جواده في الطريق وقد ذهبت الخمر بلبه، فما زال به يوقظه وهو لا يستيقظ ولا يفيق، فتبرم صديقه، فرد عليه أنه لا يستطيع أن يترك هذا الرجل على الرغم من سكره فريسة للبرد وحمله على ظهره إلى كنه؛ وأقام إلى جانبه رداً من الليل. وسمعه الناس يعلن عطفه على الهنود الحمر قائلاً إنهم أصحاب تلك الأرض وإنهم أخرجوا من ديارهم وأنهم لذلك جديرون بالرحمة والعطف! ولم يقف به عطفه عند الإنسان، بل لقد أظهر غير مرة الرأفة بالحيوان، فوقف ذات يوم ينقذ كلباً وقع في الثلج وقد ناله في ذلك من التعب ما ناله. ورأى بعض خلانه يلعبون بسلاحفأة أوقدوا على ظهرها ناراً فعنفهم وذهب من فوره فكتب موضوعاً في الرفق بالحيوان وقرأه على من صادفهم من جيرانه!

ومما يعرف من ميوله يومئذ ميله إلى المحاماة، ولعل مرد ذلك إلى حذبه على المستضعفين. عرف هذه المهنة حين قصد ذات يوم إلى جلسة قضائية في بلد قريب ليتفرج، وقد أعجب بدفاع أحد المحامين ودفعه إعجابه إلى أن يتقدم إلى ذلك المحامي مهناً، فاقتحمته عين المحامي المدل بنفسه وازدراه وهو يرى من هيئته ورث ثيابه ما يرى، ولم يدر أنه كان يزدرى من سيكون يوماً رئيس الولايات المتحدة! ومنذ ذلك اليوم تآقت نفسه إلى معرفة القانون عله

يستطيع أن يخطب ويدافع فينصر المظلومين، فلقد صار ذلك العمل محبباً إلى نفسه.

ولكن أنى له المال الذي يهيئ له سبل الدراسة والظهور في المجتمعات؟ أنى له المال وهو لا يكاد يراه. هاهو ذا يصنع قارباً بيديه ويحمل فيه بعض حاصلات إقليمه ليبيعهها في سوق قريبة ولكنه يبيعهها بثمن زهيد؛ بيد أنه حدث أن حمل في تلك الرحلة بعض الناس في قاربه من شاطئ النهر إلى حيث أدركوا قارباً بخارياً في عرض النهر، وما كان أعظم دهشته حين مد إليه أحدهم يده بقطعتين من الفضة كانتا تساويان ريالاً، وما كان أعظم فرحه بذلك. أشار إلى ذلك الحادث يوماً وهو في منصب الرياسة يخاطب صديقه ستيوارت فقال: (إني لم أكد أصدق عيني. ربما رأيت ذلك يا صديقي أمراً تافهاً، أما أنا فإني اعتبره أهم حادث في حياتي. لقد كان من العسير عليّ أن أصدق أني - وأنا ذلك الفتى الفقير - قد كسبت ريالاً في أقل من يوم؟ لقد اتسعت الدنيا في ناظريّ وبدأت لي أكثر جمالاً؛ وازداد أُملي وثقتي بنفسي منذ تلك اللحظة).

ما كانت الفاقة لتعوق ابن الأحرار عما كانت تتوق نفسه إليه. وهيهات أن تترك النفس الكبيرة إلى دعة أو ترضى بمسكنة. هاهو ذا فتى الغابة يهدف للثامنة عشرة، لا يذكر أنه منذ قوى على حمل الفأس كان كلا على أحد. بنى نفسه كأحسن ما تبنى النفوس، غذاء جسده من قوة ساعده، وغذاء روحه من توقد ذهنه ودأبه وجلده وبعد همته

كان ابراهيم عصامياً في أوسع وأدق معنى لتلك الكلمة؛ عال نفسه وربى نفسه وعلم نفسه. وكان على استغنائه عن الناس يخفض جناحه للبعاء والأقربين. والله ما أجمل تلك النفس في تواضعها ودمايتها، وما أجمل ذلك التواضع من فتى لا يرى لأمرئ عليه يدا؛ وهو لولا كرم عنصره ونقاء جوهره جدير أن يدل بذلك وأن يزهى؛ وما الإنسان؟ أو ليس هو يطغى أن رآه استغنى؟

استغنى ابراهيم بجده وقناعته في مطالب معيشته عن الناس، ولكنه أحسن معايشرة الناس وأنسوا منه لين الجانب وذنوبة الروح وهدوء الطبع وشدة الحياء. على أن ما زادهم محبة له وإقبالاً عليه حلاوة حديثه وحصافة رأيه وأصالته، وكان قد أحب منذ أن أعجب بذلك المحامي المدل أن يتحدث إلى الناس ما وافته فرصة إلى ذلك، وهو بطبعه بارع السياق قوي الحجة تمتاز كلماته - وإن لم يقصد - بقرب المأخذ وبعد المرمى، وهي صفة سيدرك فائدتها في مستقبل أيامه

سأقت إليه الأقدار وهو في التاسعة عشرة عملاً خرج به من الغابة أياماً إلى دنيا الحضارة!

فقد استأجره أحد ذوي الثراء في تلك الجهة ليذهب ببضاعة في قارب إلى مدينة نيواورليانز؛ وقبل الفتى وإن قلبه ليخفق، وإن نفسه لتتنازعها عوامل الخوف والأمل والرضاء وحب الاستطلاع. وما له لا يخاف وهو لم يقم بمثل تلك الرحلة الطويلة من قبل، ولا عهد له بالمدن وعيشتها وأهلها؟ ولكنه قبل

وتأهب. وما كان حب المال هو الذي حفزه إلى القبول ولكنها كانت رغبته الشديدة في رؤية الدنيا! وهو يومئذ تواق إلى المعرفة، لهج برؤية الحياة في بيئة غير الغابة

وخرج معه فتى من أهل الجهة ليعاونه، واتخذا سبيلهما في نهر الأهايو ومنه إلى ذلك النهر العظيم: نهر المسيسيبي، حتى إذا أتيا مدينة نيواورليانز بعد أن قطعاً ألفاً وثمانمائة ميل، رأيا خلاله على الضفاف حيوانات وأشجاراً وأناساً غير ما ألفا في إقليمهما. وكم كانا معجبين بما رأيا وما سمعا ممن أويا إليهم من سكان البلدان التي نزلا عندها ليالي رحلتهم. ولن ينسى الفتى ما رأى من بطولة أيب حين هاجمهما ذات ليلة وهما في نومهما سبعة من الزوج، فقد رآه يعمد - وقد أفاق على همسهم - إلى مجراف فيحاربهم في بسالة حتى يضطرمهم إلى الفرار وهم منه خائفون

دخل إبراهيم وصاحبه مدينة نيواورليانز، ولك أن تتصور مبلغ ما بعثته تلك الزيارة من أثر في نفسه، وقد جاء وهو يافع من الغابة فرأى مدينة كبيرة لأول مرة! وأية مدينة هي؟ لقد رأها تموج بأنماط من الناس وأخلاط من العبيد. ما هؤلاء السادة الذين تغدو وتروح بهم المركبات الفخمة؟ وما هؤلاء النسوة اللاتي يخطرن في دلال ويبرزن في عطايف الثراء والنعمة؟ ما هؤلاء وما هؤلاء ممن يرى أمام ناظريه. . ؟ وما هذه الدنيا التي يضطربون فيها وما حياتهم وما مبلغ بعدها من حياة الغابة. . ؟ ثم ما هؤلاء العبيد. . ؟ أجل ما هؤلاء العبيد وما حظهم من تلك الحياة الفوارق بالقوة والجاه؟ هؤلاء هم الذين قرأ عنهم وسمع من أخبارهم ما لم يفهم على وجه اليقين؟ نعم هؤلاء هم العبيد. . وهو محررهم ومحطم أغلالهم في غد!

عاد إبراهيم بعد أن أدى مهمته على خير وجه، وقد قضى في رحلته هذه ثلاثة أشهر بعيداً عن أنديانا، ولكن ما تركته تلك الأشهر الثلاثة في نفسه من الأثر تجعلها كما لو كانت ثلاث سنين، فقد أحسست نفسه الفرق بين المدنية

والهمجية إحساساً قوياً. إنه يتساءل بينه وبين نفسه: أي الحياتين أقرب إلى المدنية حقاً! عاد إلى موطنه، ولكن أي موطن وهو ابن الأحرار ربيب الترحال والأسفار؟ لقد شد أبوه الرحال من جديد على رأس الأسرة إلى مقاطعة جديدة هي الينويس، تحفره نفس الدوافع التي حركته من كنتوكي إلى أنديانا؛ وكان إبراهيم هذه المرة عضد أبيه، فهو يومئذ في الحادية والعشرين. ولما حطوا رحالهم بعد أسبوعين قام كوخهم الجديد على ما شقت يده الفتية من أشجار. لقد صغرت أما قوته ومهارته قوة أبيه ومهارته، وسرعان ما أصبح أيب حديث الجيران في البقعة الجديدة

عمد إلى الزراعة فحرت قطعة من الأرض وبذر فيها القمح وسورها بسور من قطع الخشب سوتها فأسه، وكان يعاونه في ذلك فتى من ذوي قرباه؛ وترك أيب القمح ينمو وتتاول فأسه وراح يعمل في الغابة أجيراً وقد ذاع صيته وتقدمه أينما سار، وهو يحس اليوم أن دخله من فأسه يزيد هنا عما كان يحصل عليه في أنديانا. ولكن أي دخل هذا إذا هو قيس إلى ما عسى أن يكسبه رجل غيره في بيئة أخرى؟ لقد أستاذجره أحد الأثرياء ليقطع له خشباً يسور به مزرعته، فرضي أيب أن يقدم لذلك الرجل أربعمئة قطعة من الخشب نظير كل (ياردة) من القماش الساذج الذي طلبه أيب ليتخذ منه سروالاً!

وتجلت للناس فتوته وشهامته في عدة مواقف، فهو لا يفتأ يمد يده إلى البائس والملهوف في كرم وإخلاص، وهو لا يني يضرب بفأسه في نشاط وإقبال، ولقد تحداه ذات يوم رجل ذو قوة وبأس أن يصارعه، فنازله على كره منه، إذ كان ينفر من القسوة والعنف، وما لبث أن غلبه على أعين الناس فازدادوا له إكباراً

وما انصرف إبراهيم يوماً عن المطالعة على الرغم من شواغله، فأوقات فراغه للقراءة لا لغيرها مما يقضي فيه الفراغ من ملاذ الحياة ومباهجها. وأي شيء هو أحب إليه من القراءة والدراسة؟ يا عجباً! هل كان يدري أن القدر

يعده لأمر خطير سوف ينقل به تاريخ بلاده من صفحة إلى صفحة؟! كانت قراءته يومئذ في القانون، فقد ألفت المصادفات في يده كتاباً يدور البحث فيه على قوانين المقاطعة الجديدة. على أنه قد قرأ قبل ذلك كتاباً غير هذا في القانون، فهو جد مشغوف بالمحاماة والخطابة، وكأنه كان يهين نفسه لهذه المهنة التي هام بها وجدانه، وهو بفطرته ميال إلى محادثة الناس كما سلف أن ذكرت، وإنه اليوم ليخطبهم كلما دعا إلى ذلك داع وشاءت الأقدار أن يذهب في رحلة أخرى مع رفيقين إلى نيواورليانز؛ فقد اختاره أحد التجار ليقوم على تصريف بضاعته وجعل له ولزميليه أجراً في نظير ذلك. ولقد صادف في تلك الرحلة حادثاً آخر: ذلك أن القارب اصطدم بحاجز صخري عند بلدة نيوسالم فتعلق وانحدر وأوشكت حمولته أن تهوي إلى الماء لولا ما كان من مهارة أيب وقوة ساعديه، تلك المهارة التي أعجب بها نفر من أهل تلك البلدة وقد تجمعوا يشهدون الحادث

ولما فرغ ابراهام من أمر تلك البضاعة ولى وجهه تجاه أسواق الرقيق يدرس حالها من كتب وهو لم ينس يوماً ما تركه حال العبيد من أثر في نفسه منذ زيارته الأولى. ألا إنه ليهتم لهذا الأمر أكبر اهتمام ويقلبه في خاطره على كافة وجوهه، كل ذلك في عمق وتمحيص فتلك خلة من أبرز خلاله؛ فهل كان يعلم ابن الغابة أنه سيؤدي للعالم من عنده رسالة جديدة ويخطو بالإنسانية خطوات واسعة نحو النور بتحريره هؤلاء العبيد وفك أصفادهم؟ كلا! ما كان يدور بخلده يومئذ شيء من هذا

رأى ويا لهول ما رأى! رأى في تلك الأسواق جماعات من السود ذكوراً وإناثاً جيء بهم قسراً من مواطنهم مقرنين في الأصفاد يباعون كما تباع الماشية، يلهب التجار جلودهم بالسياط ويسوقونهم كما تساق الأنعام كأنهم لا يمتون إلى البشرية بصلة. وما كانت نفسه الكبيرة، وما كان قلبه الرحيم ليمر

بتلك المناظر كما يمر غيره من الناس، كلا بل ستبقى مسألة العبيد في أعماق نفسه حتى تحين الفرصة

أخذت عيناه فيما رأى فتاة جميلة المحيا مرهفة القوام يعرضها الباعة على الأنظار وهي نصف عارية كما يعرضون فرساً كريمة، وقد افتنن بقسماتها وقوامها الشاهدون؛ وإبراهيم تتحرك نفسه من أعماقها ويتألم ما وسعه الألم. وصفه أحد زميليه فقال: (رأى لنكون ذلك وإن قلبه ليذمى. لم تتحرك شفاته وظل صامتاً، ومشت في وجهه كدرة الهم؛ وأستطيع أن أقول وأنا به عليم، أنه في تلك الرحلة قد كون لنفسه رأيه في مسألة العبيد)

ومما يروى عنه في تلك الرحلة أن عرافة لقيته فقالت وهو يمازحها: (يا فتى سوف تكون رئيساً للولايات ويومئذ سيتحرر جميع العبيد) وما كانت كلمات العرافة إلا كلمات القدر تجري على لسانها في نبوءة عجيبة!

وقفل إبراهيم راجعاً إلى الغابة وقد ازدادت تجاربه ومعرفته بالحياة والناس وهو في سن الدراسة والتطلع إلى معرفة النفس البشرية وما تنطوي عليه من معاني الخير والشر. ولقد سلمت نفسه من شرور المدنية، فلم تعلق بها أو شاب! وهل كان لنفس مثل نفسه محصتها الشدة وعصمتها الحياة المحصورة في الغابة، أن تنزل أو ترقى إليها غواية؟

لم يقم إبراهيم طويلاً في كوخ أبيه؛ فما لبث أن خرج في طلب العيش. وقد أدرك أنه بعد أن تجاوز الحادية والعشرين يستطيع أن يغادر أباه ليقوم على شؤونه بنفسه. خرج من الكوخ إلى غير عودة إليه! فترمي به النوى مطارحها كلما تصرمت الأيام، وكان أول عمل قام به أن فتح له ذلك الرجل الذي استأجره في رحلته الثانية إلى أورليانز - حانوتاً في نيو سالم وأقامه فيه ليبيع نائباً عنه وذلك لما خبر من مهارته وأمانته. ولقد قطع أيب المسافة إلى نيو سالم على قدميه؛ وأخذ يبيع في الحانوت في خفة ولباقة كأنه مارس التجارة من قبل. وأتاح له ذلك العمل فرصة لقاء الناس، ولقد رأوا من خلاله ما امتلك به قلوبهم؛

رأوا منه لين الجانب وسعة الصدر وحلاوة اللسان وسرعة اليد وحسن الملاطفة والممازحة، ورأوا منه فضلاً عن ذلك جميع الأمانة كأعظم ما تكون الأمانة. وأتاح له ذلك العمل أيضاً أوقاتاً يقضيها في المطالعة فكان يتمدد على ظهر صندوق ويقرأ حتى يقصده مشتر فيبيعه ما يطلب ثم يعود إلى كتابه

ولشد ما أعجب الناس بإبراهيم وخلاله وصار يعرف بينهم باسم أيب الأمين، وصارت تلك الصفة منذ ذلك اليوم أشهر صفاته وأحبها إليه وإلى الناس. حدث أنه أعطى لامرأة ذات مرة على جهل منه مقداراً من الشاي أقل من حقها، فلما أدرك ذلك سار إليها آخر النهار مسافة طويلة يحمل إليها باقي الشاي؛ وحدث أنه أخذ خطأ بعض دريهمات من رجل فلما عد ماله آخر النهار سأل عنه اهتدى إليه ودفع له دريهمات. وكان الناس يعلمون هذا وغيره فيقبلون عليه معجبين. ولم ينس في تلك البلدة ما جبلت عليه نفسه من النجدة والمروءة والحدب على الضعفاء. ونمى أمره في ذلك إلى جماعة من الفتيان في البلدة كانوا يجعلون العربدة هويتهم والشغب مسلاتهم؛ وكان على رأسهم فتى مقتول الساعدين شديد المراس يقال له أرمسترنج. فجاءوا عصابة إلى إبراهيم يسخرون منه ويتحدونه أن ينازل زعيمهم، وهو يعرض عنهم وتأبى عليه نفسه أن يحفل بهم؛ ولكنهم يسرفون في التحدي والقحة، حتى يخرج إليهم ويسير إلى قائدهم ويشتد الصراع بين الفتيين ويستجمع ابن الغابة قوته ويدفع خصمه فإذا هو ملقى على وجهه متدحرج كأنه كتلة من الخشب! والفتية لا يصدقون أعينهم من الدهش. ولقد نهض صاحبهم فصافحه وسلم له بالغبلة. وشاعت في الناس بطولة فتى الحانوت وشدة بأسه. وما كان إبراهيم غليظاً أو رجل شر، بل لقد كان يسعى أبداً في القضاء على الإحن والمنازعات، وكم له من يد في هذا المضمار

عرف الناس إبراهيم فوق ذلك باستقامته فما عهد عليه من سوء قط؛ كان لا يقرب الخمر ولا الميسر ولا يعرف الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وأين ذلك

الرجس من تلك النفس العصامية الطامحة؟ إن له من نفسه خير عاصم، وله من الكتب ما يملأ به فؤاده؛ وكانت كتبه إلا قليلاً مستعارة؛ يسمع عن كتاب يطلبه فيجده عند أحد الناس فيسعى إليه ويرجوه أن يعيره إياه حتى يقرأه فيعيده إليه؛ ومن ذلك أنه سمع وهو في الحانوت عن كتاب في قواعد اللغة الإنجليزية، وكان قوي الرغبة في تعرف قواعد اللغة ليستعين بها على ضبط عبارته، فمشى نحو ستة أميال حتى جاء صاحب الكتاب فأعاره إياه، فأكب عليه حتى أتقن فهمه. ومما قرأه أيب في تلك الأونة صحيفة كانت تكتب في السياسة، اشترك فيها وهو مملق، وكان يقبل على قراءتها في لذة واستمتاع قراءة تعمق ودراسة

ساقه إلى السياسة رجل رأى من فطنته وطلاقة لسانه وصدق إخلاصه وتطلعه إلى المعرفة ما أيقن معه أن سوف يكون له شأن غير شأنه إذ ذاك. وكان إبراهيم يحدث الناس كما ذكرنا كلما سمحت بذلك فرصة، وقد ألفوه جذاب الحديث بارع السياق يضرب الأمثال في غير توقف ويسوق الأدلة في غير عوج! وإنك لترى من ذلك أنه يستطيع أن يخوض السياسة، فماذا اعتزم؟ عقد النية على أن يتقدم للناس ليختاروه نائباً عنهم في مجلس المقاطعة النيويس! وكان في تواضعه يرى الخطوة جريئة. على أنه كان يدرك أن اليد قصيرة والجيب خال والجاه منعدم. فعلام يعول ابن الغابة والى من يستند؟ ليس أمامه غير نفسه؛ ولكنه حسبه تلك النفس

وكان أيب في الثالثة والعشرين من عمره وإنه ليحقق لنا أن نتساءل كيف خلت حياته إلى ذلك اليوم من الحب على قوة روحه ونبل عواطفه وشدة بنيته؟ الحق أنه كان ينفر من النساء ومخالطتهن، وكان شديد الخجل خافض الطرف متلجلج اللسان متبلبل خاطر كلما وجد نفسه على رغبة في مجلس يضم فتاة أو فتيات. وكان هذا الحياء الشديد مما عرف من صفاته؛ بيد أنه يحس اليوم كأن شيئاً يختلج بين جنبيه، فلقد زار ذات ليلة ذلك الرجل الذي وجهه إلى

السياسة في خانة، وكان صاحب ذلك الخان؛ ورأى هناك ابنته، وكانت حسناء في الثامنة عشرة، فمال إليها قلبه ولكنه ما لبث أن علم أنها خطيبة فتى غيره؟ وهل كان لمثله أن يطمع في تلك الفتاة على ما هو فيه من خصاصة وعلى ما كان ينعم به أبوها من ثراء؟

وهو في شغل اليوم بالسياسة؛ ذهب إلى الخان حيث يجتمع فتية الحي ورجاله، وبعد أن استمع إلى حديثهم برهة وثب إلى مرتقى وقام فيهم خطيباً! ولعلها كانت أولى خطبه إذا أردنا معنى الكلمة. راح يحدثهم عن رغبته في الإصلاح وعن أفكاره في السياسة؛ ولما كان يجهل السياسة العليا فقد قصر حديثه على إصلاح الطرق والأنهار وهو جد خبير بها. ومما قاله (إن سياستي قصيرة حلوة كرقصة العجوز، إنني أحبذ مشروع المصرف الأهلي وأحبذ الإصلاح الداخلي والحماية الجمركية. هذه هي ميولي ومبادئ السياسية، فإن اخترتموني فأنا شاكر وإلا فلن يغير ذلك شيئاً من نفسي) وقال في نداء مطبوع أذاعه في الناس (ولدت ونشأت في مدارج متواضعة، وليس لدي ثراء أو أهل ذوو جاه، أو أصدقاء يقدمونني إليكم؛ وقضيتي مبسوبة بين أيدي الناخبين الأحرار، فإن اخترت فقد أولوني جميلاً لن أوفيه مهما بذلت في خدمتهم، وإن أملت عليهم حكمتهم أن يتركوني حيث أنا فإنني قد ألفت من مواقف الانخزال ما لا أحس معه لذلك غماً)

تلك هي صراحة لنكولن، وتلك هي بسالته تتجلى في كلماته كما تجلت فيها بساطته وإخلاصه وسمو تواضعه وعزة نفسه

وكان صاحب الحانوت قد أدى بمسلكه المعوج إلى بيع حانوته إلى تاجر آخر، وترك إبراهيم أول الأمر بلا عمل، ولم يكن لديه مال يستعين به حتى على القوت، اللهم إلا ما تسوقه الأقدار إليه من وجوه الرزق. ومنها أنه قاد زورقاً بخارياً ليخرجه من منطقة عسيرة في مجرى الماء، وكان أجره على ذلك أربعين دولاراً

وساقت إليه الأقدار بعد ذلك عملاً غريباً بالنسبة إليه! ذلك هو التطوع مع فرقة من شبان الجهة لمحاربة الهنود الحمر! وكان كبيرهم - ويعرف باسم الصقر الأسود - قد هاجم البيض يريد أن يسترد أرضاً كان باعها للحكومة؛ وما كان أيب يميل إلى الحرب ولكنه تطوع إذ لم يجد لديه عملاً، ولعل تطوعه هذا وما عساه أن يبديه في الحرب يشفع له في الانتخاب ويزيد صيته رفعة. . وعلى ذلك خرج مع المتطوعين على رأس فرقة ولكن الحرب لم تدم طويلاً، ولا هي استدعت مقاومة عنيفة. وما عرف عنه أنه مس إنساناً بأذى وهو في الميدان، بل لقد تجلت مروءته في حادث نرويه لدلالته على نفس أيب وخلقه: أوى إلى معسكر المتطوعين أحد رجال الصقر الأسود وفي يده بطاقة أمان من أحد القواد؛ ولكن بعض المتطوعين وكانوا محنقين هموا به ليقتلوه فوقف بينهم وبينه ابراهام، وبنادقهم مصوبة إلى صدره وهو يصرخ فيهم (إنكم لن تقتلوا هذا الرجل) ولم يكن بعيداً أن تنطلق إليه الرصاصات في ثورة غضب كذلك الثورة ولكن الله وسلم ونجا الرجل ونجا مخلصه!

وبعد أن رجع أيب إلى نيوسالم جرت الانتخابات ولكنه خذل فيها، إذ لم يكن الحزب السياسي الذي يدين بمبادئه محبوباً يومئذ للناس! خذل ابراهام ولكن طابت نفسه الأمر وارتاحت، ذلك أنه وجد أن أكثر أصوات بلدة نيوسالم كانت له

وماذا يصنع وقد خذل في الانتخاب وآل الحانوت إلى ما آل إليه جزاءً بما فعل صاحبه؟ الحق أنه ألقى نفسه في مأزق ولعله كان يندم بينه وبين نفسه أن ترك حياة الغابة. . . ماذا يصنع ابراهام ليكسب قوت يومه؟ ليس أمامه الآن غير التجارة، لذلك اتخذ له شريكاً واشترى ما بقى من الحانوت من ذلك الرجل الذي اشتراه من قبل وعاد يبيع الناس من بضاعته، وقد حمل العبء كله إذ كان صاحبه لا يكاد يفיק من سكره. على أنه كان عبئاً هيناً إذا كان البيع قليلاً لقلة البضاعة ولقلة المشترين. وكان في البلد حانوت آخر سطا عليه أولئك الفتية

المعتدون لما شجر من خلاف بين صاحبه وبين زعيمهم أرمسترنج، وعرض صاحب ذلك الحانوت بضاعته للبيع فاشتراها ابراهام، ولكن بطريق الدين؛ كتب على نفسه مائتين وخمسين دولاراً وعد بدفعها حين يتيسر له ذلك. . . ولكن صاحبه لا يكاد يفيق من سكره فهو كلُّ عليه أينما يوجهه لا يأت بخير؛ وليس لدى أيب مال ليدفع إليه نصيبه ويخلص منه.

وأراد الله أن يبسر له أمره بعض اليسر، فاختر حاملاً للبريد في تلك الجهة؛ اختاره القائمون بالأمر لما علموا من أمانته ونشاطه؛ وفرح إبراهيم بما ساقه الله إليه، فقد حاقت الخسارة بالتجارة وخرج منها بدين أثقل كاهله كان يسميه لفداحته بالنسبة إليه الدين الأهلي! . . فرح إبراهيم بعمله الجديد وأقبل عليه في همة إذ أتاح له ذلك العمل أن يتصل بالناس وأن يتعرف أحوالهم ويدرس طبائعهم من قرب، وهو كلف بذلك حريص عليه يريد به أن ينفذ إلى أعماق النفس كما هو شأنه في كل ما يعرض له. وحبب إليه ذلك العمل، فوق ما كان من اتصاله بالناس، ما مهده له من سبل القراءة، فهو يقرأ الصحف قبل أن يعطيها أصحابها، وهو يلتهم الكتب في ساعات فراغه التهاماً. وكان أكثر ما يقرأ يومئذ كتب القانون، ولعله كان ينوي أن يتخذ المحاماة عملاً له، فلقد كان الناس يأتونه ليحكموه فيما يشجر بينهم من خلاف، وهو عندهم القوى الأمين؛ لا يتحيز إلى شخص أو فئة، ولا يتعثر في أمر، ولا يسمح لأحد أن يلبس أمامه الحق بالباطل، كل ذلك في رفق ودراية ولباقة. . . وكان إذا عرض له أمر رده إلى ما عرف من القانون ليتبين وجهه، أو أفاد من دراسته وبحثه علماً جديداً. وقد ألفت الأقدار إليه ذات يوم كتاباً في القانون يقع في أربعة أسفار عثر عليه كما يعثر على كنز. وبيان ذلك أنه اشترى بثمان بخس من رجل انتوى الرحيل بعض متاعه، وكان صندوقاً به أوراق، قلبه فعثر في قاعه على كنزه وهو كتاب (نظرات في تاريخ إنجلترا) لمؤلفه بلاكستون، وكان من أشهر ما كتب في القانون في تلك الأيام!

وهو يعيش اليوم على راتبه الضئيل من عمله في البريد ومما كان يرسله الناس من قوت إلى الأسرة التي كان يقيم بينها نظير ما كان يقدمه إليهم من نصح أو يسوى بينهم من خلاف. وإنك لتلمح شخص المحامي الناشئ في شخص عامل البريد هذا. . . على أنه تقدم فعلاً ليدافع عن بعض الناس أمام المحلفين في بعض الجلسات القضائية في تلك الجهة. وعرف بسداد الرأي وقوة العارضة ومثانة الحجة، وما وقف يدافع يوماً إلا عما يعتقد أنه الحق

ومست قلبه في تلك الأيام لذعة من الألم، فقد ألم به ما يلم بالشباب من علل الشباب، وانعقدت أمام بصره سحب قاتمة من الهم كان مبعثها ما دب في قلبه من أمل جديد نحو أن ابنة صاحب الخان، فلقد علم، وهو صاحب البريد، أن فتاتها انصرف عنها ونسي ما كان بينها لما نزل بأبيها من فاقة، وخيل إلى أيب أنه اليوم يستطيع أن يصل إلى قلبها، لولا مزاحم جديد يُدُلُّ عليه بماله وهو لا يدانيه في كفاية ولا خلق. على أنه في خجله من النساء لا يعرف ما يأخذ مما يدع، فهو في حيرة من أمره، وهو كما علمت متقد العاطفة موفور القوة مشبوب الخيال، وذلك ما صور له طيوفاً من الشجن أخذت تتزايد حتى ليضيق بها قلبه ويكاد الأمر أن يصل به القنوط. روى عنه أنه قال لأحد خلانه: (ربما ظهر مني حينما أكون في رفقة أنني أستمتع بالحياة في نشوة، ولكني إذا أويت إلى عزلتي أخذتني غالباً حال من الهم حتى لا أجرؤ أن أحمل معي مبرة)

وللشباب هواجس وأحلام يحار المرء في تفسيرها وتعرف مصدرها، فهي من خفايا النفس الإنسانية، وكثيراً ما ينقبض المرء وهو في حال من الرضا أو هو في مثل حال الرضا. . . هل كان مرد همه إلى طموح نفسه وتوثب همته؟ أم كان ذلك إلى نوازع قلبه وهواجس خاطره؟ هل كان أيب يجب أن حقاً كما يكون الحب، أم أن إحساسه بما ينقص قدره في أعين الفتيات كان هو مبعث هواجسه ومدعاة زلفاه؟

إن في انصرافه إلى عمله وهو يحمل الخطابات في قبعته من دسكرة إلى دسكرة ما يلهيه بعض الوقت، وإن له في الكتب لعزاء وسلوة: له في شكسبير وبرنز ما تأسس به روحه ويثلج خاطره، وله في تراجم العظماء - وقد كان مقبلاً عليها - من معاني السمو ومواقف البطولة ما يبهج نفسه ويثبت قلبه

وأضيف إلى عمله في البريد عمل آخر دله عليه أحد خلصائه وهو تخطيط الأرض ورسم المصورات للطرق الجديدة التي كانت الحكومة تنشئها وتوضح معالمها للناس ليهتدوا بها في مسيرهم في تلك الأصقاع. ولقد حذق إبراهيم هذا

العمل الجديد وصار بعد توزيع البريد - وهو قليل - يحمل منظاره ولوحته وقلمه ويتنقل بين الأحرار يرسم الطرق، وكان يأتي ذلك بما عرف عنه من الدقة في كل ما يعهد به إليه. . . ولكن الدائنين لم يدعوه فيما هو فيه، فأقبل أحدهم وباع جواد إبراهيم وسرجه ولجامه في مزاد نظير ماله؛ وقد عزَّ على إبراهيم أن يشهد هذا البيع فابتعد حتى يتم؛ ولكن صاحباً له يدعى جرين تقدم فدفع المال المطلوب وخلص له الجواد ولقيه فقال له: (رد لي هذا المال حينما تصبح قادراً على ذلك، فإن لم تقدر فلا عليك منه يا صديقي) وأراد بعض الدائنين أن يبيعوا تلك الأدوات التي يقتات من العمل بها فجمع لهم بعض ذوي المروءة من أهل الجهة ما كانوا يطلبون من المال وأعفوا أدوات صاحبهم من ذلك البيع. ولقد مات جرين بعد حين وقام إبراهيم يرثيه فاستعصت عليه الكلمات ولم يجد لديه غير الدموع

وجاء موعد الانتخابات وتقدم إبراهيم من جديد يقدم نفسه للناس، وكتب له النجاح هذه المرة؛ وذهب ليتخذ مقعده في مجلس الينويس نائباً عن جهة سنجمون وكان المبدأ الذي نجح عليه هو مبدأ الهوجز إذا أردنا السياسة، وهو مبدأ الفضيلة والنبيل والسمو إذا أردنا الخلق. . .

ذهب عامل البريد ومخطط الأرض إلى حيث يجلس مع المنتخبين، وإن له في السياسة لشأناً بعد حين. هو الآن في الخامسة والعشرين وقد اختاره الناس لما خبروا من خلاله وما رأوا من سعة اطلاعه ورجاحة عقله؛ ولكنه فقير فكيف يذهب في ملابسه البالية إلى المجلس؟. . . اقترض ذلك الشاب المدخر لرياسة أمريكا في غد - بعض النقود فاشترى حلة جديدة وذهب إلى فاندااليا عاصمة الينويس فاتخذ مكانه بين ممثلي الولاية. . . جلس يدرس ويفكر، لا تفوته عبارة ولا تفلت منه قضية، وكانت مشكلة العبيد تشغل بال الناس يومئذ في وضع من أوضاعها، كما كانت تشغل بالهم أمور أخرى تنحصر فيما كانوا يتوخون من وجوه الإصلاح في التجارة والصناعة وسبل الاتصال. اتضح من

خلال إبراهيم في المجلس ما عطف عليه القلوب، فقد رأى منه زملاؤه الإخلاص والحماس في غير تعصب، فهو يدافع عما يعتقد أنه الصواب أو الحق في قوة وفي إصرار يشبه العناد، حتى إذا تبين له أن الحق في جانب مجادله سلم له في سرعة تسليم الرضاء والغبطة. ورأى منه زملاؤه فوق ذلك قوة في التعبير عما يريد كان مبعثها حسن اختيار اللفظ أو كان مبعثها لقانة تواتيه بالكلمة المطلوبة لا تزيد ولا تنقص. ولقد أعجبوا منه بتلك الخلقة التي ستكون في غد جانباً من أهم جوانب زعامته. . . وأنسوا منه خارج المجلس إلى خلعة أخرى من خلاله اشتهر بها منذ كان في الغابة، تلك هي تلاوة الحكايات، فهو ما يفتأ يقص عليهم من قصصه ما يطربهم ويعجبهم

وكان إبراهيم يزور نيو سالم كلما سمح له وقته بزيارة. وهو اليوم يحب أن كما يكون الحب. أكبرت صفاته وأعجبت برجولته وصارت لا تعدل به غيره؛ ثم أحبته وليس بعد الحب رابطة، وألفى إبراهيم نفسه - وهو من عرفت قوة عاطفة وصحة وجدان - في ربيع العمر حقاً، لا يرى حوله إلا جمال الربيع ونشوة الربيع، ولا يحس إلا سر الربيع ووحى الربيع، يروح ويغدو مع صاحبه وكأنهما من فرط مرحهما طائران من طيور الخمائل. . . ولكن وا أسفاه! لن يطول هذا الربيع، بل إنه لينقلب إلى جحيم في سرعة خاطفة! . . . نزلت الحمى كما نزلت من قبل في كنتوكي فكان من ضحاياها طائرته الجميل! وغدا إبراهيم يرمض الحزن قلبه ويأكل الجوى أحشاءه. . . وتلك هي الصدمة الثانية بعد فجيعة في أمه تحل به، فكأنها الضربة تأتيه في مقتل! لقد وهنت عزيمته وخارت قوته وذوى عوده، وصار الناس يرونه أحياناً هائماً على وجهه وهو يهذي كأن به جنة، حتى نصح له طبيب أن يرحل، فنزل ضعيفاً عند أسرة صديقة كانت تقيم في مكان بعيد عن نيو سالم، ولكن همه ذهب معه إلى هناك حتى لقد شاطرته الحزن ذات ليلة نفر من جلسائه حين سمعوه يصرخ من أعماق قلبه: (لا أطيع أن أذكر أنها ترقد هناك وحدها حيث ينزل المطر

وتصخب العاصفة فوق قبرها) ولكم قطع من الأميال مرات بعد ذلك على قدميه فحج إلى ذلك القبر وبلله بدمعه!

ولكن اليأس يسلمه ثانية إلى الحياة حيث لا حيلة في البلوى ولا معدى عن الحياة. . . . ويحين موعد الانتخابات مرة ثالثة فيتقدم فيفوز وقد ازداد الناس محبة له كما ازدادوا له إكباراً بقدر ما اكتسب من خبرة فوق ما سلف من خبرته، وأظهرته الانتخابات هذه المرة للعامة خطيباً كأحسن ما يكون الخطيب، قام يحمل عليه أحد خصومه من الحزب الديمقراطي، وكان قد حصل بتغييره مبداه على مرتب سنوي غير قليل؛ وقد علم الناس أنه كان يقيم في منزل أنيق في سبرنجفيلد في قمته تلك الحديدية التي يضعونها هناك لتمنع الصواعق. ولقد أسرف ذلك الخصم في الطعن على إبراهيم وأعلن أنه يريد أن يحط من قدره في نفوس الناس. فوقف ابن الإحراج ورد عليه بقوله: (رأى هذا السيد أن يشير إلى حادثة سني، ولقد نسى أنني أكبر في العمر مني في ألاعب الساسة وتجارتهم. إني أود أن أعيش كما أود أن أرقى وأن تلحظ مكائتي، ولكني أفضل الموت على أن أحيا فأرى اليوم الذي أفعل فيه ما فعل ذلكم السيد، فأغير مبدئي من أجل ثلاثة آلاف دولار في العام، وأراني بعد ذلك مضطراً أن أقيم على رأس بيتي مانعة للصواعق لأحمي ضميراً أثماً من غضب رب أسأت إليه)

وإنك لتتبين مهارته السياسية فوق ما تلمح من صفاته في هذا الخطاب الذي أرسله إلى أحد رجال الحزب الديمقراطي.

كتب لنكولن (أنبتت أنك أذعت في الناس أثناء غيابي في الأسبوع الماضي أن لديك حقيقة أو حقائق لو اطلع عليها الناس لقضت نهائياً على أمني وأمل ن. ادوارد في حركة الانتخاب القائمة، ولكنك تأبى عليك مجاملتك إيانا أن تعلنها. وأنا أقول لك إنه ما من شخص يطلب الجميل أكثر مما أطلب؛ كذلك قل في الناس من يقبل الجميل كما أقبل؛ ولكن الجميل إلي في هذه الحال معناه الجور في حق الناس؛ ولذلك فإني أستميحك أن تنصرف عنه. إن حيازتي ثقة أهل

سنجمون ذات مرة أمر واضح؛ فإذا كنت قد أتيت أمراً من شأنه إذا عرف أن يحرمني تلك الثقة، سواء كان إتيان ذلك الأمر عن إصرار أو عن خطأ فإن الذي يعرف هذا الأمر ثم يخفيه إنما يخون صالح بلاده. وأنا لا يقوم في ذهني شيء عما عساه أن تكون الحقيقة أو الحقائق التي تتحدث عنها واقعية كانت أو مزعومة؛ بيد أن ما أعدهه فيك من الصدق لا يسمح لي برهة أن أشك في أنك على الأقل تعتقد ما تقول. إنني أراني مديناً لك بهذا الاعتبار الشخصي الذي أظهرته نحوي، ولكني أمل أن ترى إذا تأملت من جديد أن صالح الناس أهم من ذلك. وعلى هذا فلا نتخرج أن تعلن الحق. وأؤكد لك أن ذكرك ما لديك من الحقائق في صدق وأمانة لن يفصم ما بيني وبينك من عرى الصداقة. هذا وإنني أرجو أن يأتييني رد منك على هذا ولك الحرية أن تنتشر الكتابين إذا أردت).

اقرأ هذا الخطاب تر كيف ملك إبراهيم قلوب الناس بأمانته وإخلاصه ودمائه. ثم انظر إلى قوة حجته وروعة منطقته ودهائه؛ وتأمل في أدبه وتحشمه وهو يرد الإهانة عن نفسه. تلك لعمرى خلال أحرار الشمايل وعظماء الرجال.

فاز لنكون في الانتخاب وحق له أن يفوز. ولقد خطب الناس مرة فكان مما قاله: (سأسعى أن يفوز جميع البيض من يدفع منهم ضرائب ومن يحمل السلاح بحق الانتخاب) (لا أستثني من ذلك النساء بأي حال) فإذا انتخبت فسأعتبر أهل سنجمون جميعاً هم مرسلِّي سواء من اختارني منهم ومن لم يفعل، وحينما أعمل في المجلس كنائب عنهم سوف أصدر في عملي عن إرادتهم في كافة الأمور التي أستطيع أن أعرف إرادتهم فيها؛ وفي غير ذلك سأسير وفق ما يمليه علي تقديرى مراعيّاً مصالحهم أبداً)

ذلك هو دستور لنكون وتلك هي أخلاقه في مجال السياسة ذلك المجال الذي سينضج فيه شخصه وتكتمل رجولته وتبرز مواهبه وتسفر مظاهر عبقريته. كان له في المجلس أصدقاء منهم ثمانية كانوا مثله في طول القامة، ولقد كانوا يجلسون رفقة يتحدثون، فعرفوا باسم التسعة الطوال، ولكن إبراهيم كان أطولهم

باعاً في المعرفة وأعلاهم مقاماً في الخلق، فلقد ظهرت صفات ابن الغابة لهم في وضوح، فهم معجبون بدمائته وأمانته وبعد نظره، وهم مفتونون ببلاغته وأسلوبه في الحوار والمجادلة، وهم يغبطونه على سعة صدره وشجاعته وصراحته، يحمّدون له رقة عاطفته وشفقته وسلامة طويته، وهم فوق ذلك يلذّهم حديثه وتطربهم أقاصيصه ويأسر قلوبهم تواضعه وأدبه وسذاجته

وإنه اليوم ليقرأ منظمة فقد مر العهد الذي كان يتناول فيه أي كتاب يصادفه. هو اليوم يقلّب صفحات التاريخ فليس ألزم منها لرجل السياسة؛ وهو يستزيد من القانون نصوصه وفقهه؛ وهو يدرس أحوال أمريكا من شتى نواحيها؛ يطيل النظر في تاريخ ساستها ويتأمل في مناهجهم في الإصلاح وأساليبهم في توطيد سياستهم؛ يستوعب ذلك كله ليسير على ضوئه فيما هو مقبل عليه. ومما استرعى اهتمامه يومئذ مسألة العبيد وتاريخها وتطورها ومكانها من السياسة العامة

يتخذ اليوم إبراهيم لنكولن مكانه للمرة الثانية في مجلس مقاطعة النيوس وهو في السابعة والعشرين، ولا يدري هو ولا من يحيطون به من ممثلي الجهات في ذلك المجلس ماذا يخبئه الغد لذلك الرجل الطويل القامة، عامل البريد، مخطط الأرض، ابن الأحرار، ربيب العسر والفاقة ومحن الأيام!

أبرزت السياسة مواهب ابن الأحرار وأثارت ما استكن في نفسه من معاني الإنسانية الصادقة؛ وأخذت الأيام تعدد ليؤدي للبشرية رسالة. . . والعسكري مهما تناول من عمل فهو إنما يفرغ عليه من نفسه فيلبسه من المعاني مالا يستطيعه أو يحلم به الرجل العادي؛ ولقد يكون العمل في ذاته متواضعاً فما هو إلا أن يمر به قبس من روحه حتى يصبح وقد استعظم واستعلى وخرج بذلك عن ذاتيته

أخذ الطوال التسعة يعملون عملهم مع أقرانهم في المجلس، وكانت تشغلهم يومئذ مسائل كثيرة، فالبلاد توافقه إلى الإصلاح المحلي في شتى ضروبه، ومسألة العبيد يتزايد خطرهما يوماً بعد يوم. . . ولكن إبراهيم حيال مسألة عارضة، تلك هي الدعوة إلى نقل مقر المجلس إلى مدينة أخرى يراها أحسن موقعاً وأوسع مجالاً من فنداليا؛ وهو في ذلك يعبر عن رأي الكثيرين من ناخبيه، وما زال بالمجلس حتى ظفر بعد جهد - هو ومظاهروه - بإقناعه، ومن ثم أصبح مقر مجلس المقاطعة في سبرنجفيلد. . .

دخل إبراهيم سبرنجفيلد على جواد هزيل استأجره، يحمل كل ما يملك من متاع الدنيا في عدل صغير، وفي جيبه مبلغ لا يقل عن سبعة دولارات! وكاهله مازال مثقلاً بما سماه الدين الأهلي. . . دخل المدينة الجديدة لا يدري أين يتخذ مأواه، أو على الأقل أين يلقي رحاله لساعته. وسيظل في هذه المدينة حتى يخرج منها إلى واشنجتون العظيمة ليأخذ مقعده في البيت الأبيض!

وكانت المدينة يومئذ آخذة في الاتساع والنمو يسكنها ألف وثمانمائة نسمة، بيد أنها كانت لا تزال تعلق بها مسحة من الغابة إذ كان منبتها كغيرها أول الأمر وسط الأحرار؛ فهي كصاحبنا أيب تخلع عنها ما تخلف فيها من حياة الغابة شيئاً فشيئاً

قصد إبراهيم إلى حانوت يملكه رجل من كنتوكي كانت له به من قبل معرفة طفيفة، وأقبل على ذلك الرجل ومتاعه على ذراعه يسأله عما يلزم من المال

لشراء سرير وفرش، فلما أخبره الرجل بما يلزم أخذته الحيرة وقال له: (إني سأحترف الحمامة ولي في الربح أمل، فهل لك أن تعطيني طلبتي على أن تمهني إلى عيد الميلاد القادم؟) ثم أردف قائلاً: (وإذا أنا عجزت يومئذ عن أن أدفع لك حَقَّك فلست أعلم هل أستطيع أن أؤدي لك ذلك أبداً؟) وكان الرجل طيب القلب فما لبث أن ملكته الشفقة على ذلك الغريب الذي يبدو له من أمانته بقدر ما يبدو من فقره؛ لذلك آواه عنده وعرض عليه أن يقتسم وإياه سريره القائم في حجرة صغيرة هناك فوق الحانوت؛ وصعد إبراهيم إلى الحجرة فألقى عدله. ونزل وعلى وجهه أمارات الرضا. . .

كان إبراهيم مزمماً أن يتخذ من الحمامة مرتزقاً، وهو قد ترك العمل في البريد وفي تخطيط الأرض منذ أن هم بالرحيل إلى سبرنجفيلد، فأقبل على كتب القانون يستزيد منها علماً؛ وكان يعيره بعض الكتب محام في المدينة يدعى ستيوارت. ورأى ستيوارت من ذكاء صاحبه وطيب سريرته وحسن طويته ما دعاه إلى أن يشركه في العمل معه؛ وقبل إبراهيم ذلك مغتبطاً مسروراً يحس كأن الأيام توشك أن تبتسم له بعد تجهم وعبوس، فله اليوم في السياسة مجال وله في الحمامة مجال

بيد أن هناك من الأمور ما لا يزال يكدر خاطره ويكرب نفسه. . . ذلك ما كان من غرامه الثاني إن جاز لنا أن نسمي علاقته الجديدة بعد موت أن غراما الحق أن هذا الجانب من حياة لنكولن، جانب علاقته بالفتيات، أمر يدعو إلى العجب حتى ليحمله المرء على ما كابد من شذوذه أكثر مما يحمله على ما كان من حصافته ولقائته. عرف لنكولن فيمن عرف من أهل نيوسالم امرأة كانت تضيفه أحياناً فتحسن ضيافته، وظل يغشى منزلها زمناً حتى أصبح كأنه من أهلها. وحدثته تلك المرأة فيما حدثته عن أخت لها غائبة ألقت عليها من الصفات ما تبتكره أخت لأختها حين تبحث لها من الشباب عن يطلب يدها. ورد إبراهيم مرة فقال وهو لا يدري أمازح هو فيما يقول أم جاد: إنه يرحب

بالزواج من تلك الأخت، وكان قد رآها قبل ذلك بثلاثة أعوام، فلما عادت كانت تجلس إليه ويجلس إليها. . .

وصور له خياله الخصب أن كلمة ميثاق لن يسمح له ضميره أن يتحلل منها. بيد أنه في حيرة دونها كل ما سبق من حيرة! لا يحس في قلبه ما يحسه المرء حين يمر به طائف من الحب؛ وهو مع ذلك لا يستطيع أن يقطع أنه لا يحبها!

لعل ما هو فيه اليوم من أمور السياسة ومن شؤون المحاماة يصرفه حيناً عن وساوسه وهواجسه؛ لقد أخذ ستيوارت القضايا الكبيرة وترك لإبراهام ما خف من القضايا؛ ولكن الحوادث ساقته إليه قضية معقدة اكتسبها ونمى إلى الناس خبرها فما لبث أن أصبح في مهنته الجديدة ملحوظ المكانة

وكان دستوره في المحاماة منبعثاً من أعماق نفسه، لذلك كان قائماً على توخي الحق والدفاع عنه ونصرة المظلومين والضعفاء؛ كان لا يقبل قضية لا يفتتح بصدقها، ولا يقرب قضية يعلم أن الدفاع فيها يمس الخلق من قريب أو بعيد، وكان أسلوبه في المحاماة كذلك صورة لنفسه، لا يعرف اللجاج ولا المطاولة ولا يلتوي في أمر أو يخفي في نفسه شيئاً لغاية في نفسه إلا إذا كان ذلك لستر عرض أو لحفظ كرامة، على ألا يكون للمجاملة حساب في نفسه إذا انبنى عليها إساءة إلى الفضيلة أو انتقاص للعدالة

وخفت وطأة الأيام عليه حيناً، فمكانه في المحاماة - وهو يومئذ لم يعد الثامنة والعشرين - كما علمت؛ ومكانه في السياسة قد جعله رأس حزبه في المجلس، وهو كما مر بك حزب الهوجز؛ وهو إلى ذلك حبيب إلى أهل سبرنجفيلد لما كان له من يد في نقل المجلس إليها، ولما أنسوا من طلاوة حديثه وروعة قصصه وعذوبة نفسه. ولقد توثقت المودة بينه وبين الكثيرين وعلى الأخص بينه وبين سييد صاحب الحانوت.

وكان من أحب الساعات إليه تلك التي يجتمع فيها وجماعة من حزبه في حانوت سبيد فيتحدثون ويقلبون الآراء في السياسة وقضاياها. ومن تلك الجماعة من سيكون لهم في الغد شأن في سياسة بلادهم، على أنه مهما يبلغ من شأنهم فسيظل دون ما سيكون لإبراهيم من شأن. وممن كانوا يختلفون إلى ذلك المنتدى رجل من الحزب الديمقراطي صغير الجرم يدعى دوجلاس، عرف لنكون أيام كان المجلس في فنداليا، وقد اشتهر بلباقة وحدة ذكائه وعرف إلى جانب ذلك بالأثرة والغيرة والطمع في عليا المراتب. وكأنه كان يغار من لنكون؛ أو لعله كان يدرك منذ ذلك التاريخ أنه إن بذ الرجال جميعاً فإنه لن يلحق بهذا الرجل. وسيكون بينهما من التنافس ما يفتح صفحات ممتعة في حياة لنكون

ولم يكن نشاط لنكون قاصراً على المجلس والمحكمة وحدهما بل لقد كان نشاطه خارجهما باعثاً على الإعجاب جديراً بالثناء، فهو داعية إلى الثقافة، حاث على الإصلاح بما ينشر ويذيع؛ وذلك لعمرى جد عجيب من رجل كان قبل ذلك ببضع سنين يقطع الأخشاب في الغابة يشتري بالمئات منها سروالاً!

وحسبك منه ما ترى في تلك الخطبة التي ألقاها في ناد من أندية المدينة، وإليك بعض ما قاله: (إذا كان ثمة خطر يتهدد الولايات فمصدر ذلك الخطر من داخلها. يجب أن نعيش أبداً أمة حرة أو نقتل أنفسنا؛ إنما أشير إلى ما يتزايد من عدم مراعاة القانون في البلاد) ثم يذكر حادثاً خطيراً من حوادث الاغتيال ويعلق عليه بقوله: (تلك هي المناظر التي تتزايد يوماً بعد يوم في هذه الأرض التي اشتهرت أخيراً بحب القانون والنظام. . . وماذا عسى أن نصنع لنقف في وجه هذا؟. الجواب يسير: ليقسم كل أمريكي، كل عاشق للحرية، كل ذي نية طيبة نحو الفلاح، ليقسم كل بما جرى من دماء في الثورة ألا يتعدى قوانين البلاد في أي جزئية منها، وألا يسمح للغير بتعديها، وكما فعل رجال عام ١٧٧٦ في تعضيدهم حركة إعلان الاستقلال، كذلك ليفعل اليوم كل أمريكي

في حرصه على الدستور والقانون؛ وليقدم كل في سبيل ذلك حياته وشرفه المقدس وما ملكت يده. إن في النابهين الطبيين من الناس ممن تتوفر فيهم الكفاية لأن يحسنوا أي عمل يوكل إليهم - كثيرين لا تمتد أطماعهم إلى ما هو أبعد من مقعد في المؤتمر أو من مركز في الحكومة أو من وصول إلى كرسي الرئاسة؛ ولكن هؤلاء لا ينتمون إلى أسرة الضراغم ولا إلى جماعة النسور. واهأ! أظنون أن مثل هذا يملأ عين اسكندر آخر أو قيصر ثان أو نابليون جديد! كلا. إن العبقرية الشامخة لتحتقر الطريق التي وطئتها الأقدام من قبل. . لقد كانت العواطف قبل عوناً لنا ولكننا لن نركن إليه اليوم ولنسوف تكون في المستقبل عدواً لنا، ألا لتكن الحكمة الباردة الحاسبة التي لا تعرف العواطف هي التي تمدنا بما يلزمنا في مستقبلنا من أسباب القوة والدفاع) يا ابن الغابة يا ربيب الفقر والبأساء! أنى لك هذا كله! ألا إنها العبقرية تستعلن في الخطابة وتحمي على الحماسة وإن خفيت في الحديث الهادئ أو في القصة الواحدة!

وماذا يريد لنكونلن بإشارته إلى العبقرية الشامخة وما تتطلع إليه؟ هل كان يرسم لنفسه ما يجب أن يفعله في غد؟ كلا. ما كان يدرك يومئذ أو يحس أن له في غد من عمله ما هو حري أن يملأ عين اسكندر آخر أو قيصر ثان أو نابليون جديد

ومما عرف عنه في السياسة موقفه فيما كان في تلك الأيام من أمر العبيد. فلقد انبعثت صيحات قوية من أولئك المتطرفين من أهل الشمال الذين أهابوا بالمؤتمر أن يعلن تحرير السود في جميع الولايات؛ وهو يومئذ مطلب جريء بل لقد كان يعد في تلك الأيام حلماً من الأحلام. وقف ابراهام من تلك الدعوة موقفاً ينطوي على الكياسة وبعد النظر، ويكشف عن ناحية أخرى من نفس هذا السياسي الناهض، تلك هي ناحية التعقل والنظر إلى حقائق الأمور دون مغالطة فيها أو تغاب عنها

كان إبراهيم يمقت نظام العبيد من أعماق نفسه وهاهو ذا يجد نفسه اليوم بين أمرين: تطرف الداعين إلى القضاء على هذا النظام طفرة، وما اتخذته مجلس مقاطعته من قرارات رجعية لم يستطع هو وأنصاره تلافيتها. أما عن قرارات المجلس فإنها كانت على الأرجح تعبير عن ميل أعضائه وخاصة الديمقراطيين إلى محاربة الدعوة القائمة لتحرير العبيد؛ وكان أن أعلن إبراهيم هو وزميل له احتجاجاً على قرار المجلس يتضمن أنهما وإن كانا يريان مسألة العبيد قائمة على الجور وخطل السياسة إلا أنهما يعتقدان أن ما يدعو إليه المتطرفون إنما يساعد على ازدياد الخلاف بين الولايات؛ كذلك هما يعتقدان أن موقف المجلس في قراراته لا يطابق الدستور. ولقد ذاع في الناس هذا الاحتجاج فأضافوه إلى ما عرفوه عن لنكولن من حميد الخلال؛ وهاهو ذا ينتخب للمرة الثالثة وهو في التاسعة والعشرين؛ يطول باعه في المحاماة كلما تصرمت الأيام، وترسخ قدمه في السياسة، ويعلو كعبه في الخطابة. وكان أكبر معارضيهِ ومناوئيه إذ ذاك دوجلاس وكانت له مواقف يظهر فيها على إبراهيم في المجلس بلفقات ذهنه ولباقته، وسرعة انتقاله من فكرة إلى فكرة ومن قضية إلى قضية؛ ولكن إبراهيم كان المتفوق الظافر إذا كان الأمر أمر إخلاص أو أمانة أو بعد نظر أو دقة تحليل. وأحب الناس في المجلس وخارجه مما أحبوا من صفات لنكولن الخطيب تساق عباراته ودقة ألفاظه في التعبير عما يريد؛ وأحبوا منه فوق ذلك براعته في التهكم، تلك الخلعة التي كان لا يطيقها معارضوه، كما أنسوا إلى تلك الأمثال البارة التي لم يك يفتأ يضربها للناس في جلاء وبصيرة يستعين بها على بيان ما يريد

لم تلهه السياسة وشواغلها ولا المحاماة وقضاياها، ولا الجلسات في حانوت سبيد وما كانت تثير في نفسه من لذة. . . لم يلهه ذلك كله عن نوازع قلبه وخلجات نفسه؛ وأنى له ذلك وقد كانت ماري أوين، تلك الفتاة التي ارتبط بها، تلقاه بعد أن تزور أحياناً بعض ذوي قرباها في سبرنجفيلد فتراه ويراه، كما كان هو يذهب إلى نيوسالم فيغشى بيت أختها. إن أمره عجب في ذلك! لا

يستطيع أن ينصرف عنها ولا يستطيع أن يؤمن أنه يحبها! تلك حال من حالات الشباب؛ أو هي حال من حالات لنكولن العجيب

كانت علاقتهما علاقة فتور يتجلى لهما في عدة مواقف، ولكنهما كانا في موقف تحسب الفتاة أنه لم يبق إلا أن يتقدم صاحبها بالاقتراح، ويحسب الفتى أنه لم يبق إلا أن تتأى بجانبها عنه فترجحه. لقد كان منقبض النفس لهذه الحيرة يجعل للمسألة من الأهمية أكثر مما لها. نلمس ذلك في مثل قوله: (لم أجدني مرة مدة حياتي في قيد حقيقياً كان أو خيالياً أرغب في التحرر منه مثلما أرغب في التحرر من هذا القيد)

وجمع أمره فكتب إليها خطاباً رقيقاً محكماً يشير فيه إلى دخيلة نفسه ويتلمس معرفة طويتها دون أن ينالها بكلمة قاسية. تكلم عن فقره وما عسى أن تجد عنده من تكون زوجة له، ثم قال (ربما كان ما قلته لي من قبيل المزاح وإلا فأظنني لم أفطن إلى مرماه. إن كان كذلك فدع به إلى النسيان، وإن لم يكن كذلك فإني أحب أن تفكيري تفكيراً جدياً قبل أن تقطعي في الأمر؛ وسأكون عند ما قلت إذا كان ذلك ما تشائين. وإني أرى ألا تشائي ذلك فإنك لم تتعودي البأساء وربما كان الأمر أقسى مما تخالين) وكتب لها بعد ذلك لها بعد ذلك خطاباً أكثر صراحة جاء فيه: (إذا كنت تشعرين أنك مقيدة نحوي بأي رباط فإني أميل الآن إلى أن أطلقك منه إذا كانت هذه بغيتك؛ بينما أراني من جهة أخرى أميل إلى أن أمسكك عليّ إذا اقتنعت أن ذلك يزيد من سعادتك بقدر خليك بالاعتبار. تلك في الحقيقة هي المشكلة بالنسبة إلي)

تلك هي تعللات المتردد الحائر تصور لنا حالا من الحالات المستعصية على الفهم، بيد أن المسألة قد آلت آخر الأمر إلى الرفض وانصرفت عنه ماري أوين. وظل بعد انصرافه عنها حائراً لا يدري أيحمل ذلك على الفوز أم يحمله على الخيبة؛ على أنه يعلن في عزم مصمم أنه لن يفكر بعد في الزواج

ومن العظماء من تنطوي نفوسهم على نواحي ضعف تكافئ نواحي القوة فيها؛ ومن هؤلاء لنكولن، من نواحي ضعفه هذه الحيرة الخوارة إذا كان الأمر أمر نساء؛ فهل كان يرى في سكنه إلى زوجة قيداً يحرمه من حريته، أم هل كانت تعوزه الكفاية لهذا الغرض؟ من العسير أن نرد هذا إلى سبب واضح محدود. .

وما باله يتورط بعد ذلك في صلة جديدة؟! ينصرف عن ماري أوين ليتصل بماري تود؟ كانت هذه الفتاة تنتمي إلى درجة دونها درجته، وكانت مهذبة مثقفة، شديدة الذكاء، تدير الحديث إذا جمعها بالنابهيين من أهل المدينة مجلس، فتسخرهم بتوقد الذهن وقوة المبادهة ولطف الإشارة وأناقة العبارة. وكانت ماري إلى ذلك ذات طمع وطموح، فكانت نظرتها إلى الشباب من طبيعة نظرتها إلى الحياة؛ المقدم فيهم عندها من تعرف أنه إذا نالت يده يخطوبها إلى ما تمد عينيها وخيالها من جاه ونفوذ. وكانت فتاة قلقة كأنها من فرط توثبها الطائر المدل لا يحط على غصن إلا ليثب منه إلى غصن. . .

وكان لنكولن ممن يختلفون إلى دارها الجميلة التي تدور بها حديقة صغيرة فينانة، كما كان دوجلاس ممن يختلفون إلى تلك الدار؛ كأنما صحت عزيمة هذا الرجل أن يأخذ على منافسه كل طريق! وأخذت الرجلين عينا ماري السريعتان النافذتان ولكنهما استقرتا على إبراهيم. وكان دوجلاس خليفاً أن ينال عندها الخطوة بما كان يبدو من ذكائه ودهائه ولباقتة وكياسته، وبما كان يشع من ظرفه وحسن سمعته وأناقة هندامه، ولقد كان يبتغي إليها الوسيلة، لا تفلت منه في ذلك فرصة ولا تفوته حيلة. ولكنها اتجهت إلى ابن الغابة في هندامه المتهدل القصير على جسمه المرهف الطويل ولم ينب في عينيها وجهه المسنون الذي يحمل من البلاهة بين يديها قدر ما يحمل من هموم الأيام، ولم ينب عن ذوقها شعره الأشعث الذي يصور للعين ألفاف الغابة!

ومضت الأيام وإبراهيم يتزايد من حبها بقدر ما يفقد دوجلاس؛ ولكنه يسر إلى صديقه سيبيد أنه لا يشعر نحوها من الحب بما عساه أن يفضي إلى الزواج، ويهم أن يكتب إليها ذلك، فيشير عليه صاحبه أن يشافهها بالأمر، فيفعل، ولكنه يعود إلى صاحبه ليخبره أن لا مناص ولا حيلة، فهو اليوم رهين أسير، ذلك أنه ما كاد ينبئ ماري بما يعتقد حتى هبت من مقعدها صارخة تقول: أصبح المخادع هو المخدوع! قال لنكولن: (ووجدت الدموع تنحدر على خدي أنا فأخذتها بين ذراعي وقبلتها)

وظلت ماري بعد ذلك مدة عامين تحرص على إبراهيم وتتحايل على كسب قلبه؛ فلقد كانت ترى منه ما يبشر بأملها المرجو، قالت عنه بعد ذلك بسنين: (لم يكن مستر لنكولن من الواجهة كما كان مستر دوجلاس، ولكن الناس لم يكونوا يلحظون أن قلبه كان من الكبر بقدر ما كان ذراعه من الطول). ولكن إبراهيم كانت تأخذه من الهم غاشية كلما مال الحديث إلى الزواج، وعاد إليه ترده وتلده، وعادته الرغبة في التخلص من ماري تود كما تخلص قبل من ماري أوين. وكان يومئذ في حال إن لم نحملها على الخبل نحار على أي شيء غيره نحملها. وحسبك أنه ابتعد عنها بغتة في اليوم السابق ليوم الزفاف، وهو يأمل أن يسترد احترامه لنفسه ومقدرته على الحكم، ولكنه أحس أن فعلته هذه ضد الشرف فحاق به اليأس. كتب إلى صديقه سيبيد: (إما أن أموت وإما أن تتحسن حالي، ولكن بقائي فيما أنا فيه من المستحيل) وبعد ذلك بأيام كان عند الطبيب

وما حيلة الطب في توازٍ توبق الروح، وهو اجس تعمي القلب؛ وإن بدت آثار هذه وتلك في نواحي البدن عجز الطبيب، ولا عجب أن يعجز، وجاء الصديق ليفعل ما لم يستطيع الطبيب أن يفعل، وهو خبير بالعلة عليم بموضعها من نفس صاحبه

باع سبيد حانوته وعول على الرحيل إلى كنتوكي فعرض على صاحبه لنكولن أن يذهب معه إلى هناك عله يشفى مما به في تلك الاحراج التي درج منها أول ما درج. دعاه سبيد ان ينزع نفسه وجسمه من ذلك البلد الذي يكربه العيش فيه بعد أن كان منتجع آماله ومهوى خواطره، ورحل ابراهام مع صديقه وقد اخترم الهم جسده فزاده نحولاً على نحول، وزين له الشيطان أن يطلب النجاة من الحياة. . . !

ولبث في كنتوكي أياماً، لقي فيها من كرم صاحبه وكرم أمه وأخته ما هون عليه أمره شيئاً قليلاً، وصاحبه لا يفتأ يسري عنه وينصح له، وهو يشكو إليه اضطراب أعصابه ويظهره على هواجس نفسه، ويذكر له والألم يبرح به فعلته التي فعل وكان فيها غير كريم، بل وكان من الضالين. . . بيد أنه لم يلبث وقد كان يلتمس العون من صديقه أن رأى ذلك الصديق في حاجة إلى من يعينه، فقد طاف به على حين غفلة طائف من الحب ملك عليه قلبه وعقله!

وأنقلب الأمر فغدا لنكولن هو الناصح، فراح يجهد أن يهدي صاحبه حينما وسوست إليه نفسه معاني كتلك التي كانت تجول في خاطره هو: معاني الحيرة والتردد والشك. فلقد اصبح سبيد يحار في أمر حبه كما اصبح ينتابه الخور كلما اتجه فكره إلى الزواج شأنه في ذلك شأن ناصحه. وكان فيما يسديه ابراهام من نصح لصاحبه مسلاة له أو شاغل يشغله عن وجده؛ على انه وهو في كنتوكي كتب رسالة في الانتحار ترينا أن الغمة أو اليأس كان قد أوشك أن يذهب عنه. خذ لذلك مثلاً قوله: (إني لم اصنع في الحياة شيئاً يذكر أي إنسان

أني عشت. ومع هذا فأن ما أعيش من اجله هو أن اربط اسمي بحوادث يومي وجيلي، وأن أقرن ذلك الاسم بصنيع فيه لمن حولي من الناس جدوى)

ولما عاد إلى سبرنجفيلد ظلت كتبه مدة أكثر من عام تترى على صاحبه، وفيها من حسن النصيحة وقوة الإقناع ورقة العاطفة ما يكشف لنا عن حقيقة نفسه ويصور نزعات وجدانه. كان يعزو ما بات صاحبه يشكو منه إلى اعتلال أعصابه وإلى ما تحدثه الوحشة والبعد عن الخلان وأحاديثهم في مجالس لهوهم من انقباض وضيق، وإلى ما تركته الوراثة في طبعه من شدة التأثير وقوة الانفعال؛ وكان يكتب ذلك في جلاء وقوة حجة هما من أبرز صفاته. وكان عجباً أن نرى مثل ذلك من لنكولن، فترى فيه العالم النفساني، والشاعر الرقيق العاطفة، وهو الذي علم نفسه بنفسه. . !

وتزوج سبيد بعد ذلك وبقي لنكولن حيث هو، موقفه من ماري عين موقفه عقب ذلك الفرار الشائن؛ فعاد إليه بذلك ما شغلته قصة صاحبه زمناً من هموم نفسه! وأصبح فإذا ضائق بوساوسه. وزاده تبرماً بحاله وإنكاراً لشأنه ما كان يسمعه من صاحبه عن سعادته الجديدة بين يدي زوجه. . . لذلك لم يكن عجباً أن يلتبس السكينة من جديد عند فتاه ناهد كان قد عرفها قبل أن يعرف ماري. بيد أنه كان يتجه بينه وبين نفسه إلى ماري، فهو لا يستطيع أن يبتعد بخياله عنها. قال في كتاب من كتبه: (يخيل إلي أنه ينبغي أن أكون جد سعيد لولا تلك الفكرة الملزمة لي، ألا وهي أن هناك شخصاً غير سعيد عملت أنا على أن يكون كذلك. أن تلك الفكرة ما تزال تريق روحي؛ ولا معدي لي عن أن ألوم نفسي حتى على مجرد الأمل في السعادة في حين أنها على ما هي عليه)

وكان لنكولن يحدث نفسه أنها لا تزال على الرغم مما حدث بحيث يتأني لهما أن يتصلا أنهما أرادا ذلك. وكانت هي من جانبها تحس أن ما كان منه من هجران وقطيعة قبيل ما استعدا له من زفاف قبل ذلك بعام ونصف عام لم يصل على شناعته إلى مثل الصدمة القاضية. . .

ودبر رجل من صاحبتيهما وزوجه أن يدعواهما إلى مأدبة على جهل كل منهما بدعوة الآخر. وتم ذلك فالتقيا وتضاحكوا جميعاً بعد أن ذهبت عن ابراهام وصاحبتيه ربكة المفاجأة. وكان ذلك اللقاء والخطوة الأولى نحو التئام الصدع واجتماع الشمل؛ إذ أصبح لنكولن يرى حقاً عليه أن يصلح ما افسد وأن يضع حداً لما هو فيه من ضيق وشقاء

وحدث بعد ذلك أمر غريب في ذاته، على قدر غير قليل من الأهمية من حيث نتيجته: ذلك أن إبراهيم، وهو الرجل الذي ملك القلوب بدمائته ورقة حاشيته، قد دخل غير متردد ولا هيب في مبارزة تدور على السيف! وكان لتلك المبارزة سبب يدهش له الإنسان أن كان مبعثه شخص مثل لنكولن! فلقد نشر ابراهام في إحدى الصحف كتاباً على لسان أرملة وجهته إلى أحد رجال السياسة تسفه فيه آراءه التي أذاعها، وكان التهكم لاذعاً والنقد قاطعاً، فأنار الكتاب فضول الناس كما أثار ضحكهم وإعجابهم؛ ووردت على الصحيفة ردود قوامها المجانة والمعابثة وكلها غفلاء من أسماء أصحابها. . . وكان لماري في هذه الردود نصيب. وثارت ثائرة ذلك السياسي وراح في المدينة يتهدد ويتوعد! وجاء صاحب الصحيفة فعنفه وتهدهد بالانتقام إلا أن يعرف صاحب هذه المجانة. وعرض صاحب الصحيفة الأمر على لنكولن فقال له في غير وناء ولا استخذاء: إنه يأخذ الأمر على عاتقه، وإنه لذلك في حل من أن يذيع اسمه. وتم ذلك فكانت المبارزة. . . فلقد تحداه ذلك الساسي أن ينازله، وشاع أمر ذلك في الناس فاحتشدوا ليشهدوا ما يكون بينهما. . .

وكان لإبراهام من طوله وفتوته وقوة ساعديه ما يضمن له الفوز على منازل القصير؛ فتناول سيفاً طويلاً ولم يزد - والناس يتطلعون - على أن ضرب به غصناً فوق رأسه فألقى به بعيداً. ثم جلس وفي عينيه أنه يريد أن يلقي إليهم حديثاً وراح يحكي ويستجمع الأمثال. . .! وتداخل الناس وسووا ما كان بين المتخاصمين، وأنقلب الجد الصارم إلى فكاهة عابثة

بيد أن للحادث نصيبه من الأهمية؛ فلقد ترك في حياة لنكون صفحة ظل
يندى لها جبينه أبداً، كما حق لماري أن تتحدث

إلى الناس أن إبراهيم ما فعل هذا إلا دفعاً عنها وحفاظاً أن ينالها شيء من
غضب ذلك السياسي. وطاب إبراهيم بذلك نفساً. وقربت الأيام بينهما حتى باتا
من جديد يأخذان الأهبة للزواج. وما هي إلا أيام حتى ربطهما ذلك الرباط
المقدس وهو يومئذ في الثالثة والثلاثين واستنشى إبراهيم نسيم الراحة أن أخذت
تترايل هواجسه ويتضاءل هوانه على نفسه، وأخذت تعود إليه ثقته بتلك النفس
سيرتها الأولى، وأن كان الذين شهدوا العروسين حين عُقد قرانهما رأوا لنكون
وعلى وجه سحابة من الكآبة والوجوم كانت تتقشع حيناً على ما يتكلف من
بشاشة ثم تعود فتتقعد!

وأقام لنكون أول الأمر وعروسه الطموح المستعظمة في حجرتين
صغيرتين في نزل كانا يدفعان أجراً لهما أربع دولارات كل أسبوع. وعظم
ذلك على ماري فشكت إلى زوجها ولم يمض على زواجهما غير قليل، وهو
يلقي إليها المعاذير مشيراً إلى ضيق رزقه وإلى ما لا يزال يقتضيه الوفاء من
ديونه. . . وبسط الله له رزقه بعض البسط، فانتقل الزوجان إلى بيت صغير
استطاعا أن يدفعوا في غير عسر أجر إقامتهما فيه

وأخذت ماري في بيتها الجديد تدبر شؤونها وترعى أمره، وقد اتخذت لنفسها
سلطة ربة البيت لا تتنازل عنها فيما عظم أو هان من الأمور، حتى لقد كانت
تأخذ زوجها بألوان من الشدة والعنف حينما كانت تدعوه إلى كيت وتصرفه
عن كيت، ورائدها في ذلك النظام كأدق ما يكون النظام. وكان يصل بها
الغضب أحياناً إلى هياج شديد، وذلك حين كانت ترى من بعلمها أن يأبى إلا أن
يرسل نفسه عن سجيته، فكثيراً ما لا يعبأ بما صالح الناس عليه أدواقهم من
أوضاع وتقاليد يلزمونها وهم جلوس إلى مائدة الطعام، أو وهم سامرون في
الثوى. وهل كان يستطيع ابن الاحراج أن يتكلف ما لم يجر في طبعه؟ ولكن

امراته لا تفتأ توجهه إلى العناية بهندامه وتحته على النظام وانه ذلك خليف به وله في الناس مكانته؛ وهي تريده على أن يحمل الأمر على الجد وهو يجاريها ليخفف من حدثها ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يغير من طبعه. وكان إذا اشتد بها الغضب يلاطفها ويضاحكها ليصرف عنها غيظها، فإن عجز عن ذلك خرج من المنزل فمشى ساعة أو بعض ساعة. . . وحق لزوجها أحياناً أن تغضب منه؛ فهو سخي اليد وأن كانت به خصاصة، وهي لا تريد أن تبسط يدها إلا بقدر ما تستطيع. وهو يلقي الناس في البيت في هيئة تنم على عدم المبالاة، فثيابه مهتلة وشعره أشعث، وعباراته ساذجة، وهو يستلقي على ظهره أحياناً ويتمدد على الأرض وفي يده كتاب لا يصرف وجه عنه؛ ويتدخل أحياناً فيما ليس من أمره فيحلب البقر في الحديقة، ويحمل اللبن في وعائه بين يديه ويهرول به إلى الدار على أعين السابلة والجيران!

ولكن زوجه على الرغم من ذلك تحبه وتكبره، وتنتظر ما يخبئه له الغد من جاه وسلطان كأنها تعلم الغيب أو كأنها ترى ما لا يراه الناس. وكتب لنكولن إلى صديقه سبيد ينبئه أنه رضي النفس قرير العين، ويعتذر له من عدم زيارته إياه بفقره وشواغله، ثم يبشره أن قد صار لهما غلام. . .

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما هو متصل بحياته الشخصية؛ بيد أن زواجه من تلك المرأة كان حادثاً عظيم الأهمية في حياته؛ فلقد مر بك من صفاتها أنها امرأة ذات طمع وطموح. وأنها كانت ترى بما يشبه اللقانة الطريق المؤدية إلى عليا المراتب، وما كانت تقنع بما هو دون مرتبة الرياسة! لذلك كانت خير معين حين تقدمت خطواته في ميدان السياسة. وكثيراً ما كانت تردده إلى الطريق السوي إن هو أوشك أن يتنكبها. ويتجلى ذلك في عدة مواقف سيأتي حديثها بعد حين. . . نرجع بالحديث بعد ذلك إلى حياته العامة في السياسة والمحاماة. أما في السياسة فقد ظل ينتخب نائباً عن سنجمون، كلما تجدد الانتخاب، حتى لقد ظفر بثقة الناس أربع مرات متوالية. وأما في المحاماة فقد

تركه شريكه ستيوارت إلى واشنطن حيث اتخذ مقعده في المجلس العام للولايات؛ فعمل مع شريك آخر قبل زواجه من ماري بثلاث سنوات؛ وكان هذا الشريك يدعى لوجان، وكان لوجان من أكبر المحامين شهرة في المدينة، وكان له من صفات النظام والدقة والإلمام بأوضاع المهنة ومطالبها ما كان يعوز صاحبه لنكولن. وكانت له في العمل الرياسة. ورضى لنكولن بمكانه منه ولم يجد في ذلك غضاظة إذ لم يكن منه بد؛ وأخذ يتعلم عنه ويكتسب بمصاحبته المرونة والخبرة؛ وهو قانع بنصيبه من الأجر، وأن كان يرى من زميله أنه لا يعدل في ذلك وأن كان لا يميل كل الميل. ولم يكن ثمة ما يحول دون استمرارهما معاً لولا أن فرقت بينهما ريح السياسة إذ كان كل منهما ينتمي إلى حزب يخالف الحزب الآخر. . .

ولما قضى الأمر بينه وبين لوجان، دخل له زميلاً آخر. وكان هذا الزميل شاباً دونه في العمر بعشرة أعوام اسمه هرنندن. وكان هرنندن هذا من أشد الناس إعجاباً بأبراهام ومن أعظمهم محبة له وإكباراً، فتوثقت عرى الصداقة. وكانت لإبراهام الرياسة هذه المرة، وعظمت ثقة كل من الرجلين بصاحبه. وكان أصغرهما موفور الحظ من النشاط والذكاء، كما كان كزميله في مذهبه السياسي ومن الداعين إلى القضاء على العبيد. . .

وعرف أبراهام في المحاماة بما لم يعرف به أحد قبله في المدينة؛ فهو بسيط في كل شيء، يجعل الأمر أمر ذمة وإخلاص قبل أن يكون أمر قانون ومغالبة؛ وينظر في تنازع الناس نظرات يوحى بها قلبه قبل أن يرسمها عقله. يرد كل شيء إلى طبيعته إذ كان يقيس الأمور بما كان يدور في نفسه، ولا يتردد أن يفصل بين المتنازعين بما لو فكر فيه غيره لعدده من ضروب الخيال والوهن. . . ولكن لنكولن كان له من إنسانيته خير سند، ومن حسن طويته خيرها

جاءه ذات مرة رجل يطلب إليه أن يدافع عنه ليرد له مبلغاً من المال عند خصم له؛ فلما سمع لنكولن قضيته قال: (أني أستطيع أن أربح قضيتك وأعيد

إليك تلك الدولارات الستمئة، ولكني أن فعلت ذلك جلبت الشقاء إلى أسرة أمينة، ولن أستطيع أن أتبين سبيلي إلى ذلك. لذلك أحس في الميل إلى أن أنصرف عن قضيتك وأجرك. على أنني أثبتك نصيحة لا أسألك عليها أجراً: اذهب إلى بيتك ففكر في طريقة نزيهة تكسب بها ستمئة دولار). . . بذلك وبأمثاله اتخذ ايب الأمين سبيله إلى قلوب الناس، فما منهم إلا مكبره ومحبه. وكان الناس يجيئون له ليحكموه فيما شجر بينهم، وكلا الخصمين يعلن أنه راض بما يقول سلفاً؛ وسرعان ما كان يحسم النزاع بينهم كأنهم منه حيال قاض لا محام! وهو لا يسألهم أجراً على ذلك، وحسبه من الأجر منزلته في قلوبهم. . .

وكان يرفع الكلفة بينه وبين الناس كأنه أحدهم مهما كانت درجاتهم؛ وكذلك كان يفعل مع صاحبه هريدين، فهو لا يستحي أن يسأله ويستفهمه أن أشكل عليه أمر أو التوت عليه فكرة كأنه تابعه! فإذا ساق إليه الله رزقاً عده وقسمه نصفين ونادى صاحبه: (هذا نصفك)؛ كل ذلك دون أن يكتب شيئاً أو يطلب من صاحبه كتابة، فما كانت بهما حاجة إلى ذلك وكلاهما يبذل من الإخلاص والود بقدر ما يبذل صديقه

وكان صديقه يراه الناس في المحكمة يدس أوراقه في جيبه حتى لينبجج وينتفخ، ويروونه يدسها في قبعته كأنه يجعل منها قبعة وحقيبة. كان لا يعني في شيء بمظهر وإن حرص كل الحرص في كل شيء على الجوهر. . . وكان في عمله كما كان في منزله، يأبى إلا أن يرسل النفس على سجيته؛ وسيظل كذلك حتى تتحقق له كبرى الرياسات. . . والله ما كان اعظم تلك البساطة منه في كل شيء! وهل ثمة بين المتكلف المتصنع وبين الصعلوك من كبير فرق؟ إن أمرهما واحد فيما أرى وإن بلغ من تمويه أولهما ما يكفي لأن يحجب عن الأعين حقيقته. . .

وعادت السياسة تتطلب منه جهداً غير يسير؛ فهو اليوم يتحفظ لأن يخطو خطوة جديدة وله من امرأته حافز ومن طموحه حافز. . . تطلع لنكون إلى مقعد في ذلك المؤتمر الذي كانت تمثل فيه الولايات الأمريكية جميعاً والذي كان يعقد لينظر في الشؤون العامة لتلك الولايات ومقره وشنجنطون. وما كان ابراهام ليستبعد الشقة أو ليستعظم الفكرة، وقد قضى ثمانية أعوام في مجلس المقاطعة ولكن رجال حزبه وجهوا أنظارهم إلى رجل غيره من أفراد ذلك الحزب؛ وتقدم ذلك الرجل ليأخذ الطريق على ابراهام ولكنه لم يظفر بالترشيح، ورشح رجل غيره وانتخب؛ واضطر هو أن ينتظر عامين حتى جاء دوره فانتخب؛ وظل بذلك لنكون أربعة أعوام يتطلع إلى مقعد في المؤتمر؛ ولقد آلمه وكدره أن يأخذ الطريق عليه رجالان من حزبه يراهما دونه؛ ولكن روحه الوثابة ما كانت لتعرف الملل فيما تتجه إليه من الأمور

سنحت الفرصة بعد تلك الأعوام الأربعة ولكنها أوشكت أن تفلت منه هذه المرة أيضاً لولا ما كان من مهارة زوجه ولباقتها في التأثير على رجال الحزب حتى ظفر آخر الأمر بالترشيح. ولما تم له ذلك راح يخوض المعركة وأمله في الفوز عظيم. . .

وعجب الناس أن رأوا لنكون يومئذ يعمل على كسب التأييد بوسائل منظمة وهو الذي اعتاد من قبل أن يصدر في أعماله عما تمليه عليه المواقف في غير تدبير أو ترتيب. . . عجب الناس أن رأوه يرسم الخطط ويسدد السهام فلا تخطئ مرمأها، وكأنه في هذه المعركة الانتخابية قائد في معركة حربية يدبر الهجوم ويعد الدفاع وهو بصير بالموقف خبير بما يدور حوله، يميز باللمحة الخاطفة ما يأخذ مما يدع، ويتبين - مهما اشدت من حوله ضجيج الموقف - الطريق المؤدية إلى النصر.

كتب إلى جميع أصدقائه في نواحي الدائرة يطلب إليهم العون ويسألهم أن يدلوه على مؤيديه ليكتب إليهم، وعلى مخالفيه ليبتغي إلى إقناعهم الوسيلة؛

وراح يتحدث في الأندية، ويخطب في الجماعات، لا يدع فرصة ولا يتخلف عن موعد، وله من نباهة الذكر وطيب السمعة ومن محبة الناس لشخصه ما ينزله على الرحب أينما حل. . . وهل كان الناس يعرفون في خلقه غمزة؟ هل كان الناس يعرفون عن (أيب) الأمين إلا ما يحبه إلى قلوبهم؟ هل كان يجهل خاصة الناس وعامتهم المحامي الصادق السر؟ وهل كان ينسى العامة ذلك الرجل الطيب القلب الذي يجلس بينهم كأنه أحدهم، فيشاركهم أفراحهم وأتراحهم ويبادلهم ودا بود وحباً بحب، ويبتهم من نصائحه ما ينير لهم سبيلهم، ويسمعهم من طريف أحاديثه وروائع أقاصيصه ما يبهجهم ويسري عن نفوسهم. . ؟

لم ينسه الناس ولم يجهلوه، ولكن للسياسة أحكامها ولها غرائبها، وكم تأتي رياحها الهوج على ما بين الناس من مودة، وكم تترك ألامها وأضاليلها الناس في عماية وغواية! وكم تصدهم الشهوات في معركتها عن الحق وهم يعلمون! أجل كم يظهر في السياسة الباطل على الحق، وكم يدلس الرأي بالهوى، وكم يضيع ما تواضع عليه الناس من أصول الفضائل فيما تزين لهم من أوهام وأحلام، وما توحى إليهم من غرور العيش ومطامع الحياة؛ وكم يذهب ما درج عليه العرف وما نشأ عليه الذوق وما نمت عليه المشاعر هباءً فيما تأتي به السياسة من بهتان!

هذا لنكولن راح يطعنه منافسه في عقيدته ويلجأ إلى الدين فيتخذ منه سلاحاً فيكيد له به كيداً أليماً؛ وهو لا يرعوى عن غيه بوازع من خلق أو بدافع من حياء! أجل إن من كان له من حسن سيرته ونقاء طويته وصدق إخلاصه درع يرد عنه السهام مهما كانت صنوفها، خالق ألا يأبه لما يتقول عليه المبطلون؛ بل إنني لأعتقد أنهم يحسنون إليه من حيث أنهم يريدون إساءته؛ إذ هم يشعرون الناس أنهم يتصيدون له العيوب حيث يرونها خلواً من العيوب؛ ويلفقون له النقائص إذ يغیظهم بكماله ويسمو عليهم بفضائله، ويباعد بينه وبينهم بأن

يعرض عما يأفكون. . . بيد أن للإشاعة دويها، ولها مهما بطلت مجراها وإن تاهت آخر الأمر عن مرساها؛ وذلك هو ما غاظ ابراهام وآلمه وتركه في ضيق مما يفعل منافسه

وكان ذلك المنافس من الحزب الديموقراطي وهو رجل من رجال الوعظ الديني يدعى كارتريت كان مما عرف عنه تدفق نشاطه وتوثب حيويته وذلاقة لسانه فيما ينفاح عنه مما يزجيه من الآراء؛ وهو اليوم يستعدي على ابراهام مواهبه ويسلط عليه لسانه في غير إعياء أو سأم؛ يتهمه بالزيغ والإلحاد مشيراً إلى بعض ما كتبه لنكولن من قبل من رسائل نقدية حمل بها على بعض رجال الدين أن رآهم ينقمون على الناس فجورهم وينكرون عليهم فواحشهم دون أن يقوموا بنصحهم أو يعملوا على خلاصهم مما هم فيه

ذهب لنكولن مرة إلى حيث أنضم إلى جماعة يستمعون إلى منافسه في حديث ديني! وبعد هنيهة قال منافسه: (ليقف كل من يريد أن يحيا حياة جديدة وأن يسلم إلى الله قلبه وأن يذهب إلى الجنة). . . ثم أردف قائلاً: (ليقف كل من لا يريدون أن يذهبوا إلى الجحيم). . . ووقف الناس جميعاً ما عدا لنكولن فاتجه الرجل إليه وقال: (هل لي أن أسألك يا مستر لنكولن إلى أين أنت ذاهب؟) ونهض لنكولن فقال: (أتيت هنا لكي أستمع في احترام، ولم أكن أعلم أن الأخ كارتريت سيعمل على إفرادي هكذا؛ إنني أومن أنه يجب أن تطرق المسائل الدينية بما هي جديرة به من التوقيير. يسألني الأخ كارتريت في غير التواء إلى أين أنا ذاهب، وإنني أجب في غير التواء أيضاً أنني ذاهب إلى المؤتمر)

وجلس لنكولن بين ضحكات الإعجاب تتبعث من جوانب المكان، وقد كسب عدداً جديداً من المؤيدين

وعلم لنكولن أن خصومه يرمونه فيما يرمونه به من الأباطيل بأنه أرستقراطي لا يحفل رجاء العامة ولا يستجيب لهم دعاء؛ وأن هؤلاء الخصوم يتلمسون البرهان على دعواهم في زواجه من ماري، فدفع تلك التهم عن نفسه

بإشارته إلى حياته الأولى حيث كان (غريباً لم يلق حظاً من التعليم، معدماً يعمل في قارب نظير أجر لا يتجاوز عشرة دولارات كل شهر)

وتم لإبراهام النصر وكان يومئذ في السابعة والثلاثين؛ ورأى الناس وهم يعجبون أنه حصل على عدد من الأصوات لم يتسن لرجل قبله من رجال حزبه أن يظفر بمثله؛ وكان الحزب قد أعطاه مائتي دولار لينفق منها فيما يتطلب الانتخاب من أوجه الإنفاق ولكنه يرد إليهم المبلغ بعد الانتخاب ولم ينقص سوى ثلاثة أرباع الدولار، قائلاً إنه لم تكن به حاجة إلى النقود حيث أنه كان يتجول على جواده وأنه كان ينزل ضيفاً على أصدقائه. . .

وفرحت ماري بالنصر وحق لها أن تفرح ولها في الجهاد نصيب، ولها في المستقبل آمال. أجل أحست ماري أنها تخطو خطوة واسعة نحو هدفها، وهل كان ذلك الهدف إلا كرسي الرئاسة يتربع عليه زوجها؟ إنها ما تفتأ تستحثه وتشده أزره وتحذر أن ينصرف عن وجهته؛ عرض عليه قبل الانتخاب أن يشغل وظيفة حاكم مقاطعة النيوس، ولكنها صرفته عنها ليستقيم على الطريق ويدلف إلى الغاية

صار لأبراهام اليوم بين رجال حزبه شأن غير شأنه بالأمس وأصبح له في السياسة مكانته وخطره. على أن مهنته لا زالت هي المحاماة وسيظل محامياً حتى تنتهي إليه الزعامة، وتلقي إليه قضية البلاد الكبرى وتتوافى له أسباب تلك الرسالة التي مؤديها في غد إلى أبناء وطنه جميعاً

وكانت مسألة العبيد قبيل انتخابه قد عادت تظهر في وضع جديد؛ ذلك إحدى الولايات وهي تكساس كانت قد انسلخت عن المكسيك أو كادت، فلما أرادت أن تنضم إلى الولايات المتحدة أعلنت المكسيك حقها عليها، ولكنها لم تعبأ بذلك الحق وجعلت الأمر للسيف؛ وخاضت بذلك المكسيك غمار حرب ضد تكساس وضد الولايات المتحدة التي كانت تعاونها من قبل على الاستقلال لتضمها إليها. وكان أهل الولايات الجنوبية يحبذون ضم تكساس إلى الاتحاد لكي

يطبعوها بطابعهم ويضيفوها إلى الولايات التي يسمح فيها بمبدأ اقتناء العبيد؛ ولكن أهل الولايات الشمالية كانوا يتتكرون لذلك ويرغبون عن الحرب؛ وكان لنكولن ورجال حزبه ضد هذه الحرب وهم في ذلك يشايعون كلي زعيم الهوجز والمرشح يومئذ لرياسة الولايات؛ ولقد تغلب الحزب الديموقراطي، ففشل كلي في الانتخابات بسبب آرائه عن تلك الحرب

ولقد كان لنكولن قبيل انتخابه للمؤتمر ينقم على تلك الحرب ويدعو إلى انتخاب كلي للرياسة؛ لا يفتأ يلقي الخطب وينشر الدعوة بكل ما يملك من الوسائل. ولم تكن نقمته على الحرب تشيعةً منه لزعيم الهوجز فحسب، بل لقد كان يكرهها لأنها تمكن لأهل الولايات الجنوبية في مسألة العبيد وهو يمقت تلك المسألة من أعماق قلبه؛ وإن نفسه لتتفر منها منذ ذهب إلى أورليانز ورأى مالا ينساه من منظر هؤلاء البشر يساقون في الأغلال إلى حيث يباعون في الأسواق كما تباع الدواب

وما أصل تلك المشكلة التي تظهر في ميدان السياسة حيناً بعد حين؟

بدأت مشكلة العبيد من عهد بعيد ولقد كانت تلك المشكلة بعد استقلال الولايات الأمريكية عن إنجلترا من أشد المشاكل خطراً حتى لقد كان الناس يرونها عقبة تحول دون بقاء الاتحاد. جلب التجار منذ بضعة قرون من أفريقيا طوائف من الزنوج باعوها في أمريكا، ورأى سكان الولايات - وجلهم من الأوربيين المهاجرين إليها من أوطانهم - في اقتناء هؤلاء العبيد ما يهون عليهم الكدح في طلب العيش ونظروا إليهم نظرتهم إلى الدواب، فأخذوا يشترونهم ويسوقونهم إلى الأدغال والإحراج يشقونها تحت إمرتهم. ولما كان أهل الولايات الجنوبية أهل زراعة فقد كان اقتناء العبيد عندهم أمراً أساسياً يقوم على الضرورة إذ لا تستقيم حياتهم إلا به؛ ومن ثم لم يكونوا ينظرون إلى مسألة العبيد تلك النظرة الإنسانية التي أخذ ينظرها بعض الناس بعد الاستقلال،

فمنطقتهم يقوم على المادة ويستند إلى الوقائع، ولا عبرة بعد ذلك بأراء المشفقين العاطفين. . .

ولما أعلنت حقوق الإنسان في مستهل الثورة، كان في مقدمتها أن الناس جميعاً أحرار ومتساوون في الحقوق وليس لأحد أن يسلبهم حقوقهم. وقد أخذ أهل الولايات الشمالية بهذه المبادئ فيما يتعلق بالعبيد فأعتقوهم، ولم يكن السود عند أهل الشمال في الجملة سوى خدم في المنازل، وذلك لأن أهل الشمال كانوا أهل صناعة أكثر منهم أهل زراعة، فلم يكونوا كأهل الجنوب يرون اقتناء العبيد أمراً جوهرياً بالنسبة إلى حياتهم، لا تتطلب زراعة القمح عندهم جهداً عسيراً ومن ثم فلا يتطلب استخدام العبيد؛ ولكن القطن في الجنوب يستلزم اقتناء هؤلاء السود الأقوياء الذين يتحملون الجهد ويقفون على الحر ويرضون بالقليل

وفي عادة الاستقلال هدد أهل الجنوب أهل الشمال أنهم ينسحبون من الاتحاد إلا أن يترك لهم حق اقتناء العبيد قائلين إن السود عندهم ليسوا مجرد رجال بل هم بعض أدواتهم، وخيل للناس أن الاتحاد منفصمة عراه لا محالة؛ وأشفق الزعماء أن يضيع الاستقلال الذي اشتروه بدمائهم وأموالهم؛ لذلك لم يروا بدءاً أن يتهاونوا ببعض الشيء وأن ينصوا في القانون أنه لا يسمح بعد عشرين عاماً باستجلاب طوائف من السود من أفريقيا؛ ومعنى ذلك أنهم يسلّمون ولو إلى حين لأهل الجنوب بامتلاك العبيد، ويسلمون بذلك في صورة شرعية!

وتزايد إقبال الولايات الجنوبية على اقتناء العبيد حينما ازدادت أوروبا إقبالاً على طلب القطن، وقد أخذت الآلات تعمل عمل الأيدي وعلى الأخص في حلج القطن؛ وكان كلما ازداد طلب القطن ازداد حشد السود لزراعته وجمعه فكانوا يساقون إلى الحقول جماعات تحت إمرة رئيس من البيض، وإنهم لينظرون في فزع إلى ما في يده من سوط طالما ألهب جلودهم فمزقها وأدماها؛ فإذا غابت الشمس جيء بهم كالقطيع فأدخلوا في حظيرة تأويهم جميعاً حتى الصباح. . .

ولم يكن أحد من السادة أهل الجنوب ليسأل عما يفعل بعبيده؛ ولو أنه ساقهم إلى الموت كما يسوق كلابه لما أحس بينه وبين نفسه أنه يأتي أمراً منكراً؛ وكان يمن عليهم هؤلاء السادة أنهم يطعمونهم ويسقونهم كأنما هم يريدونهم أن يعيشوا بلا طعام ولا شراب! ولا تسل عما كانوا يلاقونه من صنوف العذاب إذا بدا لهم أن يظهروا ما ينم على استيائهم أو حتى على مجرد تألمهم لما يصب عليهم من وصب؛ بل ما كانوا يعانونه من بلاء إذا انتشرت الحمى وفشت فيهم وهم جموع متقاربون. . .

وكانوا في الأسواق يحشرون كما تحشر الخيل عارية أجسادهم فيباعون، وكثيراً ما كان ينتزع المرء من أخيه وأمه وأبيه، وكثيراً ما كانت ترسل الفتاة إلى مزرعة وأختها إلى مزرعة وأهلوها إلى حيث لا تعلم لهم مستقراً ولا مستودعاً. ولقد تسنى لإبراهيم أن يرى هاتيك الأسواق في رحلته إلى نيو أورليانز فاستقر في نفسه الألم؛ وكأنه رأى لساعته أن رسالته في غد تحرير هؤلاء المساكين. وكثير من عظماء النفوس تقع في نفوسهم الفكرة في سرعة كلمحة البرق، وتظل تلك الفكرة وإن لم يشعروا بها في أعماق وجدانهم كالبذرة في أعماق التربة، وما تزال تنمو تلك الفكرة وتنمو حتى تملك عليهم آخر الأمر مشاعرهم فتحركهم وتوجههم حتى لا يكون لهم لغد من أمل في الحياة سوى إبرازها ثم الدفاع عنها، ثم التضحية من أجلها ثم الموت في سبيلها إن لزم الأمر. . .

ذلك ما كان من أمر لنكولن فيما أعتقد، وإن لم يشعر هو في صدر شبابه أنه عامل في غده للقضاء على العبودية؛ ذلك ما كان من أمره وإن لم يلق باله إلى ذلك الأمر. إن نفسه لتجيش بكراهة هذا النظام، وإن إنسانيته لتتفر بطبيعتها من تلك الوحشية، ثم إن قلبه الكبير ليتمنى أن يخلص هؤلاء التعساء مما هم فيه من عذاب ومذلة، وما ذلك لعمرك إن لم يكن هو الإرهاص؟

ولم يكن للعبيد حق حتى في الهجرة، وكان إذا أبعد أحدهم إلى إحدى الولايات الشمالية التي أطلقت العبيد أعيد إذا عرف إلى سيده ومالكة بأمر القانون فلا ينفعه الفرار إلا أن يفر إلى الموت. . .

ولقد أدى ما كان عليه العبيد إلى ظهور دعوة في الشمال إلى تحريرهم ولكن أصوات الداعين كانت خافتة، كما كان عددهم ضئيلاً، إذ كانوا يحسون ما تتطوي عليه دعوتهم من جراءة، وكانوا لا يأمنون أن يأتيهم الموت من كل مكان، فأهل الشمال مع أنهم لم يتمسكوا بالعبيد يخشون أن تؤدي الدعوة إلى تحريرهم إلى القضاء على الاتحاد، وأهل الجنوب كانوا كما علمنا يرون حياتهم في بقاء العبيد. لذلك كان الداعون إلى التحرير عرضة لسخط الجانبين. ولقد حدث أن أصدر أحد الرجال من ذوي النفوس الكبيرة صحيفة تدعى (المحرر) كان يندد فيها بما يلاقي العبيد ويدعو إلى تحريرهم، أيام كان لنكولن في الحادية والعشرين من عمره، فلما اشتدت حملاته هاجمه الناس وحطموا دار الصحيفة وألقوا بأدوات الطباعة في مجرى مائي، ولفوا حبلاً حول وسطه وسحبوه في الطرق تنكيلاً به وزجراً لغيره

لذلك لم يكن عجباً أن تقدم الشكاوى إلى مجالس المقاطعات الشمالية يومئذ ضد حركة التحرير والداعين إليها خوفاً على الوحدة أن تتصدع. ولقد رأينا لنكولن يقدم احتجاجاً إلى مجلس مقاطعة الينوس هو وصديق له يدعى ستون وفيه يخطو خطوة جريئة فيعلن رأيه في صراحة قائلاً إن مسألة العبيد لا تقوم على شيء من العدالة، ولكنه يشير إلى مراعاة القانون في النظر إلى تلك المسألة خوفاً على كيان الاتحاد

وهاهو ذا اليوم يختار عضواً للمؤتمر وهو في السابعة والثلاثين وقد عادت المعضلة تظهر بسبب ما حدث في تكساس ومحاولة ضمها إلى الولايات

نجد لنكون في الانتخاب، فظفر بمقعد في المؤتمر ظل ينزع إليه سنوات أربعاً طويلة؛ وكان هذا النجاح كفيلاً أن يثبت في قلبه من الغبطة والبهجة بقدر ما بثه فيه الانتظار الممل من السأم والضجر، ولكنه كتب إلى صديقه سييد ينييه أنه لم يهتز كثيراً للنجاح كما خيل إليه قبل أنه فاعل إذا ظفر. وتلك حالة من حالاته العجيبة، بل هي حال من حالات النفس البشرية تدعو إلى العجب والاعتبار! فكثيراً ما يتمنى المرء ما ليس في يده حتى لتكون سعادته كلها مجتمعاً في أن ينال ذلك الذي يتمناه، فإذا اقترب من بغيته أو شه له أنه مقرب راح يظفر من الفرح، ورأى في كل شيء حوله معاني الحبور والغبطة، وإذا بعد عن ضالته أو خيل إليه أنه مبتعد، ضاقت في وجهه الدنيا وبات من همه كأنه في بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج؛ حتى إذا قدر له آخر الأمر أن يرسو على الشاطئ وأن يلمس بيده مبتغاه وقف حياله وقفة من لم يجد شيئاً، وفتحة عينيه على الحقيقة كمن يفيق من حلم ذابت ألوانه وتلاشت أطرافه وتبددت رؤاه. . . ذلك هو غرور الحياة، ولكن ما أذه من غرور! وما الحياة في جملتها أن هي خلت من هاتيك الأحلام؟

وانقضى عام بين نجاحه وذهابه إلى المؤتمر. ولقد صحبته زوجته إلى وشنجطون العظيمة، وزارت البيت الأبيض، ولعلها كانت تحدث نفسها في زهو أنه في غد مقر بعلمها. ومشى ابن الأحرار في المدينة تستوقف الأبصار هيئته إذ كانت لا تزال روح الغابة تصحبه كأنما هو نوع من الشجر جيء به إلى غير منبته. . . وسرعان ما أنس الناس به، فهم إذا جلسوا إليه يشعرون أن روحاً قوياً يسرى إليهم منه وإن لم يتبينوا ما هو؛ وكذلك أخذت تطل عليهم نفسه في فيض من قصصه. . .

أما في المجلس فقد كان أول الأمر بحيث لا يحسب أحد أنه سيكون يوماً من النابهين، ولكنه ما لبث أن بدد هذا الزعم بخطاب احتفل له وجعل له كثيراً من الأهمية، يتبين لنا ذلك فيما كتبه في هذا الشأن إلى صديقه هرنند؛ وكان

الخطاب يدور حول الحرب القائمة في تكساس، وجه فيه لوماً عنيفاً إلى رئيس الاتحاد أن خرج بهذه الحرب عن الدستور كما فرط بها في جانب العدالة والخلق

قال لنكولن: (ليذكر الرئيس أنه يجلس حيث كان يجلس وشنجطون، ويجب إذا ذكر كما كان يجيب وشنجطون، وكما أنه لا يليق بأمة أن تهرب من الحق، والله لا يسمح أن يهرب منه. كذلك ليتجنب الرئيس الهرب والمراغة؛ فإذا استطاع بعد ذلك أن يقيم الدليل على أن الأرض التي سالت عليها الدماء أول ما سالت هي أرضنا فإنني موافقه فيما يسوق من مبررات. ولكنه إن عجز عن ذلك أو أحجم عنه فإنني حينئذ خليك أن آخذ على اليقين ما يقوم في نفسي فعلاً مما هو أكثر من الظن، فأرى أنه يشعر بخطئه، وأنه يشعر أن الدم الذي سال في تلك الحرب هو كدم قابيل يستصرخ السماء ضده)

ولكن تلك الحرب كانت في نظر الناس أمراً مستساغاً لأنها ستضم إلى الولايات أرضاً جديدة، كما أن جيوش الولايات كانت ظافرة فيها. من أجل ذلك لم ينل ابراهام بخطابه من الرئيس، كما أنه لم يظفر بتأييد أو قبول من جانب زملائه. ولقد أحس هو بضعف موقفه ولهذا جعل الأمر في المهاجمة أمر خلق لا أمر سياسة؛ وأخذ يندد بضم تكساس على رغمها ويستنكر ذلك الفعل على الأخص أن كان صدوره من دولة تدعو إلى الحرية وتباهى العالم بأنها أرض الحرية

وكان مما جاء في ذلك الخطاب قوله: (إن من حق أية أمة في أية جهة إذا أحسست في نفسها الميل واستثمرت القوة أن تثور في وجه الحكومة القائمة وتعصف بها، ثم تقيم بعد ذلك من الحكومات ما يكون أكثر ملاءمة لها). وأنا لنراه بذلك يجعل للثورات صفة شرعية، كما إننا نفهم من هذا المبدأ مبدأ آخر جاء ضمنه ألا وهو مبدأ سلطة الأمة ووجودها في أساس كل سلطة!

تلك هي خطبة لنكولن التي احتفل لها وافتتح بها عمله في المؤتمر؛ تراها وإن لم تصب بموضوعها موضع العطف من نفوس أعضاء المؤتمر، قد رفعت ذلك المحامي في أعين رجال السياسة، وعلم من لم يكن يعلم منهم مقدار ما أوتي به ابن الأحرار من قوة المبادأة ومتانة الحجة وفصاحة اللسان، ومقدار ما رزق من قوة الجنان ويقظة الوجدان، ورأوا فيه إلى جانب القصاص الذي لا يبارى، الخطيب الذي يعرف كيف يسحر السامعين وإن كانوا عن آرائه معرضين!

وكم للتاريخ من مواقف تدعو إلى العجب! فهذا لنكولن اليوم في المؤتمر يندد بالحرب، وقد تعاضمه سفك الدماء وإزهاق الأنفس؛ وهذا لنكولن يقرر حق الشعوب في اختيار ما ترضى من الحكومات. . . ولسوف يتخذ أهل الجنوب في غد من أقواله حجة عليه؛ يوم يهزمون بالانسلاخ من الاتحاد وهو يأبى عليهم ما يبتغون، ويعمد إلى الحرب فيصليهم ناراً حامية ويسفك الدماء ويزهق الأرواح حتى يكرههم على الاتحاد وهم صاغرون!

وتهيات له الأسباب ليسير في البلاد فيزداد بالناس اتصاله ويستزيد منهم أعواناً له ومحبين. فلقد انتهت وهو في المؤتمر مدة الرئيس القائم أخذت البلاد تنتخب رئيساً جديداً؛ وكان حزب الهوجز الذي كان إبراهيم من أفرادهم قد رشح للرئاسة أحد زعمائه ويدعى تيلور. وهل نسي إبراهيم تيلور وقد كان رئيسه في الحرب ضد الصقر الأسود؟ على أنه على الرغم من محبته لتيلور يأسف أن يراه ممن يملكون العبيد على نمط أهل الجنوب. . . ولكن لا ضير الآن فهو ممن لا يريدون أن تزداد ولايات العبيد، كما أنه أقل من منافسة من الحزب الديمقراطي تشيئاً لمبدأ اعتناقه العبيد وأضعف منه استمساكاً به. . .

أخذ لنكولن يجوب البلاد شرقاً وغرباً ويخطب في الناس مؤيداً رجل حزبه؛ فكان إذا قام في جماعة لم يروه من قبل جذب إليه الأنظار بطول قامته وغرابة ملامحه، فإذا أطلق العنان لكلامه سرت في الجموع منه روح عجيبة لا يدرون

كنهها وإن أدركوا فعلها. . . ورأوا عينيّه تلتمعان حتى ما يعرف الناس أنهم رأوا مثلها قبل، وأبصروا في ملامحه معاني ابلغ من كل كلام، واعمق أثراً من كل حجة. . . والخطيب ينتقل بهم من مثل إلى مثل ومن حكاية إلى حكاية؛ ثم يرسل الجملة بين حين وحين، فإذا هم يضحكون ملء نفوسهم؛ وهو في حماسته يشمر ردني حلتة ويفعل مثل ذلك بقميصه. ولقد يحل رباط عنقه أو ينتزع من موضعه كأنه مقبل على مبارزة! ولا يكاد يفرغ من خطابه حتى يهرع الناس إليه متدافعين بالمناكب لكي يزدادوا نظراً إليه من كذب. . . وظفر تيلور بالرياسة، وعرف لإبراهام يده وحسن صنيعه. . .

وكان مما صادفه في تجواله هذا أن استمع في بوستن إلى خطبة من أقوى الخطب التي وجهت ضد امتلاك العبيد، وقد ألقاها رجل من كبار الداعين إلى التحرير، هو سيوارد ذلك الذي سيكون له في غد شأن في هذا الأمر مع لنكولن حين يهم بتأدية رسالته. استمع لنكولن إلى الخطبة في بوستن واستشعرتها نفسه، وكان مما عقب به عليها قوله: (أعلن أنك محق). لقد آن أن نطرق معضلة العبيد وان نلقي إليها من اهتمامنا بأكثر مما كنا نفعل من قبل)

وفي عودته إلى وشنجنطون أخذ يعضد حركة أخرى كانت موجهة ضد العبيد على يد داعية آخر من دعاة التحرير، هو ولت الذي كان يدعو بكل قواه إلى منع انتشار العبيد في الأراضي التي تستخلص من المكسيك؛ وفي المؤتمر تقدم لنكولن يطلب القضاء على العبودية في ولاية كولومبيا وفي عاصمة البلاد، وكان في مقترحه عادلاً يجمع إلى العدالة الكياسة وبعد النظر، ولكن ذلك المقترح وا أسفاه قد حيل بينه وبين أن يكتسب الصفة الشرعية إذ عمل رجال المؤتمر على تأجيله مخافة أن يثير من الجدل ما لا يحبون، حتى أوفى دور الانعقاد على الانتهاء فاعتذروا من عدم النظر فيه على الرغم مما بذله لنكولن من جهود وما أنفق من حيلة. . .

وانقضت أيام ذلك المؤتمر، وهو المؤتمر الثلاثون في تاريخ الولايات وعاد لنكولن وهو يخطو إلى الأربعين ليعيش من جديد في سبرنجفيلد. . .

عاد ابراهام إلى سبرنجفيلد وهو يحس بينه وبين نفسه مرارة الهزيمة في السياسة، فلقد خذله رجال المؤتمر في مقترحه كما رأينا وأعرضوا عن خطبته التي وجهها ضد الحرب في تكساس، تلك الخطبة التي لامه عليها الكثيرون من رجال حزبه حتى هردن نفسه أحب أصحابه إليه

لذلك انصرف عن السياسة وعاد من جديد إلى المحاماة؛ بيد أن رجال حزبه يزينون له أن يطلب منصباً رسمياً ويشيرون إلى حقه في ذلك وهو من جانبه لا يحجم فيطلب إلى الرئيس أن يهيئ له منصباً ثم يزيد فيطلب منصباً معيناً لا يلبث أن ينافسه في السعي إليه آخرون حتى يفلت من يده، ويريد الرئيس أن يجامله فيعرض عليه منصباً غيره؛ ولكن زوجه تقف بينه وبين هذا المنصب، وتصر على موقفها معلنة أنها لن تقبل لزوجها عملاً يعود بهما إلى الأدغال حيث كان مقر ذلك العمل واحداً من تلك الأصقاع الداخلية؛ ويرفض ابراهام المنصب آخر الأمر. وهكذا نرى زوجه للمرة الثانية حريصة على أن توليه القبلية التي لا ترضى له غيرها قبله. . .

وكانت المحاماة وظيفته الطبيعية إذا فرغ من السياسة إلى حين؛ فما باله يريد أن يتنكب طريقه ويستبدل بعمله عملاً آخر لا يتصل بطبعه ولا يستقيم مع خلفه؟ ما باله يريد أن يحدد عن الغاية وقد قطع في سيره إليها شوطاً ليس باليسير؟ ترى ماذا كان يحدث لو أنه كان غير وجهته واخذ له غاية غير غايته؟ ولكن الدهر يضمن به ويدخره لغد ويأبى أن يغير تاريخ قومه بطمس رسالته. . .

عاد من السياسة إلى المحاماة عودة ظن الناس معها أنه يقرب السياسة بعد ذلك؛ وكان قد ترك العمل كله لصديقه هردن؛ وهو اليوم في المحاماة أعظم خبرة من ذي قبل وأكثر معرفة بأحوال الناس وشئون حياتهم

وكان من أبرز صفاته سرعة ألفته للمواقف الجديدة في حياته، وترك مواضيها حتى تبعثها الأسباب. لذلك أقبل على المحاماة إقبالا لا يظن امرؤ معه أن قد كانت له صلة بمهنة سواها، وكأن العمل في السياسة لم يكن إلا عارضاً مر وانقضى فليس إليه رجعة. . . هذا والسياسة مستكنة في نفسه ومعضلة العبيد في أعماق وجدانه تنتظر أول صيحة لتبرز من جديد وهي أعظم قوة واشد وضوحا وأكثر اقتراباً من الغاية. .

وضاق ابراهيم ذرعا بما تثيره زوجه من عوامل الشقاق فهي ما تفتأ تريه التبرم والسخط وتأخذ بألوان من العنف يوشك أن ينفذ لها صبره ويطيش حلمه، لولا أنه يعود بالسبب على مزاجها الحاد؛ وإن كان ليسأل نفسه بين حين وحين أهي مغضبة عليه حانقة لما أصاب من فشل في السياسة، فما تزال تتعلق بأوهى الأسباب لمجادلته ومغاضبته وقد صغر في عينها وهان لديها شأنه؟. . . ولكنه يحس من زوجه أنها على شغفها بتعنيفه تضرر له المحبة والإعجاب كعهده بها فيطمئن قلبه ويرد الأمر في هذا الشقاق إلى ما يعرف من طباعها ولكن الشقاق متصلة حلقاته وإن وهت دواعيه؛ والمدينة أضيق في عينه اليوم منها قبل، وهو ابن الإحراج والغابات والبقاع المترامية؛ وهو الذي لم يألَف الاستقرار في موطن. لذلك عود على أن يعمل في المحاكم المتجولة فيقضى أشهراً بعيداً عن المدينة وعن بيته، يتبع المحكمة أينما سارت، إذ كانت المحاكم يومئذ في تلك الأصقاع هي التي تذهب إلى الناس!

وبرزت في المحاماة مواهبه من جديد وظهرت خلاله، وأخذ ينشر مبادئه بالعمل لا بالقول. جعل الحق رائده والصدق شعاره كما جعل مرد كل شيء عنده إلى معاني الإنسانية والفضيلة لا إلى أصول القانون وملابساته. وليس معنى ذلك أنه أهمل جانب القانون كلا إنما كان يهمل جانب القانون إذا أدت ملابساته إلى التعمية وإظهار الباطل في زائف من ثياب الحق؛ ولذلك جعل الفضيلة فوق القانون، والصدق فوق المهارة في الحوار واللباقة في المجادلة.

وكان يحث أصدقاءه من المحامين ومحبيه من الناشئين على ألا يفرطوا في جنب الفضيلة قائلاً في صراحة وفي بساطة: أن هناك رأياً شائعاً في الناس مؤداه أن المحامي رجل يتهاون عادة في حق الأمانة؛ ولذلك فلا بد من أن يتمسك المحامي بالأمانة فيما صغر أو كبر من الأمور لكي يدرأ تلك التهمة الشنعاء عنه وعن طائفته. ومن عباراته الشهيرة في ذلك قوله: (يجب أن تثبت في المهنة روح الفضيلة لكي تطرد تلك الروح الأذنين) وقوله ينصح أحد الناشئين: (أعمل على أن تكون محامياً أميناً. فإذا لم تستطع أن تكون أميناً وأنت محام فخير لك أن تكون أميناً وألا تكون محامياً)

أما عن مسلكه في معاملة الناس فظل هو هو الرجل المتواضع القنوع. كان يرضى بالقليل من الأجر إذ كان يعتبر طلب الأجر الباهظ من أكبر آثام المهنة. ويذكر أنه دافع مرة عن حق رجل في مبلغ ستمائة دولار ولم يتقاضه أجراً على ذلك سوى ثلاثة ونصف! ويذكر أيضاً أنه لم يتفق على الأجر مرة. فلما ربح القضية أرسل إليه موكلوه خمسة وعشرين دولاراً، فرد إليهم عشرة منها قائلاً: أن ما بقي هو ما يستحقه!

وكان أينما حل يأمر القلوب بسجاياه، فهو لا يتكلف ما ليس له. ولذلك كان يخالط الناس كأنه أحدهم، يضاحكهم ويلطفهم ويسرى عنهم بأقاصيصه، والناس يفتنون إلى عذوبة روحه وطيب قلبه ويقظة وجداته، فيفرحون أن عرفوه ويحرصون اشد الحرص على مودته. ولا فرق عنده بين غنيهم وفقيرهم أو بين كبيرهم وصغيرهم، حتى الصبية كان يغمرهم بعطفه فيذهب أحياناً إلى جماعاتهم يتفرج على ألعابهم لحظة، ثم إذا هو بينهم طفل كبير. ولا عجب فقد كان قلبه الكبير مليئاً بمعاني الإنسانية في نسقها الأعلى. وتلك لعمرى هي العظمة الحق التي تعمر قلوب بعض البشر فتسمو بهم عن بشريتهم وهم بين الناس يعيشون كما يعيشون

وكان في لمحكمة كما كان في خارجها الرجل المتواضع العف يدخل وجيوبه منتفخة بأوراقه، وقبعته ثقيلة بما حوت، لا يعرف أبهة المظهر وقد سلم له الجوهر، ولا يدري ما التطاول والتعاطم وقد عظم حتى صارت العظمة هي كما يفعل!

كان الصدق في الدفاع أول وسائله في الإقناع. وقد يتبين له أثناء دفاعه أن الحق قد ألبس عليه بالباطل فيترك القضية لأنه لا يستطيع أن يلائم بينها وبين طبعه، أو أن يرفعها إلى مستوى حماسته وصدق شعوره. على أنه ما كان ليفعل ذلك لو أنه استطاع. وكان المنطق السليم والإنصاف بعد ذلك أدواته ووسائله؛ يضاف إليهما الدراسة الدقيقة لما ينهض له، والإحاطة بجميع تفاصيله. هذا إلى ما امتاز به من صفاء الذهن صفاء يساعده على تبين الطريق إلى غايته في يسر ووضوح، حتى ما يلتوي عليه امرأ ويغرب عن ذهنه حادث وعرف عنه فيما عرف الأناة حتى لقد كانت تغضب منه زوجه وترميه بالبلادة. وكثيراً ما تبرم صديقه هرندن وتململ لأناته. فانظر إلى إبراهيم يسأله أن يأتيه بمبرة وسكين فإذا أحضرهما قال له: أن سلاح تلك المبرة أقصر وأحد ولعلك تظنها بذلك انفع من السكين إذ هي أسرع، ولكن أيتهما أبعد من الأخرى غوراً إذا نفذتا في جسم؟ ويقتنع صاحبه بعدها أن الثاني في الأمور أبعد في سير الأمور غوراً، ولا يشتكي بعد من أنانه ويطبق معه صبراً!

وكان مما يهابه منه المحامون تهكمه، فهو يعتمد في دفاعه أحياناً إلى التهكم اللاذع فيزلزل به قلمي خصمه حتى ليذهل عن رشده بين ما ينبعث من جوانب القاعة من الضحكات. . .

وكان إذا جاءه أحد الناس يطلب إليه المدافعة عنه استفهمه حتى يستقصي خبره، وهو على طيبة قلبه يقرأ في وجه محدثه إمارات الكذب إذا هم أن يكذب، فما يزال به حتى يرده إلى الصدق في مهارة دون أن يسيئه في شعوره! فهو وإن لم يك من الماكرين لا يقدر أحد أن يمكر به. فإذا جاء دور الأجر

طلب إلى موكله أن يدفع ما يستطيع. فإن كان موكله مملقاً فكثيراً ما كان يكتفي من الأجر بالثواب وبالجميل يغرسه في قلبه. ذلك ما حدث حين قام يدافع عن ابن متحديه القديم ارمسترنج وقد اتهم في جناية فانه لم يتقاضه على تبرئته أجراً إلا المودة

وكان لنكولن يرى في هذا الطواف مدرسته التي يتلمس فيها المعرفة وأي معرفة هو أحق بها من دراسة طباع الناس والوقوف من كذب على أحوالهم بل والنفاذ إلى سرائرهم وخلجات نفوسهم؟ أي معرفة هو أحق بها من هذه وهو في غد رئيس الولايات ومحطم الأصفاذ؟

لذلك كان في طوافه إذا فرغ من عمله يغشى المجالس وينطلق إلى البلاد القريبة فيسمع ويرى، ويأخذ بقسط من الأحاديث، ويدلي بآرائه إذا عن له أن يبدي آراءه في أمر ويستفهم الناس ويسألهم عن أمانيتهم؛ وله مما يلقي إليه من القضايا هاد يرشده في تطلعه وتقصيه

ويظل هذا شأنه حتى ينتهي دور المحكمة فيعود إلى سبر نجفيلد وتنتظر زوجه فإذا هو يدخل الباب وفي عينيه الحنين إلى زوجه وأولاده، وفي أساريره من البشر بقدر ما في جيبه من المال؛ ثم يدفع إليها بمظلة قديمة مهلهلة حائلة الصبغة يمسكها بعضها إلى بعض بخيوط ورقع، ويلقي إليها حقيبة اتخذها من رقعة بساط قديم بها من الأوراق ما ضاقت عنها جيوبه وما صغرت دونها قبعته، ويقبل على بنيه فيرفعهم على كتفيه وذراعه كالعملاق وهم فرحون يتسابقون إلى محادثته حتى لتضيع كلماتهم فيما يثيرون من زياط، وأهمهم تكظم الغيظ لهذا الخروج على النظام

وكانت مدرسته في المدينة إذا فرغ من قضايا الكتب يستوحياها، وإن له فيها لغنية ومتعة. وما تلك الكتب التي يقرأ اليوم؟ إنه شكسبير العظيم الذي رفع المرأة فانعكست فيها الطبيعة واضحة سافرة كآتم ما يكون الوضوح والذي مست ومضة من عبقريته القلب البشري فأنارت أكثر نواحيه، وهو مولع منذ حدثته بدراسة النفس البشرية والغور إلى أعماقها، ومن غير شكسبير يهديه السبيل؟ لذلك كان إذا تناول كتاباً من كتب القانون ساعة أو بعض ساعة ثم ألقاه عمد إلى مأساة أو ملهاة من آثار شكسبير فأكب عليها ونسي كل شيء سواها؛

فإذا أتى عليها فكر وفكر وظل شاخصاً ببصره في ثرى الأرض أو في لازورد السماء كأنما أخذته عن نفسه حال. . .

وكانت له في بعض آثار بيرون متعة، ومن بينها قصته العظيمة (دوجوان) وهو بين هذا وذاك يقلب صفحات التاريخ العام وصفحات تاريخ بلاده يستزيدها معرفة بأحوال الأمم ويرى فيها خطى البشرية في شتى مراحلها. أو ليس الزمان يسير به ليضعه بعد سنوات على رأس أمته؟

ومن عجيب أمر هذا العصامي أنه تناول فيما تناول من الكتب كتب العلوم وأخذ يدرسها وقد جعل لها ساعات من فراغه، فهذا علم النبات له نصيب من جهده، وذاك علم الحيوان له نصيب، ثم هذه الكهرباء تصيب من عنايته حظاً ليس باليسير!

ولكن فيم العجب؟ وهل تضيق العبقرية عن شيء؟ أني وإن كنت أسلم بما للبيئة من خطر وبما للميل النفسي من أثر في توجيه المرء، أعتقد أن العبقرية إنما هي فوق ذلك، وأن العبقرى مهما تناول من الأعمال فإنما ينفذ إلى لبابها بقوة نفسه. وهذا لנקولن لو لم يكن محامي أو رجل السياسة ما قعد به شيء عن أن يكون الشاعر الفحل! أو لو أنه أفرغ إلى العلم جهده وجعل للدراسة والتحصيل وقته لكان لنا منه العالم الفذ أو الفيلسوف المبتدع. ولقد تأتى له أن يقول الشعر في بعض المناسبات فجاء شعره صورة من نفسه تشعرك بساطة العظمة والسمو

وإنك لتحس الشعر في نفسه وتراه ينظر إلى الحياة والناس نظرة الشاعر؛ ولكن خياله لا يطغي على عقله كما أن عقله لا يأتي على نوازع قلبه. وإنى أراه في ذلك أكثر الناس شبيهاً بجوت شاعر ألمانيا الأكبر، ذلك الذي كان يجمع بين اللعة الخيالية والنظرة العلمية والحكمة العملية. . .

وكان ابراهام قد بلغ أشده واستوى، وأخذت نظرته إلى الحياة والناس تزداد عمقاً وهو في أول العقد الخامس؛ وصار يحس كأن شيئاً يقلقه، شيئاً خفياً لا

يدرك كنهه يقلقه ويحرك نفسه وينقبض له صدره أحياناً؛ فهل أخذت السياسة تدب في نفسه من جديد فهو يتأهب ويتحفر؟

ولاحظ أصحابه أن إمارات الحزن التي ارتسمت على وجهه منذ حادثته أخذت تزداد وضوحاً، فهو على الرغم من عذوبة روحه في أحاديثه وطلاقة بشره في قصصه، تنطوي نفسه على كثير من الهم لا يعرف مبعثه؛ وهو إذا خلا إلى نفسه فكر وأمعن في التفكير، وقد تَرَبَّد وجهه وانعقدت عليه كآبة مخيفة ينزعج لها خاطر من يراه؛ وكثيراً ما وافاه صديقه هرنندن وهو على هذه الحال؛ وكثيراً ما سمعه يغمغم بمثل أنين المحزون. . .

وهو يدعي منذ زمن (أيب العجوز) أطلقها عليه الناس وهو في ريعان فتوته وربيع حياته، وذلك لما كان يظهر على وجهه من تجاعيد هي من أثر الهم لا من أثر السنين؛ وكان يسره أن يستمع هذا الاسم الجديد كما كان يسره أن يسمعهم يدعونه باسمه الآخر (أيب الأمين)

ما باله اليوم مهموماً وقد بسط الله له رزقه كثيراً حتى لقد باتت تجدي عليه المحاماة - على قناعة في الأجر - ما يزيد على خمسمائة من الجنيهات كل عام؟ أجل ما باله مهموماً وقد استطاع أن يلقي عن كاهله ذلك العبء الذي آده حملة زماناً، فلقد خرج من الدين الأهلي؟ يا ويح نفسه من هذا الهم الدفين الذي يتزايد منه على الأيام. . .

ليس غير السياسة يلقي بنفسه في غمرتها لتقوم أحداثها بين نفسه وبين همومها. ليس غير السياسة تشغله عن وساوسه وتباعد بينه وبين امرأته التي ما برحت تتغصه وتضايقه في غير موجب

إن زوجه تعيش اليوم من وراء كده في رغد؛ فهو يلقي إليها كل ما تصل إليه يده لا يسألها إلا أن تدفع له ثمن ما يطلب من الأشياء وهي قليلة؛ وما كانت له بالمال حاجة وهو الذي لا يعرف أبهة المظهر ولا تغتره شهوات الحياة. حسبه من المال ما يسد به رمقه ويستر به جسده، وأمر ذلك موكول إلى

امراته؛ ثم ما يفرج به الكرب عن بعض المساكين وهو يفعل ذلك في كثير من الأحيان على كره منها. أما هي فلا ترضى بغير فراهة المظهر وأناقة المنظر؛ تروح وتغدو في مركبة هي اليوم بعض ما تملك، وما رأى الناس زوجها في تلك المركبة قط؛ وتلبس من الثياب ما تحكي به أهل باريس، وتقتني من الأثاث ما تدل به على كثير من الزوجات. . . تفعل ذلك وإن كان زوجها ليطلع على الناس في حلل تطاول عليها العهد وقبعة متضعضة متغضنة؛ على أنها تراه في ذلك هو الملووم، فهي ما زالت تهيب به أن يغير من عاداته وأن يعنى بهندامه، وهو لا يحفل إلا النظافة، حتى أنها لم تجد بداً آخر الأمر من أن تسكت وهي كارهة. . .

ولقد كان يهرب من المنزل أكثر الوقت، فيقضي النهار كله في محل عمله أو يقضي طرفاً من في أنحاء المدينة في بعض المنتديات أو في بعض الحوانيت، يتحدث إلى هذا ويسأل ذاك عن حاله، ويستشير هؤلاء في أمر قضائي، ويعقد غيرهم حوله حلقة يتساقطون فيها الحديث، ثم يعود إلى منزله فيمضي الوقت في القراءة أو في ملاعبة أولاده؛ وإنه ليحذر في هذه الملاعبة أن تدخل زوجه الحجرة فجأة فتراه يركبون ظهره وهو يزحف بهم على البساط، فتصرخ وتعكر عليهم صفوفهم!

عجيب أمر تلك المرأة التي تحب بعلمها وتعلي قدره ثم هي لا تفتأ تمد له من أسباب الشحناء والشقاق ما يخيّل إليه أنها تبغضه، لولا أنه يعتقد أنها ما اختارته زوجاً - على الرغم مما وقع يومئذ منه في حقها - إلا لما تضرر من محبته والإعجاب به. . .

دخلت عليه مرة ومعه رجل من أصحابه، فسألته عن أمر كانت طلبت إليه قضاءه، فلما علمت أنه لم يقضه عنفته وولت محنقة فجذبت الباب وراءها فأحدث ضجة مزعجة؛ ونظر لنكولن إلى صاحبه وقد قرأ في وجهه الدهش،

فقال وهو يبتسم ليخفي بابتسامته ما به: إن الأمر هين، وإن هذه عادة امرأته مردها إلى حدة مزاجها ولن يكرهه ما فعلت بالباب فلعله يكفكف من حدثها

هذا طرف من حياة لنكولن في سبرنجفيلد بعد أن عاد من وشنجطون، وبعد أن انتهت الدورة الثامنة لطواف الهيئة القضائية في تلك الأصقاع؛ وإنه ليتطلب مخرجاً من هذه المدينة وما كان له من مخرج إلا أن تستثيره السياسة من جديد. . .

وآن للسياسة أن تدعوه إليها، وقد ر لتلك الدعوة أن تجئ عن معضلة العبيد، فلقد باتت تلك المعضلة وهي كبرى المسائل القومية لا مناص من مواجهتها إذ صارت تحمل في تضاعيفها كل ما عداها من المسائل

ازداد ثراء أهل الشمال بسبب الصناعة، واتسع نطاق التعليم عندهم، وقوي نفوذهم وتسامت إلى الحياة نظرتهم، لذلك شاعت في الشمال حركة الدعوة إلى تحرير العبيد وتعالّت أصوات الداعين واشتدت على الأخص حركة المنادين بالآ يسمح بعد بانتشار العبيد في ولايات جديدة

وبقى أهل الجنوب أهل كسل وخمول، لا تزال حياتهم تقوم على الزراعة، والزراعة عندهم تقوم على أيدي العبيد، وازداد طلب القطن فاشتدت الحاجة إلى العبيد؛ لذلك ازدادت في الجنوب حركة التمسك بالعبيد، واشتدت على الأخص حركة المنادين بوجوب السماح للعبيد بالانتشار فيما عساه أن يضم إلى الاتحاد من ولايات

وماذا يخيف أهل الشمال من انتشار العبيد؟ إن للمسألة وجهاً آخر إلى جانب الوجوه الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية، وجهاً لا يقل خطره إن لم يزد عن هاتيك الوجوه؛ وذلك أن التمثيل النيابي في أحد مجلسي الاتحاد، وهو المجلس الأدنى، كان قائماً كما رسم الدستور على قاعدة لمسألة العبيد فيها دخل كبير؛ وذلك أن كل ولاية كانت ترسل إلى ذلك المجلس من الممثلين عدداً يصغر أو يكبر حسب عدد سكانها. ومن عجب الأمور أن العبيد، ولم يكن لهم حق في

شيء حتى في أنفسهم، قد أقيم لهم وزن في هذا الباب فقيس عدد السكان في الولايات بما يقطنها من بيض وعبيد على أن يعد كل خمس من العبيد بثلاثة من البيض؛ ومعنى هذا أن انتشار العبيد يزيد عدد ممثلي الولايات الجنوبية في المجلس الأدنى للاتحاد؛ أما في المجلس الأعلى (مجلس الشيوخ) فكان يمثل كل ولاية عضوان صغرت تلك الولاية أو كبرت. . .

ولقد كان أهل الشمال في الأصل أكثر عدداً من أهل الجنوب فكانت لهم بذلك أغلبية في المجلس ولكنها كانت أغلبية صغيرة؛ ولقد أخذ عددهم يزداد كما ذكرنا فظلت لهم الغلبة؛ ولكن أهل الجنوب يريدونها أن تكون لهم ولن يتسنى لهم ذلك إلا بانتشار العبيد

لذلك نرى أن معضلة العبيد كبرى المعضلات وأنها ناجمة من عوامل أساسية ترجع إلى كيان الاتحاد نفسه ولمن تكون السيطرة فيه: لأهل الشمال أم لأهل الجنوب؟ وهما قسمان متباينان مزقت بينهما عوامل البيئة، هذا إلى ما في المعضلة من عناصر خلقية إنسانية لها نصيبها من الخطر والاعتبار

ولما تقدمت بالاتحاد السنون أصبحت مسألة العبيد بحيث أن أدنى اضطراب فيها يؤدي إلى زلزلة في هيكل الاتحاد كله! ولقد فطن قادة الرأي إلى ذلك من أمر بعيد، وذلك حينما انضمت ولاية جديدة هي ولاية مسُوري إلى الاتحاد عام ١٨٢٠ ولنكون يومئذ في الثانية عشرة، فلقد أصدر المجلس قراراً خطير الشأن عرف باسم (اتفاق مسُوري)، ومؤداه أنه لا يسمح بانتشار العبيد شمال خط عرض ٣٦ أعني أن هذا الخط يفصل بين الولايات التي يسمح فيها بنظام العبيد والولايات التي يحظر فيها ذلك النظام

منذ ذلك اليوم يعمل الساسة على توطيد هذا الاتفاق وكان من أكبر الداعين إلى مراعاته دوجلاس ذلك الذي رأيناه منذ أعوام يجلس إلى جانب لنكونل نائباً في مجلس مقاطعة ألينوس. ومما يذكر له في هذا الصدد قوله: (إن هذا الاتفاق أبدي وجوهري)

ولقد رأينا فيما سلف كيف كان دوجلاس ينافس ابراهام وهو يمد عينيه إلى الهدف، ورأينا كيف كان يأخذ الطريق على منافسه في كل شيء. وهاهو ذا اليوم وله في الحزب الديمقراطي مركز الصدارة، يرج البلاد رجة عنيفة بخطوة جريئة من خطواته

طلبت ولاية واسعة في الشمال الغربي هي ولاية نبراس كنسيكا إلى الاتحاد أن يضمها إليه، فسرعان ما عادت مسألة العبيد إلى الظهور كما عادت من قبل في عدة حوادث وآخرها أخذ تكساس من المكسيك

عادت المشكلة وتفاقت، فهذه الولاية تقع شمال خط عرض ٣٦ ومع ذلك قام رجال الحزب الديمقراطي يدعون إلى جعلها ولاية من ولايات العبيد! ولا تسئل عما قام في الشمال إزاء ذلك من هياج وغضب ونفور، وهنا يخطو دوجلاس خطواته فيعلن أن قيام العبيد في ولاية أو عدم قيامهم أمر يجب أن يترك الخيار فيه إلى الولاية نفسها ولا عبرة بعد ذلك برأي مجلس الاتحاد. بذل دوجلاس كل ما في وسعه وهو يومئذ عضو في مجلس الشيوخ حتى أصدر المجلس قراراً بذلك، على الرغم من اتفاق مسؤوري وعلى الرغم من تصايح أهل الشمال وانزعاجهم

وسرت في الشمال موجة من الهياج والسخط لن يصفها كلام؛ ورأى كل من له حظ من الفكر أن هذا القرار الذي بذل دوجلاس ما في وسعه لاستصداره هو الجمرة التي سوف تتوهج بعد حين فتندلع منها نيران الحرب الأهلية. ولقد كانت هذه الخطوة من جانب دوجلاس، وما أعقبها من حوادث، سبباً في عودت لنكولن كره أخرى إلى ميدان السياسة وقام بين الرجلين من جديد جلاذ وصراع

وما كان دوجلاس ليعجز عن أن يبرر عمله أو أن يتلمس له الأوجه القانونية؛ وإذا عجز دوجلاس عن هذا فمن يقدر عليه؟ وإنه لأعلم الناس يومئذ بالأعيب السياسة وأضاليلها، يصدر في ذلك عن طبع وعن خبرة ويسدد الرمية في لباقة وخفة. .

ولم يكن اهتمام دوجلاس بتلك المسألة إلا جزءاً من خطته التي رسمها وأراد أن يدلف بها إلى الغاية التي لا يرى دونها غاية؛ وهو يتحرق شوقاً إليها ويتقطع تلهفاً عليها؛ ولا يفتأ يتبين السبيل المؤدية مهما كانت وعورة مسالكها. والآن تسنح الفرصة فيقتنصها وهو باقتناص الفرص جد خبير. موه على الناس أنه يمكن لسلطان الأمة إذ يرد مسألة العبيد إلى رأي الأمة، وأنه بذلك يجعل كلمة الشعب هي العليا لا كلمة مجلس الاتحاد. وهو إنما يرمي إلى كسب قلوب أهل الجنوب الذين كانوا من أول الأمر ترون أن يكون لكل ولاية من الحرية ما لا تتلاشى معه شخصيتها في الاتحاد، والذين يريدون أن يتخلصوا اليوم من قيود اتفاق ميسوري. . .

وإننا لنلمح فيما فعل دوجلاس مهارة الرمية، كما نلمح فيما يقول حذق السياسي وفكره وسعة حيلته. وكم في الحياة له من نظراء ممن يأخذون في سياستهم بآراء أستاذهم الأكبر مكيافلي لا يحيدون عنها ولا يفوتهم شيء من تفاصيلها ودقائقها كأنما عاد أستاذهم نفسه يصرفهم ويوجههم؛ ولقد برع دوجلاس في هذا المضممار فإنه يجعل الغاية هي عنده كل شيء ولا عبرة بعد ذلك بالوسيلة. وهل كان مثله من السذاجة والبساطة بحيث يتمسك بشرف الوسيلة ويرعى جانب الفضيلة فيؤدي بذلك إلى فوات الفرص وضياع الغاية؟ كلا إنما كان هو أقوى من أن يتطرق إليه مثل هذا الضعف وأدكى من أن تنظلي عليه مثل هذه البلاهة

ولكن لنكولن لا يعرف المراوغة؛ ولا يدري ما الالتواء. فهل له طاقة بمناضلة ذلك القزم الماكر المخاتل؟ وماذا يجدي على أبراهام طوله والمسألة

اليوم مسألة مدافعة ومقارعة، وليست هي مسألة مكافحة ومصارعة، كما كان الحال يوم لف ذراعه الطويلة حول أرمسترنج وألقي به على الأرض؟. . . إن الفرق بين الرجلين هو الفرق بي الطبيعتين، فهذا مكر محتال غامض كالبهر، وذلك بسيط ساذج صريح كوجه السهل. . .

خطا دوجلاس خطوته وحمل المجلس على الأخذ برأيه فترك لهل كنساس أن يختاروا ما تكون عليه ولا يتهم إذا ضمت إلى الاتحاد؛ وجرى الانتخاب التمثيلي فيها على أساس التسليم بمبدأ العبيد أو رفضه؛ ولو أنه تركت الولاية وشأنها حقاً لهان خطب ذلك الانتخاب ولمر دون أن يعقب ضرراً، ولكن كثيرين من أنصار التحرير ومن المنادين بمقاومة انتشار العبيد من أهل الشمال هاجروا إلى تلك الولاية ليشتركوا في الانتخاب، كما هاجر إليها كذلك عدد عظيم من أهل الجنوب وفي أيديهم أسلحتهم. والتقى الفريقان هناك وبينهما من البغضاء والشحناء ما أوقد نار الحرب وذلك أن أهل الجنوب قد حالوا بقوة السلاح بين خصومهم وبين ما يخوله لهم القانون من التصويت ففاز بالغلبة رجل من أنصار اعتناق العبيد؛ ولكن أهل الولاية ومناصريهم من أهل الشمال احتشدوا في مكان آخر واختاروا رجلاً من دعاة التحرير، فقامت لذلك الحرب بين الحزبين ولبثت نارها مشبوبة بينهما زهاء عامين. وفطن الناس إلى أن هذه الحرب إنما هي مقدمة الحرب الأهلية الكبرى

انتهت في تلك الأثناء مدة مجلس الشيوخ، وانصرف الأعضاء إلى البلاد يدعون لأنفسهم من جديد؛ وكان دوجلاس نائباً عن شيكاغو في شمال إلينوس، فذهب إلى هناك يدعو لنفسه، ولكن هاله ما رآه من انصراف الناس عنه، فهو أينما تولى يجد من الناس نفوراً وإعراضاً بل إنهم كانوا يجبهونه بالسوء من القول ويظهرون له ما باتوا يضمرونه من حقد ومقت.

وإنه ليجزع ويستولي عليه الحنق إذ يرى الرايات في شيكاغو منكسة في هامات السفن، ويرى الجدران وعليها عبارات صارخة تلذع قلبه، ويسمع

النواقيس تجلجل في الجو في نغمة حزينة كأنما أصبحت المدينة في مأتم شعبي وهو يحاول أن يخطب الناس وهم يرددون في وجهه ويسلقونه بالسنة حداد، حتى يرغموه على الرحيل وقد امتلأ قلبه عليهم غيظاً كما امتلأ منهم كمداً.

وينتهي به المسير إلى سبرنجفيلد ولو كان يعلم الغيب لتحول عنها، ففي تلك المدينة سيأفل نجمه وسيبعد ما بينه وبين غايته. وكانت المدينة يوم وصوله إليها تموج بالناس إذ كانت في موسم سوق من أكبر أسواق الزراعة. ولقد خيل إليه أن له في وجود هذا الجمع الحاشد فرصة. . .

وكان حزب الهوجز يومئذ في الشمال في أخريات خطواته إلى الفناء؛ بينما كان يولد حزب آخر سيأخذ عما قريب مكانه هو الحزب الجمهوري؛ وكان لنكولن هو الرجل الذي اتجهت إليه أنظار أهل المدينة ليكون لسانهم في الحزب الجديد. لهذا ولما اشتهر به بينهم من خلال أكبروها، ولم يجدوا من هو أقدر منه على مدافعة دوجلاس؛ وهكذا التقى الرجلان من جديد في عراق عنيف ولم يلتقيا منذ كانا نائبين في مجلس المقاطعة

وقف دوجلاس يخطب، وكان وهو في صغر جرمه قزم أو كالفزم، مارداً جباراً برأسه الضخم ولسانه الذي لا يقف، ونشاطه الذي لا يفتر، ودهاؤه الذي لن ينخلع عنه، ومهارته التي لا تغيب ولا تتخلف مهما تعقد الموقف، والتوت مذاهب الكلام

ولقد كان دوجلاس في الحق من أقوى الرجال في عصره إن لم يكن أشد منهم جميعاً قوة، وكان الحزب الديموقراطي يباهي به ويفخر وهو يعتقد أن لم يبق بينه وبين كرسي الرئاسة إلا خطوات مع أنه لم يكن قد خطا الأربعين بعد.

أخذ يخطب ويدافع عن رأيه في حماسة وكياسة وإنه ليشعر أنه يطلق آخر سهم في كنانته! وكان محور دفاعه أنه يعمل على توطيد سلطة الشعب: وكانت العبارات معسولة والحجج تلقى في روع السامعين أن لا سبيل إلى رفضها إذ لم يكن ثمة من سبيل إلى نقضها

وجاء دور لنكولن في اليوم التالي، واحتشد الناس ليروا ما عساه أن يقول في الرد على هذا الداهية، ووقف إن الإحراج يقابل الدهاء بالصراحة، والمكر بالصدق، والغرض بالإخلاص، والمرادغة باليقين، والباطل بالحق، والدليل الأعرج بالمنطق الأبلج، ومن وراء هذا كله عبقرية دونها كل تأهب بل وكل كفاية، واستمع الناس إليه ثلاث ساعات وبعض الساعة ومنافسه يعرض على نواجذه وينقم على تلك الأقدار التي ألفت به بين برائن ابن الغاية. . .

بدأ خطابه بقوله أنه لا يتوخى إلا الحق ولا رائد له إلا الصدق، فإذا أحس مستر دوجلاس خطأ فإنه ليسره أن يرده لساعته إلى الصواب. ولقد استغل دوجلاس هذا الحق وجعل يقاطعه بين حين وحين ليلويه عن قصده ولبس عليه الأمر حتى ضاق لنكولن بتلك المقاطعة فصاح قائلاً: أيها السادة! إنني لا أستطيع أن أنفق وقتي في مساجلات، وعلى ذلك فإني آخذ على نفسي المسؤولية أن أحق الحق وحدي فأعفي بذلك القاضي دوجلاس ضرورة تلك التصحيحات العنيفة). . . وأخذ بعدها يتكلم والأبصار شاخصة إليه والسكون شامل مع شدة ازدحام المكان، والخطيب المرتجل لا يعرف اضطراباً ولا اعوجاجاً، يهدر كالسيل لا يصرفه عائق عن وجهه، وكأنما كان ينطق عن وحي، فما سمعه الناس من قبل يقول مثل هذا الكلام ولا رأوه يبين مثل هذه الابانة؛ وهو في حركاته وإشاراته ونبرات صوته موفق توفيقاً ما شهد الناس مثله من قبل

وفرغ من خطابه وهو في قلوب قومه أرفع قدراً وأكثر محبة عما كان ومنافسه مبتئس زائغ البصر، موزع الفؤاد بين كلمات الاستحسان تنتثر على صاحبه كما ينثر الزهر وكلمات الاستهجان تصوب إليه كما تصوب السهام. . . ونظر فإذا هو بما أدلى من حجج كالعنكبوت اتخذت بيتاً، ولم يبق في قلوب الناس من أثر لما رده من عبارات معسولة تدور حول سلطة الأمة، إذ لم يترك له ابراهام دليلاً إلا سفهه وأظهر للناس ما يقوم عليه من بهرج وما يستتر

وراءه من طلاء. وبهذه الخطبة فتح لنكولن فصلاً جديداً في تاريخ حياته وقطع شوطاً كبيراً عوض عليه ما فات من ركود. . .

ومهما يكن من تفوقه ونباهة شأنه في هذه الخطبة، فإننا نستطيع أن نعود بالسبب إلى حد كبير - على صفاته الأساسية التي فطر عليها، وفي مقدمتها تبين ما يعرض له والنفاذ إلى جوهره ثم الاستعانة بذلك على توضيح ما يريد أن يقول في يسر وبساطة ومع توخي الصدق والأمانة كما يفعل حين ينهض في المحكمة للدفاع، هذا إلى لقائه عجيبة يميز بها في سرعة الصواب من الخطأ والحق من الباطل، وذهن منطقي كأنه الميزان الدقيق يحس قبل أن يدرك أن هذا عليه مسحة الشك وذلك عليه نور اليقين

قال يرد على دوجلاس قوله أن من الامتحان لأهل كنسكا أن نعتبرهم غير جديرين بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، (إني أسلم أن المهاجر إلى لنساس وبزاسكا جدير أن يحكم نفسه ولكني أنكر عليه الحق في أن يحكم شخصا آخر بغير رضاء ذلك الشخص) ولقد كانت عبارته هذه كالرمية القاتلة فهي تهدم ما بنى دوجلاس من أساسه ولا تدع لمبدأ سلطة الأمة الذي نادى به أي قيمة. وقال في رده على دوجلاس إذ يدعي أن الحكومة إنما أقيمت لصالح البيض لا لصالح الزنوج (إني أوافق على ذلك من حيث الواقع في ذاته، ولكنني أرى في هذه الملاحظة التي ساقها القاضي دوجلاس معنى هو عندي مفتاح تلك الغلطة الكبرى (إن كان ثمة من غلطة كهذه) التي فعلها في قرار نبراسكا؛ إنها تدل على أن القاضي لا يقوم في ذهنه مؤثر حي يريه أن الزنوج إنما هو إنسان وعلى ذلك فليست تقوم في رأسه فكرة عن ضرورة وجود العنصر الخلفي عند التشريع له). . .

وبعد الخطبة وقف دوجلاس ليرد ولكن مذاهب القول التوت عليه وخانته بديته فجعل بينه وبين الناس موعداً في المساء لا يخلفه، وحل المساء وارتقب الناس ولكنهم لم يجدوا الخطيب. . .

وبعد ذلك باثني عشر يوماً ذهب لنكولن ليخطب في بلدة أخرى هي بيوريا؛ ولقد تبعه دوجلاس إلى هناك لعله أن يظفر هذه المرة. ولم يرتجل لنكولن كما ارتجل في سير نجفيلد بل قرأ من أوراق؛ ويشهد الذين سمعوه في المرتين أنه كان يوم ارتجل أعظم شأنًا وأبعد أثراً؛ أجل كانت خطبته الثانية أحسن بناءً وأحكم نسجاً وأقوى منطقاً ولكنها لم تكن أكثر سحراً. . .

ولقد بدأ دوجلاس في بيوريا كما بدأ في سير نجفيلد واستمر يخطب ساعات ثلاثاً، ورد لنكولن في المساء فاستغرق خطابه مثل هذا الزمن. ومما جاء فيه قوله عن قرار بنراسكا (إن هذا القرار يعلن الحياد ولكنه يضر حماساً حقيقية لانتشار العبيد لا يسعني إلا أن أمقتها، لما تنطوي عليه العبودية في ذاتها من جور قبيح، وأمقتها لأنها تسلب نظامنا الجمهوري الذي نسوقه للعالم مثلاً من أثره الحق في الدنيا، وأمقتها على الأخص لأنها تدفع كثيراً من رجالنا الأخيار إلى حرب صريحة ضد المبادئ الأساسية للحرية المدنية، وهم يوجهون انتقادهم إلى إعلان الاستقلال ويصرون على اعتقادهم أنه ليس ثمة من مبدأ حق تقوم عليه أعمالنا وأنه ليس إلا المصلحة الشخصية) وقال في معرض آخر: (إن مبدأ حكم الشعب نفسه مبدأ صحيح؛ هو مبدأ صحيح دون أدنى شك وهو إلى الأبد صحيح. . ولكن إذا كان الزنجي رجلاً، ألسنا - بقدر ما في المبدأ من صحة - نرى أننا إذا حرمانه من أن يحكم نفسه إنما نحطم بذلك مبدأ سيادة الشعب؟ حينما يحكم الرجل الأبيض نفسه يكون ذلك مبدأ سيادة الشعب، ولكنه حينما يحكم نفسه ويحكم في الوقت ذاته رجلاً آخر فإن ذلك يكون أكثر من سيادة الشعب فهو الاستبداد. . ليس في الناس من يتوفر لديه الخير ليحكم غيره دون رضاء ذلك الغير، هذا هو المبدأ الأول والمرفأ الأمين للنظام الجمهوري (الأميركي).

ذلك منطق ابن الغابة وتلك آياته وهو الذي نشأ كما رأينا عصامياً في أوسع
معنى لتلك الكلمة! إنما يصد الرجل عن طبع ويترجم عن فطرة مثله في ذلك
مثل غيره من أعلام البشر وقادة القافلة في طريق الإنسانية. . .

والحق أن مسألة العبيد تزداد تعقيدا كلما تقدمت الأيام؛ ولكن ابراهام لم يكن الرجل الذي يضل السبيل إذا تعقدت من حوله مسالكها. رأى بنافذ بصيرته أن السماح بانتشار العبيد وراء الحد الفاصل معناه سيادة أهل الجنوب وبقاء نظام العبيد إلى أمد بعيد؛ ورأى كذلك أن الدعوة إلى التحرير تؤدي لا محالة إذا اشتدت إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فينهار البناء، وتعصف بالوحدة القومية الأنواء. إذا فليتأمل وليحذر وليتربص ما تأتي به الأيام. . .

انصرف دوجلاس ولكنه قبل أن ينصرف أبى إلا أن يأتي ما يدل على طبعه، فلقد نقض العهد وألقى بعد يومين خطاباً جديداً حاول فيه أن يدافع عن آرائه، ولم يستطع لنكونن إلا أن يظل عند كلمته، فأبى أن يتكلم وقد جعل بينه وبين خصمه ميثاقاً أن يقطعاً حبل الجدل.

ولقد كان لانتصار لنكونن على دوجلاس العظيم ذلك السياسي الملحوظ المكانة أثر بعيد في حياة ابن الغابة قاطع الأخشاب بالأمس وعامل البريد، وفتى الحانوت البائس الفقير؛ ذلك أنه ازداد ثقة بنفسه فاخذ يشدد طموحه ويمتد بصره؛ وازدادت كذلك ثقة الناس فيه واشتد إعجابهم به واطمئنأنهم إلى مقدرته وجدارته.

ولذلك نراه يخطو خطوة جديدة في مضمار السياسة فيطمع أن ينتخب عضواً لمجلس الشيوخ ويأمل بذلك أن يعود إلى وشنجطون. وهل كان يرى نفسه دون دوجلاس مقدرة ومكانة وهو قاهره على أعين الناس في أمر له عند الناس خطره؟ ولقد انتخب أول الأمر عضواً في مجلس المقاطعة ولكنه ما لبث أن استقال منه واخذ يدعو لنفسه ليختار عضواً في مجلس الشيوخ للولايات. . . وكان منافسه في هذا شيلدرز، ذلك الرجل الذي تحداه من قبل إلى مبارزة بالسيف لما كتبه لنكونن عنه في إحدى الصحف وعده هو إهانة له.

وكان الذين ينتخبون عضو مجلس الشيوخ هم أعضاء مجلس المقاطعة، وكان المجلس يومئذ يجمع أنماطاً من الرجال فرقت بينهم الأهواء وباعدت

الآراء، ففيهم بقايا حزب الهوجز الذين يمقتون التطرف، وفيهم الديمقراطيون أنصار مبدأ العبيد، وفيهم المعارضون لقرار نبراسكا، وفيهم غير هؤلاء وهؤلاء ممن تتذبذب سياستهم حسب ما يقوم في رؤوسهم من الآراء في مسألة العبيد.

وكان يظفر أبراهام بما يتوق إليه وبما باتت زوجته تمنى النفس به لولا أن دعا الديمقراطيون في اللحظة الأخيرة إلى رجل غير لنكولن ومناقسته؛ وعندئذ أشار لنكولن على نصرائه أن يمنحوا هذا الرجل الجديد أصواتهم ليفوت الأمر على منافسه الأول إذ كان هذا من أصحاب دوجلاس بينما الآخر ممن يعارضون قرار نبراسكا؛ وهكذا يذوق لنكولن مرارة الفشل من جديد!

ولكن الفشل هذه المرة لم يبلغ من نفسه ما كان يبلغه في الأيام السالفة، فهو اليوم مطمئن إلى نصيبه من رضاء الناس وإلى حظه من الصيت والنفوذ. لقد قابل الأمر بدون اكتراث لولا ما أظهرته زوجته من غضب وحنق، على أنها ما لبثت أن رضيت وسكنت ثورتها، ذلك أنها كانت تكاد ترى رأى العين ما ينتظر زوجها من مستقبل عظيم. . .

ولم يصرفه الفشل عن السياسة كما كان عسّياً أن يفعل في ظروف غير هذه؛ فلقد عرف أن فشله يومئذ إنما يرجع إلى أسباب لا يستخذي لها، ومن أهم تلك الأسباب ما فعله دعاة التحرير، فلقد حشروا اسم لنكولن على غير علم منه في معضديهم وراحوا يباهون به الأحزاب؛ ولقد أدى هذا إلى انزعاج كثير من الديمقراطيين إذ حسبوه قد مال إلى الطفرة في مشكلة العبيد، كذلك أنكر الهوجز عليه أن ينحرف عن سياسته القائمة على الحذر، ولقد كانوا يحبون منه اكتفاءه بمقاومة انتشار العبيد، أما أن يميل إلى التحرير فجأة فيعمل مع المتطرفين على القضاء على الاتحاد فذلك ما لا يقبلونه منه؛ وهكذا اخذ على الرجال ما لم يجنه فأصابه من الخذلان ما أصابه. . .

لا جرم انه اليوم رجل سياسة اكثر منه رجل محاماة، ولا جرم أن معضلة العبيد قد صار لها المكان الأول من همه فهو لن يرجع حتى ينفس عن صدره بما يفعل في هذه المعضلة التي صارت المحور الذي تدور عليه سياسة الاتحاد، والعقدة التي يتوقف على حلها مصير البلاد؛ وإننا لنرى فيه الرجل الذي يتطلبه الموقف شأنه في ذلك كغيره من عظماء الرجال الذين يظهرون في فترات الزمن ليتم بهم للتاريخ وسيلة تحركه، إذ يصبح لديه الرجل العظيم والفكرة العظيمة، فما أن يتمثل العظيم الفكرة ويمزجها بنفسه حتى يقدم لا يلويه شيء عن الغاية فيضل أو يهلك دونها وبذر البقية لمن يليه. . .

على أنه كان في سنه يومئذ قد وصل من المحاماة إلى أوج الشهرة، فكان وهو في السابعة والأربعين الرجل الذي يظفر في مهنته بأطباق الناس على توقيره وإجماعهم على التسليم له بالنبوغ وطول الباع وسعة الخبرة، هذا إلى ما انفرد به من سجايا جعلته بينهم وكأنه أكثر من أن يكون منهم! . . .

وتوافقت له فيما توافى من أسباب العظمة تلك الخصلة التي لا تقوم عظمة بدونها؛ والتي تجعل العظيم يظهر بين الناس وفيه شيء يحملهم على إكباره طائعين أو كارهين؛ شيء يحسونه وإن كان أكثرهم يجهلونه، شيء مبعثه ذلك السر العجيب الذي نعبر عنه بقولنا روح الرجل العظيم والذي يسميه بعض الناس الحماسة ويسميه بعضهم الإخلاص ويسميه آخرون الأيمان والذي هو في الحق مزيج من هذا كله لا ندري كيف يتم، مزيج ينبض به قلب العظيم ويجري في نفسه جريان الدم في عروقه. . . ومن الناس من وهبوا الذكاء الحاد والمهارة الفائقة ولكنهم حرموا تلك الخصلة فما استطاعوا في أعمالهم أن يرقوا بأنفسهم إلى مستوى أعلى من مستوى غيرهم؛ ومنهم من لم يعظم ذكائهم ولكن يمس قلوبهم قبس من ذلك السر العجيب فإذا هم غير الناس، ثم إذا هم فوق الناس. . . ومن هؤلاء نفر ذلك الرجل الذي درج في الغابة والذي بنى نفسه فسار في الحياة على نهج من قلبه وعلى دليل من طبعه، ذلك الرجل الذي لا

يذكر لأحد عليه يدا والذي تنكرت له الأيام وعركته المحن فبقى كما يبقى
الجوهر الحر لا تترك فيه النار من اثر إلا البرهان القاطع على انه جوهر حر
لا مظهر. . .

وتشاء الأقدار أن تقوم عظمة أمريكا على كاهل رجلين من أبنائها درجاً في
مدرج الشعب وبرزا من صفوف العامة وهما جورج وشنجطون وأبراهام
لنكولن؛ أما أولهما فيرفع القواعد ويقيم الصرح، وأما الثاني فيمسكه أن ينهار؛
وتكون بذلك عظمة أمريكا عظمة ذات أصالة إذ لم تنشأ عن تقليد أو تستند إلى
مهرج من سلطان زائف، ويكون صرحها كالجبل الذي هو من أوتاد الأرض،
لا كالبناء الذي يقوم على أسس يجوز عليها أن تجتث من وفق الأرض. . .

ومضت الأيام تسير بابن الغابة سيراً معجلاً وثيقاً ليؤدي رسالته، ولعله
أشرف من حاضره على ما يعده له الغد القريب. اجل لعله أخذ يدرك أن مسألة
العبيد مفضية حتماً إلى خطوة واسعة يخطوها غداً فيحس بعدها أنه ترك في
تاريخ بلاده ما تذكره به الأجيال. أقرأ كتابه إلى صديقه سبيد تقع فيه على رأيه
وتتبين كثيراً مما كان يجول في نفسه، قال: (في عام ١٨٤١ قمنا معاً برحلة
مملة على صفحة ماء منخفض في قارب بخاري من لوسفيل إلى سان لويس،
ولعلك تذكر كما أذكر أنه كان على ظهر القارب عشرة أو اثنا عشر عبداً
مقرنين في الحديد. ولقد كان هذا المنظر مبعث عذاب مستمر لي، وإنني أبصر
شيئاً مثله كلما لمست نهر الأهايو أو أي جهة من جهات العبيد. وخلاف الجميل
منك يا صديقي أن ترى في أنني لا اهتم بالشيء الذي ينطوي على قوة تكربني
والذي لا يفتأ يسبب لي الكرب. لقد كنت حرباً أن تتبين إلى أي حد يقتل سواد
الناس في الشمال مشاعرهم حتى يستطيعوا أن يحتفظوا بولائهم للدستور
وللوحدة)

في هذه الكلمة القصيرة، ينجلي لنا رأيه في مسألة العبيد فهي مبعث ألم في
نفسه، ألم استقر فيها منذ القدم فما يبرحها، وهو على الرغم من هذا الألم

يحرص على الوحدة وعلى الدستور وفي ذلك تلخيص دقيق لمنهاجه الذي سيأخذ به نفسه حين يهيم أن يهوي بالضربة الحاسمة فهو ضنين بالوحدة أن تنزل كما هو حريص أن يمحو كل أثر للعبودية في البلاد. . .

لن يضيره اليوم ألا يصل إلى مقعد في مجلس الشيوخ بل ربما كان الشر في أن يظفر بهذا المقعد، فلقد كانت له بعد فشله جولات لها خطرهما في حياته، جولات تنتهي به حتماً إلى رئاسة الجمهورية فلم يبق ثمة على الدرب إلا مرحلة. . .

وكثيراً ما يبتئس المرء إذا فاته فرصة كأنما أغلقت بفواتها مسالك الفوز من دونه، وهو لا يدري أنه ربما كان الخير في فواتها! والحياة مليئة بالأمثال حافلة بالعبر؛ والعظماء وحدهم هم الذين لا يلويهم فوات الفرص وإن ابتأست لفواتها أحياناً نفوسهم، بل أنهم ليحمون على الشدائد ويستعرون على الكفاح ويستشعرون اللذة في النصر، كما يستشعرونها في ركوب الصعاب إلى ذلك النصر، ولن ينقص منها ما قد يصيبهم من خذلان.

ولقد كان لنكولن من هؤلاء البواسل الأفذاذ الذين لا يحفلون بالصعاب، والذين لا يحول بينهم وبين وجهتهم خذلان مهما عظم؛ بقي في سبر نجفيلد بعد فشله ليكون في المدينة زعيم الحزب الجديد الذي تستقبل البلاد مولده؛ وهل كان غيره تجتمع عليه القلوب والأهواء؟

كانت البلاد تستقبل حزباً جديداً هو الحزب الجمهوري؛ ولقد تألف هذا الحزب من عدة عناصر يجمع بينها حرصها على مقاومة انتشار العبيد حسب ما جاء في اتفاقية سوري، فكان ينتظم عدداً من الهوجز وعدداً من الديمقراطيين وجماعة من دعاة التحرير؛ وكان قيام هذا الحزب في تاريخ البلاد فاتحة فصل جديد كما كان في تاريخ لنكولن مبدأ عهد جديد.

وحدث أن كان مولد الحزب الجديد في نفس العام الذي كانت تختار البلاد فيه رئيساً جديداً للولايات، فكان النشاط السياسي بذلك مضاعفاً؛ وأحس الناس جميعاً أن مسألة العبيد قد أصبحت القطب الذي يدور عليه هذا النشاط السياسي فآلقوا بالهم إليها على نحو لم تسلف بمثله فترة في تاريخ البلاد

وعرف الحزب الجديد كما أسلفنا باسم الحزب الجمهوري؛ ولقد أخذ الداعون إلى إنشائه ينشرون الدعوة له في كل ولاية؛ وكان أول اجتماع أهلي لهذا الحزب عام ١٨٥٦ في مدينة فيلادلفيا؛ أما عن مذهب الحزب فقد اجتمع أيضاً مرة أول الأمر على فكرة نجمها في العمل على مقاومة انتشار العبيد كما جاء في اتفاقية مسوري؛ وكان هؤلاء الأنصار في الولايات أخلاطاً من الأحزاب الأخرى تراهم وإن اتفقوا على المذهب أو كادوا، لا يزالون مختلفين في الوسيلة.

ولم تك الينوس تلك الولاية التي ينتمي لنكونل إليها بدعاً من الولايات. ولقد دعا أنصار الحزب الجديد فيها إلى اجتماع تمهيدي يتدارسون فيه الأمر ويحددون الغاية ويسددون الوسيلة؛ وأنعقد هذا الاجتماع في مدينة ديكتاتور وشهده لنكونل فيمن شاهده من رجال السياسة المبرزين؛ وأدلى إليهم بما يرى، وفطن المجتمعون إلى سياسته التي لن يتحول عنها والتي تتلخص في أمرين: مقاومة انتشار العبيد والمحافظة على كيان الاتحاد. . .

ولكن لنكونل لا يزال من الوجهة الرسمية من رجال حزب الهوجز، فهو لم يعلن انفصاله عنهم بعد؛ فلما كان يومئذ في طواف قضائي وقد دعا أنصار الحزب الجديد في الينوس إلى مؤتمر عام يعقد في مدينة بلومنجن؛ ووضع صديقه هرندن اسمه في الداعين إلى المؤتمر دون أن يرجع إليه؛ فجاءه البرق بموافقته وبذلك أصبح إبراهيم عضواً في الحزب الجديد

واحتشد رجال هذا الحزب في بلومنجن لينظروا ماذا يرون؛ وتطلعت أنظار المؤتمرين إلى لنكونل وفي روع كل منهم أنه رجل الساعة وأنه ابن

بجدتها؛ وبدأ فقال لمن حوله: (دعونا نجعل حجر الزاوية في بناء حزبنا الجديد إعلان الاستقلال) وهو يريد بإعلان الاستقلال ذلك الحادث التاريخي الذي ظهرت به الولايات المتحدة كأمة مستقلة في هذا العالم؛ وكأنه يشير إلى ما يتضمن الاستقلال من معاني الوحدة والإخاء والحرية والمساواة، تلك المبادئ التي جعلها رجال الثورة شعار ثورتهم. . . وأصدر المؤتمر قرارهم فقالوا: (أجمعنا أمرنا على أننا نعتقد وفق آراء وتجارب جميع رجال السياسة المبرزين من كافة الأحزاب في السنوات الستين الأولى للحكومة، أن المؤتمر في ظل الدستور يملك السلطة التامة ليوقف انتشار العبيد في الولايات؛ وأنه كما سيحرص على كافة الحقوق الدستورية لأهل الجنوب، نعتقد أيضاً أن العدالة والإنسانية ومبادئ الحرية كما نص عليها في إعلان استقلالنا وفي دستورنا القومي وما نتوخاه لحكومتنا من نقاء ودوام؛ كل أولئك يستدعي أن يكون تنفيذ السلطة بحيث يمنع انتشار العبيد في الولايات التي تعد حرة لحد الآن)

وإننا لنرى سياسة لنكون واضحة تمام الوضوح في هذا القرار الذي أعلنه المؤتمر؛ وفي ذلك الدليل على أنه كان غداة المؤتمر الرجل الذي ينبض بمبادئه كل قلب ويتحرك باسمه كل لسان! ونحن إذا نظرنا إلى مبادئ الحزب الوليد في جميع الولايات نجدها لا تختلف كثيراً عما جاء في قرار رجال اليونس، وبعبارة أخرى نجدها لا تختلف كثيراً عما يرى لنكون، وفي ذلك دليل آخر على عبقرية الرجل وعلى أصالته.

ونظر إبراهيم إلى المؤتمر فإذا رجاله على اتحادهم في الغاية، يختلفون في الوسيلة التي تتحقق لهم بها تلك الغاية وأذاهم باعتبار ما سلف، فئات متباينة آراؤها؛ وإنه ليخشى الخلف في الوسيلة إلى ضياع الغاية، بل إلى طمس صوى الطريق وركوب الظلام وفي ذلك سوء المنقلب؛ وإنه ليتحرق شوقاً أن يرى هؤلاء القوم وقد اجتمعت على الوسيلة كلمتهم كما اجتمعت على الغاية؛ إنهم

إذا لفائزون، وإن لهم بذلك لبأساً يهون كل أمر عسير، ثم إنهم لخطب فادح لا يطيقه المتمسكون بالعبيد من أهل الجنوب

وكانما أحس المجتمعون بما أحس، وإلا فماذا دعاهم أن يهتفوا به؟ لقد تجاوزت باسمه جنبات المجتمع، فراح الرجال يتصايحون لنكولن. . . لنكولن. . . نريد أن نسمع لنكولن! وما كان له أن يتخلف وهو الخطيب الذي تهيب به مثل هاتيك المواقف وتواتيه عبقريته كلما أحست نفسه جلال الحادثات! لذلك ما لبث أن وثب من مكانه ووقف فيهم وقفة الخطيب وهو لا يدري ماذا يقول. وسكتت الأصوات بعد جلبة، وأستقر الرجال بعد أن كان بعضهم من فرط السرور والحماسة يموج في بعض. . .

وقف الخطيب أول الأمر صامتاً كأنما أغلقت من دونه مسالك القول؛ والناس ينظرون إلى قوامه السمهري وقد مال برأسه إلى الخلف وبرز ب صدره إلى الأمام، والتمعت عيناه وتشكلت أساريه فبدت في مظهر يقصر عن وضعه معنى الجمال. وصفه أحد الحاضرين فقال: (كان في تلك اللحظة أوجه من رأت عيناى أبداً)

وتكلم فإذا المستمعون كأنهم رجل واحد، لا فرق بينه ولا اختلاف، وقد سرت إليهم من الخطيب موجة قوية من السحر! وسرى إليه منهم تيار شديد من الحماسة؛ وهو يرسل فيهم القول يجمع بين العاطفة تهز المشاعر، والحجة تبهر العقول، والأمثلة تبهج النفوس؛ وكانت تشتد العاطفة حيناً فتفيض عيون، ويلتحم الدليل أونة فتصفق الأكف وتنطلق بالهتاف الحناجر، ويروق المثال وتملح النكتة بين هذا وذاك فتجلجل الأفواه بالضحكات. . . والخطيب يلعب بالأفئدة ويستهوئ المشاعر ويستمر لا يفتر حماسه، ولا يكل منطقه، ولا يضعف صوته، والسامعون مأخوذون عن أنفسهم بما يقول حتى لقد ألقى مندوبو الصحف أقلامهم وأقبلوا بعقولهم وقلوبهم عليه يحرصون ألا تفوتهم كلمة من هذا السحر الحلال. . .

ذلك ابن الغاب قاطع الأخشاب! ذلك هدية الأحرار إلى عالم المدنية؛ كأنما قد هيأته الأقدار لرسالته فبعثته من موطنه قوياً قوة الطبيعة واضحاً كالشمس لا يحجبها غيم، ولكن أودعت في نفسه سرّاً عميقاً تحس لديه بما تحس به إذا وقفت في مدخل الغابة

أوضح في خطابه سياسته فلم يترك مجالاً للبس أو شك؛ وكان إلى التحذير والإنذار أقرب منه إلى التفاؤل والتمني؛ حذر الناس أن يشتموا فيؤدي شططهم إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فإنه ليحس في الجو ما يسبق العاصفة، وأنذرهم أن يتهاونوا أو يتخاذلوا فتذهب ريحهم وتضيع أصواتهم بدياً؛ وهو في كل ما يزجي من القول صريح كأعظم ما تكون الصراحة، واضح كأتم ما يكون الوضوح

تعرض لمسألة كنساس فقال في قوة اليقين وفي جلال الحق؛ ستكون كنساس حرة؛ وأردف فذكر السامعين أن الخروج على اتفاقية مسوري والسماح بانتشار العبيد وراء الحد الفاصل مؤد حتماً إلى جعل مسألة العبيد مسألة قومية عامة، ولذلك فإنه للفوز أبداً أو الهزيمة أبداً، فإنه يشعر بتزايد قوى المتمسكين بمبدأ انتشار العبيد بينما يتراخى الداعون إلى مقاومة تياره. وكان في خطابه يبدو منه ما يبدو من رجل مقبل على موقف حاسم في تاريخ حياته، ففي نبراته رنة الإخلاص، وفي مقاطعه وابتداءاته لهجة اليقين وبيانات الحرص الشديد أن يتدبر كلامه المنصتون، وعلى وجهه علامات الاهتمام حيناً وإشارات القلق حيناً ومخايل الحذر والخوف واللهفة أحياناً، وكذلك العظيم إذا تكلم كان كلامه من وجدانه ومن لبه، وكانت حركاته حركات جوانحه وخفقات قلبه

ولقد تنبأ ذلك الرجل العظيم فذكر للناس أن مسألة العبيد سوف لا تحل حتى تنتهي إلى أزمة تجتاز بفضل إرادة الأمة، فإن تلك الإرادة متى أوقظت اجتاحت الصعاب؛ وكأنه كان يرى ما سيحدث عما قريب في صورة حرب أهلية
ضروس

وانجلت المعركة الانتخابية عن فوز بيوكانون مرشح الحزب الديمقراطي، ولقد ظهر فيها على منافسيه أحدهما مرشح الحزب الجديد، والآخر مرشح حزب آخر كان يعرف بالمحايد، ويضم عدداً كبيراً من الهوجز، ولكن نجاح الحزب الديمقراطي كان ينطوي على معنى الضعف، فإن ثلث أصواته انضمت إلى الحزب الجديد كما أن هذا الحزب قد نال على حادثته عدداً من الأصوات يلي في مقداره عدد أصوات الحزب الفائز، حتى لقد أعتبر الكثيرون من المفكرين أن الفوز الحقيقي إنما هو للجمهوريين

ولقد أنضم إلى هذا الحزب الوليد كثير من أهل الثقافة وأولي الأبصار، فكان من رجاله في مجلس الشيوخ نفر من الأمثال الذين أشربت قلوبهم حب بلادهم والذين فطرت نفوسهم على العدالة وجبلت على الرحمة والإنسانية، والذين كانوا يمقتون نظام العبيد من أعماق وجدانهم إذ يرونه نظاماً لا يوائم ما ينشدونه لوطنهم من نهوض وقوة. . .

وبدرت يومئذ بوادر الطلعة الكبرى فلقد تلاحقت الأحداث وجرت الشائعات بالسوء وانبعثت الأحن والحزازات وتناذب الناس وتباغوا وأصبح بأسهم بينهم شديداً؛ فما هي إلا رجة ثم ينفجر البركان ويلزل البيان. . .

وكانت أولى تلك الأحداث ما كان في مجلس الشيوخ فلقد كان في المجلس رجل يدعى سمنر عرف بقوة الجنان وذلاقة اللسان وتوقذ القريحة، وهو ممن يكرهون أشد الكراهية نظام العبيد، حمل في جراءة وقوة على قرار نبرسكا، وأهاب بالناس أن يتمسكوا باتفاق مسوري. ولقد كانت لهجته لاذعة وحجه قاطعة وعباراته مقذعة؛ فلما كان ذات يوم بعدها جالساً إلى مكتبه في المجلس يكتب في سكون هجم عليه عضو من أهل الجنوب فضربه على أم رأسه بعصا غليظة فسقط على الأرض مغشياً عليه، فكانت الضربة في الواقع أولى ضربات الحرب الأهلية، فأهل الجنوب بدل أن يستنكروا هذه الفعلة هللوا لها واعتبروا صاحبها بطلاً جديراً بالتوقير. وقدم له جماعة من الطلبة عصا ذات

رأس من الذهب! أما أهل الشمال فلك أن تتصور مقدار ما بلغت النعلة من نفوسهم وما تركته من الغيظ في صدورهم فذلك ما لا ينهض لتصويره كلام وحدث بعد ذلك حادث آخر رج البلاد من أركانها، وذلك أن أحد العبيد، رحل مع سيده إلى ولاية من الولايات الشمالية الغربية، وكانت أسرة ذلك العبد معه، وكان عبداً ذكياً له حظ من التعليم أدرك أنه وراء الحد الفاصل بين ولايات العبيد والولايات الحرة، فرفع أمره إلى القضاء يطلب أن يتمتع هو وأسرته بالحرية ما دامو في ولاية حرة؛ وانتقلت القضية من محكمة إلى محكمة حتى استقرت في المحكمة العليا في واشنطن؛ وأصدر القاضي الأعلى حكمه، ف قضى بأنه ما كان لأي عبد زنجي أن يرفع قضية أمام محكمة من محاكم البلاد كما يفعل الرجل الأبيض، وأنه ليس للمؤتمر ولا لأي مجلس من مجالس الولايات أي سلطة تخوله ان يمنع أي شخص أن يعود بعبده من الولايات الحرة إلى ولايات العبيد.

ولقد هز هذا الحكم البلاد هزاً عنيفاً؛ وأستقبله أهل الجنوب طربين يطفرون من الفرح، أما أهل الشمال فكان في نفوسهم غمة وفي حلوهم شجي؛ ذلك أنهم رأوه يجعل اتفاق مسوري اتفاقاً غير دستوري، كما رآه يقضي على قرار نبراسكا الذي يجعل لمجلس الولاية الحق في تقرير ما يريده في مسألة العبيد؛ وبه أصبح العبد كقطعة من الأدوات ليس له حتى في نفسه أي حق أو شبه حق وكان خطر هذا الحكم أنه صادر في تلك المسألة التي تشغل الأذهان من المحكمة العليا للبلاد، وأن صدوره جاء في تلك الآونة التي كان الخلاف فيها على أشده بين الناس؛ وسرعان ما انتشر بين الطبقات صغیرها وكبيرها، وانشغل به الساسة عن كل أمر سواه فلا حديث لهم أينما تلاقوا إلا ما يحمل من المعاني! أدرك الجميع أن قد أزفت الأزفة وأقرب اليوم الذي يحتكم فيه الفريقان إلى السيف؛ وأيقن لنكولن أن الحوادث تؤيد ما ارتأى ولعله كان يحس ما بينه وبين نفسه أن قد اقتربت الساعة التي يتناول فيها معولا لا ليقطع به

الأخشاب كما كان يفعل من قبل بل ليهوي به على ذلك النظام البغيض فيضربه
الضربة الحاسمة. . .

أحس لنكون ذلك فهو وإن يكن يعرف الذهاب بنفسه يدرك اليوم قد صار له في السياسة مكانة الزعماء، فلقد انتشر اسمه خارج مقاطعة الينوس وتقبله الناس بقبول حسن، فهم يضمرون لصاحبه المودة والإجلال. رشحه رجال الحزب الجمهوري في مؤتمرهم الأهلي أثناء الانتخاب لمركز نائب رئيس الولايات على غير سعى منه إلى ذلك فنال من الأصوات عشرة ومائة وهو بعيد؛ فلما جاءه نبأ ذلك تبسم ضاحكاً وقال: (حسبت أول الأمر أن هنالك رجلاً آخر عظيماً في مسأشوست يدعى لنكون)

ولقد تألمت نفسه وانكدرت لذلك الحكم؛ تلمح ذلك فيما عقب به عليه، إذا أخذ يقارن حال العبيد يومئذ بما يرجى لهم غداة إعلان الاستقلال قال: (في هاتيك الأيام كان إعلاننا الاستقلال أمراً يعتبره الناس جميعاً مقدساً كما اعتبره ينتظم الجميع؛ أما اليوم فقد هوجم وسخر منه وأول وفق الأهواء، ومزق شر مزق، حتى لو أنه أمكن أن يبعث صانعوه اليوم من مراقدهم لما أمكن أن يتعرفوه؛ وذلك بما فعلنا من محاولتنا جعل عبودية الزنجي أمراً عاماً أبدياً. فإن جميع قوى الأرض لتظهر كأنها تتحد سريعاً عليه؛ فإله المال (ممون) في أعقابه ومن ورائه الطمع، ثم من وراء هذا الفلسفة، تتلوها جميع نظريات العصر التي تتكاتف جميعاً في سرعة لتؤيد الصيحة ضده. لقد ألقوا به في سجنه بعد أن فتشوه ولم يدعوا في يده أي آلة ينقب بها الجدار؛ وأغلقوا عليه الواحد بعد الآخر أبواباً ثقيلة من الحديد؛ والآن يذرونه في سجنه وعلى بابه قفل من الحديد ذو مائة مفتاح، لا يمكن فتحه إلا أن تتفق على ذلك كل هاتيك المفاتيح؛ وإنها لفي أيدي مائة من الرجال مختلفين مبعوثين في مائة مكان مختلفة سحيقة؛ وإنهم ليفكرون فوق ذلك ليتبينوا أي اختراع في كافة نواحي العقل والمادة يمكن أن يضاف إلى ذلك ليكون استحالة هربه أكثر تأكيداً مما هو عليه.

وحق لأبراهام أن ينطلق لسانه بمثل هذا الغضب، وأن تجزع نفسه لهذا الحكم فإنه ليراه ينطوي على كثير من المعاني وكلها على غير ما يحب لحزبه الوليد وللقضية الكبرى التي يتوقف على مآلها مصير البلاد. أليس يقضي هذا الحكم بأن المجلس التشريعي للولايات هو الذي يحدد من غير قيد ماذا تكون عليه حال الولايات من حيث مسألة العبيد؟ وإذا فما قيمة اتفاق سوري، ثم ما نصيب هذا الحزب الجديد من القرب أو البعد من روح القانون وهو الذي يجعل اتفاق سوري القاعدة التي يصدر عنها في أعماله؟

إنها في الحق لمعضلة؛ ولكن هل كان يضيق هذا القلب الكبير بالمعضلات؟ وهل يتخاذل إيمانه لدى الصعاب وهو الذي يفل الصعاب وينهض لجسيمات الأمور؟ كلا، إنه ليحس قوة نفسه تعظم بقدر ما تعظم الشدائد. وهو كغيره من أولي العزم من الرجال لا يتذوق حلاوة النصر إلا في مرارة المقاساة. . .

وظلت الأحداث تأتي بعضها في أثر بعض، فهذه كنساس تتوثب فيها الفتنة ويتحفر الشر، راحت تضع لها دستوراً فأخذت تختار من رجالها من يعقدون مؤتمراً لهذا الغرض، فانظر كيف يحال بين الأحرار وبين أمانيتهم بالقوة المادية فيجري الانتخاب فيها على صورة تشعر النفوس البريئة بالألم اللاذع أن ترى الأغراض الوضيعة تنزل فيها بالعقلاء من البشر إلى مرتبة البهائم، ويبيت الناس وكأنما لم يكن الوجدان يوماً ناحية من نواحي نفوسهم. فهم في ضراوتهم وبهتانهم يظهرون في مظهر تخجل منه الآدمية التي تشعر بحقيقتها

ويأبى الرئيس بيوكانون إلا أن يعتمد قرار المؤتمر فيقبل الولاية في الاتحاد على أنها إحدى الولايات التي تأخذ بنظام العبيد كما جاء في دستورها! ولشد ما تألم لنكون لهذا، ولكنه كان عنده ذلك الأم الذي يلد العمل ويبعث الأمل ويغري المجاهدين بالجهاد؛ ولولا أن كان من المؤمنين الصادقين لتطرق إلى نفسه الوهن ومشى في عزمه اليأس. . .

ووثب لنهاضة دستور كنساس رجل آخر يعد موقفه في ذلك غريباً لأول وهلة، وذلك هو دوجلاس عضو مجلس الشيوخ ومنافس لنكولن الشديد البأس. رأى أن قرار المحكمة العليا قد قضى على ما راح يدعو إليه من توطيد مبدأ سيادة الولايات في تقرير مصائرها. ذلك المبدأ البراق الذي ظل يخلب به الألباب ويلوح به لأهل الجنوب ليكونوا عدته في الوصول إلى الرئاسة. ولقد بات من أمره في حيرة شديدة، فهو يخشى أن يفقد محبة أهل الجنوب إذا عارض دستور كنساس؛ بينما هو يخشى كذلك أن يفقد ثقة أهل الينواس إذا هو نسى مبدأ سيادة الولايات وسلطانها فيؤدي ذلك إلى خذلانه في الانتخاب لمجلس الشيوخ وقد أوشكت مدته فيه أن تنتهي. . .

ولكنه أثر الآن أن يحرص على ثقة أهل مسوري فأعلن عداؤه لدستور كنساس، ووقف يحمل عليه في المجلس حملات شديدة بعثت في قلوب الديمقراطيين الغيظ وأثارت في عقولهم، فهذا الرجل الذي يعدونه من أقوى رجالهم لا يستحي أن يخرج عليهم على هذه الصورة ولا يتورع أن يعارضهم في غير هوادة كأنما انقلب بغتة فصار من رجال الحزب الجديد!

ولقد هلل بعض زعماء الحزب الجديد لموقف دوجلاس واستبشروا به، بل لقد أخذوا يمهدون السبيل لانضمام دوجلاس إلى حزبهم ليزدادوا به قوة ومنعة! وراح جريلي أحد رجال الصحافة من قادة هذا الحزب يدعو القراء إلى انتخاب دوجلاس وأخذ يثني على صفاته ويتوخى في مديحه الأطناب والمغالاة. وكان هذا الرجل من أشهر رجال الصحافة في الشمال وكانت له عند الناس مكانته؛ كما كان لصحيفته عدد كبير من المعجبين

ولكن ابراهام قد أنكر على نفسه أن يقبل ذلك من رجال حزبه. وهنا تعود للظهور خصلة من أبرز خصاله ألا وهي الاستقامة إذا صح أن تعبر هذه الكلمة عن المعنى الذي نريد، والذي نراه ينحصر في إطلاق النفس على سجيتها وسيرها على نهج من فطرتها في غير تناقض أو تذبذب أو اضطراب.

وما كان ابراهام يتكلف شيئاً لا يتحرك به وجدانه أو تستشعره نفسه، ومن هنا كانت خطواته بطبيعتها مسدودة إلى الغاية مفضية إليها مهما كثر ما يعترضه من الصعاب. ثم من هنا كان خطره إذا تحرك. انظر إلى قوله حين سمع بتلك الدعوة الجديدة: (لقد أتى جريلي نحوي بما لا يعد عدلاً. إني جمهوري من صميم الجمهوريين ولقد وقفت دائماً في طليعة الصفوف عند المعركة. والآن أراه يفاوض دوجلاس خير من يمثل رجل الاتفاقات، ذلك الذي كان مرة آلة أهل الجنوب والذي هو اليوم أحد معارضيه؛ ذلك هو الرجل الذي يحاول أن يضعه في صفنا الأمامي. . . أنه يحسب أن مكانه الرفيع وشهرته وتجاربه ومقدرته إذا أحببت، تقوم مقام حاجته إلى مركز جمهوري خالص، بل وتزيد على ذلك. . . ولذلك فإن إعادة انتخابه على أن يمثل قضية الحزب العامة أجدى علينا من انتخاب من هو خير منه من رجالنا الجمهوريين الخالص الذي ليست لهم مثل شهرته؛ ماذا تعني (نيويورك تريبيون) بذلك الإطراء والإعجاب والتعظيم الذي تزجيه دائبة لدوجلاس؟ هل تعبر بذلك عن شعور الجمهوريين في وشنجطون؟ هل وصلوا نهائياً إلى أن قضية الحزب الجمهوري على العموم تتقدم خيراً من ذي قبل بتضحيتنا هنا في الينواس؟ إن كان ذلك كذلك فنحب أن نعلمه عاجلاً؛ على أنني إلى الآن لم أعلم بجمهوري هنا يرغب أن ينضم إلى دوجلاس؛ وإذا استمرت (التريبيون) ترن باسم دوجلاس في مسامع الخمسة أو العشرة الآلاف من قرائها في الينواس فأن ذلك يكون أكثر من أن نأمل معه أن يظل الشمل مجتمعاً؛ إنني لا أشكو ولكني أرغب في أن أصل إلى بينه من الأمر)

ذلك هو لنكولن اليوم؛ انظر كيف يجمع بين منطق المحامي وحقافة السياسي، وانظر كيف يدفع عن نفسه بما نشأ عليه من دماثة ما يحس فيه عدواناً على شخصه ونيلا من كرامته؛ فهو يطبق أن يكون دوجلاس خصماً له ولكنه لن يطبق أن يراه مرشح حزبه في الينواس؛ نعم أنه لن يستطيع أن يحمل

نفسه على الركوب معه في قارب واحد يراه يأخذ فيه مكان الربان وهو فيما يعتقد لا يرى كفايته تتقاصر عن ذلك المكان

وأرسل لنكولن بعض أصدقائه إلى الأقاليم الشرقية ليروا ما حال الحزب هناك؛ وكان من هؤلاء صديقه هرنند، وقد عاد إليه ينبئه بأن اسمه يقابل بالاحترام لدى الكثيرين من قادة الحزب بيد أنه يحمل إليه مع ذلك أنباء لا تسره؛ فرجال الحزب منقسمون بعضهم على بعض، فإن لجريلي آراءه ولستيورد أطماعه ولغيرهما من أساطين الحزب من أوجه الرأي ما يخشى منه انحلاله. . .

هكذا صارت السياسة شغله الشاغل، وهو لا يستطيع اليوم إلا أن يكون كذلك؛ لا لأنه يتخذ من السياسة وسيلة إلى تحقيق أغراض شخصية كما عسى أن يفعل غيره؛ ولكن لأن عقيدة تحرك نفسه وتستثير وجدانه، ولأن رسالة من الرسائل الإنسانية الكبيرة ينبض بها قلبه الكبير. وهل عهدنا عليه من قبل ما نحمل معه اشتغاله بالسياسة على غير محمله؟ حاشا أن يكون ذلك من صفات أمثاله وإلا فما أضيع البشرية وما أهون أمرها.

على أنه لم ينفذ يده من المحاماة بعد؛ فحرفته التي يكسب منها قوته لا زالت حتى اليوم هي تلك الحرفة التي مال إليها بفطرتة والتي ارتفع بها إلى مستوى إنساني يحق معه لأربابها جميعاً في كل جيل أن يذكروا أسمه كعلم من أعلام المدنية، وأن يضيفوه إلى ما يعتبرونه في مهنتهم من دواعي الشرف وبواعث المفاخرة

ومن أفعاله في المحاماة يومئذ حادثة نروبيها لدالاتها على ما كانت تنطوي عليه تلك النفس الكبيرة من المعاني الإنسانية، تلك النفس التي لم يتطرق إليها ما يتطرق إلى النفوس في هذا العالم الخبيث من خبائث تشوهما وأوشاب تدرى بها وهي في حال غريبة، تحار معها هل تعدها آدمية أم تعدها بهيمية؟

وقع بصره في إحدى الصحف على جريمة قتل يدعى أحد المتهمين فيها أرمسترنج، فدهش وتساءل هل يكون ذلك ابن متحديه ثم صديقه القديم عندما كان فتى يبيع في الحانوت وهو غريب في نيو سالم. ولما تبين له أنه هو كتب إلى أمه يقول: (عزيزتي مسز أرمستنج: علمت الآن بالملك العميق وبإلقاء القبض على ابنك متهماً بالقتل؛ ويصعب على أن أصدق أنه عسى أن يرتكب ما اتهم به. إن ذلك لا يبدو ممكناً. وإني لأرجو أن يجري معه تحقيق عادل على أي حال؛ وإن عرفاني بالجميل نحوك وما كان لي منك أيام شددتي من عطف طالت أيامه ليحدوني أن أتقدم في سماحة نفس بخدماتي المتواضعة لصالحه؛ فإن هذا سوف يتيح لي الفرصة أن أرد بقدر ضئيل تلك المبرات التي نلتها على يديك ويدي زوجك المأسوف عليه، حيثما لقيت تحت سقفكم مأوى كريماً بغير مال وبغير ثمن)

وتبين لإبراهام براءته فعمد في دفاعه إلى طعن حجج المبطلين من الشهود. ومن ذلك أنه سأل أحدهم كيف رآه ينفذ الجريمة فأجاب إنه رأى ذلك على ضوء القمر، فطلب المحامي نتيجة، ومنها تبين للمحكمة أن ليلة القتل كانت ليلة ممتعة؛ ودار الدفاع حول تسفيه آراء الشهود حتى أصدرت المحكمة حكمها بالبراءة

وثمة حادثة أخرى لها دلالتها على عظمة الرجل ونبله وسمو نفسه؛ ذلك أنه تقدم عن طيب خاطر ليدافع عن حفيد كارتر ايت ذلك الرجل الذي طعنه في دينه قبل ذلك بعشرين عاماً وهو ينافسه في الوصول إلى مقعد في مجلس الولاية؛ وكانت هذه التهمة أيضاً تهمة القتل؛ ولشد ما تأثر كارتر ايت وهو اليوم شيخ كبير حينما شاهد حرارة دفاع خصمه لنكولن عن حفيده الذي ما لبث أن برئت ساحته. . .

وأي شيء لعمري أجمل من هذا؟ ألا إنه الخلق العظيم يبهج جماله النفوس ويملك طيبة الأفئدة، إن للناس فيه لقدوة أي قدوة، وإن لهم في صاحبه لأسوة لن يتسنى لهم مثلها إلا في الأفذاذ القلقين الذين ظهروا في هذا الوجود برهاناً على أنه ثمة من صلة بين هذه الأرض وبين السماء!

وندير الحديث بعد إلى السياسة فنذكر أن المؤتمر الذي انعقد من الجمهوريين في سبرنجفيلد عام ١٨٥٨ لترشيح عضو عن الولاية لمجلس الشيوخ قد اجتمعت كلمة رجاله على ترشيح لنكولن، ولقد فعلوا ذلك في غبطة وفي حماسة شديتين

وهكذا اتفقت كلمة الجمهوريين على لنكولن يقدمونه لينافس دوجلاس رجل الديمقراطيين في الانتخاب لمجلس الشيوخ؛ فيلتقي بذلك الخصمان ويكون بينهما هذه المرة جلاد دونه كل ما سلف من جلاد؛ وينتهي الصراع بينهما فإذا دوجلاس يرى نفسه وقد ابتعد عن الهدف بقدر ما اقترب منه ابن الأخراج، ثم إذا هو يفتن إلى طعنه سوف تحول بينه وبين غايته المرجوة فلا يظفر بها أبداً. . .

وعرف لنكولن مبلغ ما ينطوي عليه الموقف من خطر، وأدرك أنه ملاق منه رهفاً شديداً وعنناً. ولكنه يحس في قرارة نفسه أن له في ذلك ما يشفي نفسه، فهو يحمي على الصراع وهو لا تظهر مواهبه على أحسن ما تظهر إلا حين يبتعثها ضجيج الموقف وتستثيرها حرارة الدفاع

وكذلك أشفق دوجلاس وأوجس في نفسه خيفة، ولقد فطن وهو الخبير بأقدار الرجال، البصير بأمور السياسة، إلى دقة الموقف. وأدرك أن ابراهام اليوم غيره بالأمس، فهو منه إذ ذاك حيال قوة لا تنفع معها حيلة ولا يجد في مكر أو دهاء، قوة منشأها عقيدة صقلتها الأيام ووثقتها التجارب وأمدتها الفطرة بمثل ما تمد به التربة الصالحة الشجرة الطيبة من الغذاء الصالح؛ فليس ثمة ما يحول بينها وبين امتداد الجذور وسموق الفرع. وكأنما كانت ماري يوم فضلت لنكولن على منافسه ورضيت به زوجاً، تطلع على الغيب فتري هذا الصراع بين الرجلين ثم تصدر حكمها على هدي وبصيرة وعلى تجربة لا تدع مجالاً لوهم!

وهل كان انتخاب ابراهام لمجلس الشيوخ هو غاية ما يتمناه؟ كلا فما أهون هذا الأمر إذا قيس إلى ما كانت تجيش به نفسه من آمال لم يكن يراها وفقاً على نفسه بل كان يراها لصالح غيره؛ وهو لن يشعر لها بقيمة أو خطر إلا أن يتسع مداها حتى يشمل أمريكا كلها؛ بل إنه ليرى رضاء نفسه في أن يشقى ليسعد بنو جنسه. . .

لذلك لم يكن عجباً أن يسير كما تملي عليه مبادئه وكما يوحي إليه قلبه، لا كما يتطلبه الانتخاب من محاولات ومداورات وألعيب وأكاذيب ومرونة وليونة وغير ذلك مما يتذرع به الكثيرون من أصحاب السياسة حين يجعلون غرضهم النجاح في المعركة فحسب. وما كان ابراهام يرى في الوصول إلى مقعد في الشيوخ إلا إحدى الوسائل لتحقيق غرضه الأسمى وذلك كما محصته الأيام هو حل معضلة العبيد مع المحافظة على كيان الاتحاد

وفيما كان رجال حزبه يقدمونه، كان هو يعد خطاباً حاسماً يعبر به عما في نفسه، ولقد ظل يثبت ما يجري في باله على قصاصات من الورق يدهسها في قبعته، حتى استوى له موضوعه فجمعه بعضه إلى بعض ولم يفيض به إلى بعض خلصائه إلا قبل إلقائه ببضع ساعات؛ ولقد أخذهم الدهش لما جاء فيه أنه

لم ير رأيه منهم سوى صديقه هردون؛ ولكن لنكون كان إذا صمم على أمر لن يلويه عنه شيء فقال لهم (أي أصدقائي: إن هذا الشيء قد أجل مدة طويلة أرى فيها الكفاية؛ ولقد حان الوقت الذي ينبغي فيه أن أنطلق بهاتيكم العواطف، فإذا قدر لي أن يكون مصري السقوط بسبب هذا الخطاب فلاسقطن مربوطاً إلى الصدق؛ دعوني ألقى حتفي في الدفاع عما أرى أنه العدل والحق. . .)

ولما انعقد ذلك المؤتمر الجمهوري الذي كان ينتخب عضو الشيوخ قام فيهم لنكون يلقي خطابه فقال: (حضرة الرئيس، حضرات السادة رجال المؤتمر: إذا استطعنا بادئ ذي بدء أن نعلم أين نحن وإلى أي وجهة، أمكننا أن نعرف ماذا نصنع وكيف نصنعه. إننا الآن بعد خمسة أعوام منذ تلك السياسة التي اتبعت مع وجود ذلك الوعد الوثيق الذي قصد به أن يوضع حد لذلك القلق الذي تبعته مسألة العبيد، ولكن هذا القلق طالما أخذت تلك السياسة تفعل فعلها لم يقتصر أمره على أنه لم يوقف فحسب، بل لقد ظل يتزايد أبداً؛ وفي رأيي أنه لن ينتهي حتى يفضي بنا إلى أزمة نجتازها. إن البيت الذي ينقسم بعضه على بعض لن يقوم؛ إنني أعتقد أن هذه الحكومة لا يمكنها أن تدوم ونصفها عبيد والنصف الآخر أحرار، وأنا لا أبغي أن تنقسم عري الاتحاد كما لا أبغي أن ينهار البيت، ولكنني أبغي ألا يستمر في انقسامه؛ وسوف يكون كله إلى هذا الجانب أو إلى ذاك؛ فأما أن يحول خصوم العبودية دون أي انتشار لها في المستقبل ويضعوها حيث يرتاح الرأي إلى أنها وضعت في الموضع الذي يفضي بها إلى الفناء النهائي، وإما أن يدفعها أنصارها إلى الأمام بحيث تصير قانونية في كل الولايات القديم منها والجديد والشمالى والجنوبى)

ذلك هو الخطاب الذي أفضى به لنكون إلى رجال المؤتمر في صراحة وجلاء؛ ولقد أشفق أنصاره من لهجته الحاسمة ثم من تلك العبارة التي اقتبسها من الإنجيل وخافوا أن يحملها خصومه على غير محلها فيظنون وهو يريد

بالبیت المنقسم على نفسه الولايات الأمريكية أنه يشير إلى قطع العقدة لا حلها وأن سبيله إلى ذلك الحرب. . .

وكان دوجلاس قد نزل بشيكاغو يدعو إلى انتخابه للشيوخ، فوجد في خطاب خصمه ومنافسه، لنكولن، فرصة يغتنمها فاتهمه أنه من دعاة التحرير بالقوة وأخذ يحذر الناس من انتخابه واغتاز لنكولن لتلك التهمة النكراء، ولكنه لم يستكثرها على دوجلاس، وإنه لواتق أن الأيام ستقذف بحقه على باطل خصمه فيدفعه فإذا هو زاهق

وما كان إبراهيم ممن يقرون الثورة مهما بلغ من مقتته لنظام العبيد، وسوف يبقى دستوره هو حل تلك المسألة بما يتفق مع الصالح العام على أن يكون ذلك في كنف الاتحاد وتحت رايته التي لا يرضى إلا أن تظل خافقة عالية تجمع على محبتها وإكبارها أبناء الوطن كله

وعول دوجلاس أن يخوض المعركة على أساس خصومته لبيوكالون في مسألة دستور كنساس، لا على أساس مخاصمته لنكولن أو مخالفته فيما جاء في خطابه الجديد من أراء كأنه يستعظم أن يكون ذلك الرجل الذي ما زال شأنه منحصرأ في ولايته ندأ له؛ وإن كان دوجلاس ليحس بينه وبين نفسه مبلغ ما تتطوى عليه نفس الرجل من عظمة ومبلغ ما يحمله قلبه من إيمان

ولقد شاع خطابه في الناس وتناقلته الصحف في طول البلاد وعرضها، فكان ذلك أبلغ رد على ترفع دوجلاس وذهابه بنفسه؛ وأحس إبراهيم مبلغ ما أحدثه الخطاب من أثر في البلاد، لتبين ذلك في قوله: (إذا كان لي أن أمر بالقلم على صفحات تاريخي، وأمحو حياتي كلها عن الأنظار؛ وقد ترك لي أن أختار شيئاً استثنيه من هذا المحو فإني أختار هذا الخطاب فأدعه للعالم لم تذهب معالمه

وليس في قوله هذا شيء من المغالاة، فان خطابه كان أكبر حافز لأول الرأي أن يقفوا من مسألة العبيد موقف الذي يريد أن يصل إلى غاية، فلا تهاون

ولا تلكؤ بعد اليوم، وإلا تفاقم الخطب واستعصى الحل، ودخلت البلاد في طور من الفوضى الجامحة فيأتي على الأخضر واليابس؛ كما أن هذا الخطاب كان أهم حادث في تاريخ حياته فبعده صار للسياسة كل همه، وبه قدر له أن يصير في السياسة من رجال أمريكا كلها لا من رجال الينواس فحسب. . .

ولقد خطب لنكولن بعدها في شيكاغو يرد على ما اتهمه به دوجلاس؛ فأعلن أن الوثيقة الكبرى التي يجب أن يتقيد بها الأمريكيون ويسيروا على نهجها هي وثيقة إعلان الاستقلال وأنه يجب أن ينظر إلى مسألة العبيد نظرة إنسانية، وأن يراعي اتفاق مسوري فيما يشجر بين الفريقين من خلاف

وتكلم دوجلاس بعد ذلك في بلومنجتن ثم في سبر نجفيلد، ورد لنكولن عليه في المرتين، حتى بدا له فخطا خطوة لم يسبقه إلى مثلها رجل من قبله في التاريخ السياسي للبلاد، وذلك أنه أرسل إلى دوجلاس رسولاً يعلن إليه أنه يتحده أن يلتقي رأياه في مبارزة خطابية يستمتع فيها الناس إليهما ويحكموا بينهما حسبما يرون من كلامهما. . .

ولقد ضاق دوجلاس بهذا التحدي وهو الذي يعرف أصالة صاحبة وشدة إيمانه ذلك الإيمان الذي رسخ حتى ما يحتال عليه بحيلة أو تزعمه مطاولة أو يفل منه جاه أو إغراء، والذي جعل كل وسيلة من وسائل المغالبة بحيث تكون منه كالموج من الصخر لا يلطمه إلا لينحسر عنه ولم يبق فيه من قوة الموج بشيء وأبي على دوجلاس كبريائه وغلوائه أن يتخاذل فيتخلف عن هذا النزال فقبله على كره منه قال: (سوف تصبح يداي مليئة؛ إنه رجل حزبه ذو البأس؛ ملؤه الذكاء والحقائق والتواريخ. . . وهو أمين بقدر ما هو أريب حذر، وإذا قدر لي أن أظهر عليه فسوف يكون انتصاري بشق النفس) وقال في موضع آخر (أني لا أحس - بيني وبينك - إنني أرغب في الذهاب إلى هذا الجدل؛ إن البلاد كلها تعرفني ولقد سبق أن قدرتي وعرفت قدرتي؛ وأن لنكولن بالنسبة لي ليعد غير معروف، فإذا أتيح له أن ينتصر عليّ في هذا

الجدل - وإني لأود أن أذكر أنه أقدر رجل في الحزب الجمهوري - فانه يكسب كل شيء بينما أخسر أنا كل شيء؛ أما إذا قدر لي الفوز فإني لن أغتم إلا قليلا؛ إني لا أحب أن أذهب في تلك المجادلة معه. . .)

ولكنه على الرغم منة ذلك لم يستطيع إلا أن يجيبه إلى ما طلب؛ وحددت سبع مدن يلتقي فيها الرجال فيتناظران والناس من حولهما يشهدون ما يكون بينهما. وفرح لنكولن وقد أتاحت له أعظم فرصة ليعبر عما في نفسه؛ وأي فرصة هي؟ ألم يك دوجلاس في الناس أكثرهم استفزازاً له وادعاهم أن يبرز له ما استكن من مواهبه؟ ثم أليست هذه المجادلة كفيلة أن تجمع إلى أنصاره ومحبيه أنصار دوجلاس ومحبيه فيكون الكلام في حشد قلما يتسنى أن يلتقي على هذه الصورة؟ فإذا قدر له أن يكسب هذه القلوب أو أن يصل إلى إقناع هذه العقول فأني فوز هو وأي فخر؟

واتخذ دوجلاس للأمر عدته، لم يدع وسيلة أو يغفل عن حيلة، أما ابراهام فلم تكن به حاجة إلى ما يحتال به من أساليب التأثير المتكلفة الخادعة، فما هو إلا أن ينصت له الجمع حتى يبتعث اليقين ما قر في نفسه فيحرك به لسانه فإذا هو كالنهر الحادر يفهم بما لا يفتأ يواتيه به المنيع، ويجيش بهذا الفيض ويهدر، ويتدفق لا يصده عن وجهه شيء. . .

وكان لدوجلاس من بعد الصيت ما جعل اسمه ملء الأسماع في طول البلاد وعرضها؛ وكان في رأي الأمريكيين أقدر رجال حزبه وأكثرهم فطنة وأطولهم في السياسة باعاً وأقواهم بمصاعبها اضطلاعاً، بل لقد كان عند الكثيرين من ذوي الرأي أعظم رجال أمريكا كفاية وأعلامهم كعباً وأعزهم مكانة، وكان يلقب (بالمارد الصغير) أن كان له على صغر جرمه وقصر قامته قوة المارد وسُلطان المارد ودهاء المارد، وكانت له حيوية غريبة تنقطع دونها حيوية الرجال، وتتقاصر عنها هممهم. والحق لقد كان دوجلاس يومئذ أنبه الناس شأناً وأعزهم نفراً وهو من عهد قريب لم يكن يسمع به أحد خارج الينواس

لذلك كان للناس عجباً أن يطاوله ابراهام وأن يدعوه إلى نزال. وأخذ من لم يكن يعرفه منهم هذا الفعل من جانبه على أنه ضرب من الغرور أو نوع من الغفلة، ولو أنهم عرفوا دخيلة صاحبهم الذي افتتنوا به وتبينوا ما هجس في نفسه من الخواطر إزاء هذا التحدي الجريء لأيقنوا أن جبروت ماردتهم وأساليبه ما كانت لتغني عنه شيئاً من هذا العملاق الذي درج من الغاية ليقف أمامه كانه السديانة!

وكانت أثاراً أولى المدن السبع التي اختيرت ميادين لذلك الصراع؛ وقد جاءها الناس ليشهدوا ما لم تقع عليه من قبل أبصارهم أو تتعلق به أو هامهم، وقد اتَّفَق أن يكون الكلام أول الأمر لدوجلاس فيخطب الجمع ساعة، ثم يعطي من بعده ابراهام ساعة ونصف ساعة؛ ويختتم دوجلاس هذا الدور بعده بحديث يستغرق نصف ساعة

وكان دوجلاس في انتقاله بين المدن في أليנוاس يتخذ مركبة فخمة يجرها ستة من كرائم الخيل، وحوله ثلة من الفرسان يتزايد بهم من الهيبة والأبهة؛ وكان إذا دخل مدينة من المدن يقف في مركبته وقد تكلف أكثر ما يطيق من الصرامة فما يكاد يلمحه الناس ويقبلون عليه مصفقين مهللين حتى تنقلب صرامته وسامة فيحيي الجموع بيديه وإيماءاته وابتساماته، ويلتفت لهذا ويهش لذلك كأنه ملك يتدلى من عليائه ليطلع على شعبه، وإذا هو حل يقوم أو سار إليه قوم عرف كيف يوحى إليهم تبجيله والإعجاب به، فهو بين الصلف وخفض الجناح، وبين الاحتشام والتبذل يحيى وجوهم وكبراءهم ويغمرهم بنعمة منه وفضل

أما لنكولن فكان ينتقل بين الناس كأحدهم؛ وكثيراً ما يكون دون بعضهم، فإذا أخذ مكانه في قطار أو في مركبة عامة مزدحمة كان بين ركابها كما كان بين الناس في نيو سالم حين كان يدير الحانوت أو حين كان يوزع البريد يتبسط لهم في القول ويسترسل معهم في شتى الأحاديث، ويقص عليهم من قصصه، وإن له في هذا كله لمتاعاً ولذة لن يحسها إلا من كان له مثل قلبه

والتقى الرجلان في أتوا؛ واحتشد الناس في الموعد المضروب فضاق بهم مكان الاجتماع؛ وحانت ساعة الكلام، فوثب المارد الصغير إلى موضع مرتفع أطل منه على الناس فتمزقت بالتصفيق أكف أنصاره وتشققت بالهتاف حناجرهم، وهو يرسل نظراته في جنبات المكان ويوزع إيماءاته هناك، وهنا، حتى سكنت ريحهم فبدأ الكلام. . .

وكان يومئذ في الخامسة والأربعين، بادي الفتوة مرموق الشباب يتהלل وجهه لولا كدرة طفيفة هي مما فعلته به ابنة العنقود وسكنى المدن ولكنها كدرة كانت تنفشع حين تلتهب بالحماسة وجنتاه؛ وكان في موقفه بارز الصدر قوي الكتفين تتجه نظرات الإكبار إلى رأسه الضخم فما تلبث أن تلتقي بعينييه الزرقاوين السريعتين فترتد حاسرة كأنما غشيت من ضوء وهاج، وكانت تفتن

الأنظار أناقة ملبسه ونظام هندامه، كما كانت تسحرها لفتاته وحركاته كأنما كانت تقع الأبصار منه على ممثل قدير عرف سبيله إلى قلوب محبيه فهو يحرص ألا ينحرف قيد شعرة عما يشيع في نفوسهم السحر من مظهره.

وتكلم دوجلاس فكان في كلامه ثبت الجنان زلق اللسان وكانت له في هذا الاجتماع خطة بالغ في إحكامها وتسديد خطاها، ومؤداها أن يرمي لنكولن والمتشيعين له بأنهم من المتطرفين الذين يريدون حل مسألة العبيد بالقوة، ثم يحمل على بقية رجال الحزب الجمهوري فيرميهم بالتذبذب. . . وراح يخطو في سبيل ذلك خطوات؛ فيتحمس ويعلو بصوته ويكثر من الإشارات، ولكنه كان يسمو بعباراته أحياناً فلا ترقى إليها إلهام الكثيرين؛ على أنه كان له من جاهه ونفوذه وهيبته في قلوب الجماهير عوض عن ذلك، فحسبهم أنهم يستمعون إلى ذلك الذي بات يتحدث باسمه كل إنسان، حسبهم أنهم يستمعون إلى دوجلاس السياسي الأشهر ورجل الثورة العزيز الجانب! وإن في كثير من النفوس البشرية لما يميل بها من غرائزها إلى الخضوع للسلطان والانقياد لكل ما يشير به ولو كان مما هو جدير أن يقابل بالعصيان

وجاء دور ابراهام فطلع على الناس بقامته الطويلة فهتف باسمه أنصاره وتحمسوا له، واتجهت إليه الأنظار وإنه ليبدو كأنما أخذته من الموقف ربكة فليس له تطلع دوجلاس وتحفزه! ونظر الناس إلى شعره الأشعث وإلى ملبسه المتهدلة وخاصة إلى سرواله الذي يقصر عن ساقيه فيكشف عن جزء منهما، وقارنوا دون أن يشعروا بين تلك الملابس وبين حلة دوجلاس الأنيقة فبدت أكثر حقارة مما هي عليه! وكانت تستقر الأحاظ برهة على محياه وقد ازدادت مسحة الهم فيه وضوحاً، وبدا عليه ما يشبه المسكنة والانكسار. . ولكن الناس على الرغم من ذلك يرتاحون إلى مظهر ذلك المحيا ويشعرون نحوه بالحب!

ويبدأ الخطيب في صوت أجش تتخلله حشرة ثقيلة؛ ثم ما هي إلا برهة حتى تنطلق تعسة على سجيته، فإذا ذلك المحيا يتهلل ويشرق وتشكل أساريه

بما يهجس في خاطره، وإذا تلك العينان الواسعتان المتسائلتان تنفتان بسحرهما إلى أعماق القلوب، وإذا الرجل يبدو في هيئة يتقاصر عن وصفها لفظ الجمال. وتنتفتح مسالك صوته فينطلق رائقاً له رنين يتشكل حسبما يعبر عنه من المعاني، وكان يعلو صوته إذا تحمس فيدوي في أرجاء المكان

وينساب السيل لا يصده عن وجهه شيء ولا تمشي في صفائه كدرة على تدفقه وجيشانه!

والناس مفتونون وإن هم لم يفتنوا على وجه التحديد إلى سر فتنتهم، فهم مأخوذون بما يسمعون عن أن يفكروا أو يحللوا؛ وإنهم لفي سكرة أشبه بما يجدون أنفسهم فيه عند إصغائهم إلى لحن من تلك الألحان التي تسحر الأنفس وتملك الأبواب

تدافعت إلى ذهنه الألفاظ وتزاحمت عليه المعاني وقد أسفرت عن وجوها ومشت إلى غايتها في غير تخرج أو التواء؛ ولقد برزت في ذلك اليوم مواهبه على أتمها فكان له ما شاء من سهولة اللفظ من بلاغته ودقة المنطق مع سلامته؛ هذا إلى يقين ينفث في قوله الحرارة؛ وتمكن يذيع فيه الروعة؛ وأمثلة يسوقها من الحياة العادية فتستقر في قلوب سامعيه ومعظمهم من عامة الناس ومن وراء ذلك العبقرية التي تستعصي على التحليل وتسمو على التأويل. . .

ونزل لنكولن وله في قلوب السامعين من أنصاره وخصومه مكانة غير ما كان له قبل من مكانته، فلقد استطاع أن يقنعهم، كما استطاع أن يشعرهم بما هو أقوى من الاقتناع وأبعد أثراً ألا وهو الإعجاب؛ وإنهم ليتهامسون بعضهم إلى بعض قائلين: ليت لسادتنا وكبرائنا قلوباً مثل قلب ذلك الرجل. مثل قلب أيب الأمين. . .

وتكلم دوجلاس بعد ذلك مسافة نصف ساعة أعلن بعدها أن الاجتماع الثاني سوف يكون في فريبورت

ولقد ارتكب دوجلاس من الخطأ في هذا الاجتماع الأول ما عد عليه أنه أفحش أخطائه في ذلك الجدل؛ وذلك أنه أبرز مكتوباً موقعاً عليه باسم لنكولن يفهم منه أن إبراهيم من زعماء المتطرفين؛ ولكن سرعان ما أقام إبراهيم في دوره الدليل على أنه زائف وأنه مما جاء فيه براء. وكانت لكمة قوية استخذى لها دوجلاس في سامي منزلته، وفقد بعدها ثقة الكثيرين. . .

وحل موعد الاجتماع الثاني فتسابق الناس إليه أفواجاً وقد اشتهر أمر ذلك الصراع إذ لم تبق صحيفة إلا وقد أسهبت في الحديث عنه؛ وفي هذا الاجتماع طعن لنكولن خصمه تلك الطعنة التي سلفت الإشارة إليها؛ فلقد أعد له سؤالاً يلقيه عليه: إذا أرادت ولاية أن تلغي نظام العبيد فيها فهل هي مستطاعة أن تفعل ذلك دون أي حرج؟ ولقد أنكر عليه أنصاره هذا السؤال إذ لم يفهموا الغرض الذي يرمي إليه منه، وهو يعلم أن دوجلاس سيجيبه: بلى تستطيع الولاية ذلك. فقال لهم ولكنه بذلك يفقد عطف أنصار مبدأ التمسك بالعبيد من أهل الجنوب فلا يمنحونه أصواتهم إذا هو تطلع للرياسة؛ ولن يضير لنكولن أن يظفر دوجلاس اليوم بمقعد في مجلس الشيوخ

ووجه لنكولن السؤال إلى دوجلاس فأجاب بقوله (نعم تستطيع الولاية أن تفعل ذلك في غير حرج)؛ وفرح لنكولن بتلك الإجابة التي يعلم أنها ستنفّر أهل الجنوب منه. ولقد أيدت الأيام رأيه وبرهنت على بعد نظره. ومما قاله لنكولن في ذلك (إن دوجلاس ليتبعه عدد كبير من العميان، وإني أريد أن أجعل بعض هؤلاء يبصرون)

وفي الاجتماعين الثالث والرابع لم يأت كلاهما بشيء جديد؛ وإنما اجتهد لنكولن أن يدفع عن نفسه ما رماه به خصمه من الاتهامات؛ وخرج لنكولن من هذين الاجتماعين وقد أضاف إلى أنصاره أنصاراً جديدين. . .

وفي الخامس من هاتيك الاجتماعات اتخذ لنكولن خطة الهجوم، بعد أن أخذ ينشر خصمه ويطويه في الاجتماعين الماضيين حتى دوّخه، وكان هجومه تلك

المرّة شديداً، ضاق به دوجلاس وانخلع عنه مكره؛ عاب عليه إبراهيم أنه لا يحفل بالاعتبار الخلقي من مسألة العبيد، مع أن هذا الاعتبار بعد الخروج على اتفاق مسوري، هو السبيل الوحيد الذي يعوّل عليه في منع انتشار العبيد؛ وعلى ذلك يكون دوجلاس داعية إلى أن تصبح مسألة العبيد مسألة قومية عامة لا تخرج منها ولا تأثم فيها. . .

وأحس دوجلاس مهارة الرمية وقوة الإصابة فراح يرد على رمية برمية، وعاد فاتهم لنكون والحزب الجمهوري أنهم من دعاة الثورة وأنهم يدفعون البلاد إلى الدمار. . .

ولكن لنكون جعل الاجتماع السادس لتحديد مذهب الحزب الجمهوري فقال في جلاء: إن الجمهوريين هم أولئك الذين يعتبرون نظام العبيد خطأ من النواحي الخلقية والاجتماعية والسياسية؛ ولكنهم يتمسكون بدستور الاتحاد ويسيروا في تحقيق أغراضهم على نهجه؛ أما الذين لا يرون عيباً في نظام العبيد فهم الديمقراطيون؛ وهم ليسوا من الجمهوريين في شيء. . . لذلك ليس من الجمهوريين من لا يعبئون بالدستور في موقفهم من نظام العبيد مهما بلغ من مقتهم لذلك النظام. . .

وحار دوجلاس ماذا يفعل أمام تلك القوة وأمام ذلك الوضع الذي لا يدع مجالاً لمستريب فأخذ يداجي ويعبث وقد تشلب بعد ما سبق أن استأسد

وضيق لنكون عليه الخناق فطلب إليه أن يجيب على هذا السؤال البسيط في غير مداجاة (أيعتبر نظام العبيد صواباً أم خطأ)؟ وازدادت حيرة المارد الصغير وأحس أنه على جبروته يتلوى في قبضة ذلك العملاق وكأنه أمامه جذع من تلك الجذوع التي ما كانت تقوى على فأسه مهما بلغ من متانتها يوم كان يضرب بفأسه في الغابة قبل أن يعرف كيف يضرب بقلمه أو بلسانه

وعجب الناس لهذا الرجل الذي لا يرى نظيره في الرجال، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: ماذا دهى المارد الصغير؟ وكيف تسنى لابن سبرنجفيلد

المتواضع الذي لم يعرف سلطاناً ولا جاهاً أن يأخذ الطريق هكذا على ابن
وشنجلتون الجبار المدل بماله ومنعته ونفوذه؟

ولكن هاجساً يهجس في ضمائرهم أن للحق سلطاناً دونه كل سلطان، وعزة
يستخذي أمامها كل اعتزاز، ومنعة ترتد عنها كل مطاولة؛ وأن الباطل مهما
تنمر واستعدى على الحق من أساليب بهتانه وألأعيب مكره، لا يكون منه إلا
كما يكون الليل من وجه الصباح. . .

وأدرك الناس أن خير خادم للناس من يدرج من بينهم فيحس إحساسهم، ولا
يزال مهما بلغ من سمو منزلته واتساع ثقافته، قادراً أن يشاركهم عواطفهم وألا
يضيق بأحلامهم وإن صغرت حتى يتلمس فيها السبيل إلى هديهم وشفاء
أنفسهم؛ وأي هذين الرجلين ينطبق ذلك عليه؟ أهو دوجلاس الذي أثرى بغتة
بحيلة لم تتطلب منه إلا أن يشترى قطعاً من الأرض بأبخس الأثمان ثم يعمل
بنفوذه على أن تتخذ سكة الحديد فيها مجراها فيبيعها بما تمتلئ به خزانته؟
والذي باعد بينه وبين الناس وتكلف مظهراً أرسقراطياً تطرب له نفسه ولا
ترتاح إلا له؟ أم هو لنكولن الذي ما برح يأكل من كده والذي ظل في الناس
على راحة عقله وعلو همته أحد الناس، والذي لا يطيب له العيش إلا إذا
استشعرت نفسه آمال الناس وآلامهم، ولا يحلو له السمر إلا حيث يجلس في
قوم ارتفعت بينهم وبينه الكلفة وازدادت الألفة مهما يكن من الفوارق العلمية أو
الفوارق المدنية؟. . .

تحدث ابراهام مرة يصف دوجلاس فقال: لقد سوته الطبيعة بحيث أن ضربه
السوط إذا نزلت على ظهره هو تؤلمه وتؤذيه، بينما هي لا تؤلم ولا تؤذي إذا
نزلت على ظهر أي شخص سواه؛ وما كان ابراهام مسرفاً في قوله؛ وما نحن
بمسرفين إذا قلنا إن ابراهام قد سوته الطبيعة بحيث يحس ضربة السوط على
ظهره هو إذا نزلت على ظهر أحد سواه من الناس. . .

وما كان إبراهيم كما أسلفنا يطمع من وراء هذا النزال أن ينال لنفسه شيئاً؛ وهل عُرفت في خلقه غميرة منذ كان يقطع الأخشاب ليشترى بالمئات منه سروالاً؟ أو ليست كراهته لنظام العبيد ترجع إلى صدر شبابه؟ أو لم ينتز بالألم قلبه يوم سافر إلى نيو أورليانز في تجارة لأحد الناس ورأى هنالك أسواق الرقيق ووقعت عيناه فيما وقعتا على تلك الفتاة التي عرضت نصف عارية على الأنظار كأنها مهرة كريمة؟

منذ ذلك اليوم وهو يسير إلى غاية، شعر بذلك أو لم يشعر به؛ فلقد استقر في نفسه مالا تقعد معه عن العمل أو تنصرف عن الغاية، فكانت ثمة عزيمة تهون أمامها جسيمات الأمور، وكانت ثمة رسالة يحلو في سبيلها الجهاد ويطيب الاستشهاد؛ ومرد ذلك كله إلى قلب إنساني كبير ونفس مطمئنة صابرة، وبصيرة، كأنما تشرف من حاضرها على المستقبل فلا تقف من دونها حجب الغيب. . .

إنه اليوم كما أراد حزبه ينافس دوجلاس على مقعد في مجلس الشيوخ فهل كان ذلك قصارى همه؟ كلا. وما كان بعض همه أن يرقى إلى كرسي الرئاسة ذاته؛ وإنما كان همه أن تتحقق مبادئه ولو بدل في سبيلها نفسه؛ ولن يكون مقعد الشيوخ أو كرسي الرئاسة عنده أمراً ذا بال إلا أن يكون وسيلة إلى السير بمبادئه إلى حيث يعتنقها الناس؛ وإلا فما الجاه والثراء والحكم عنده إلا من صغيرات الأمور؛ وهو إنما ينفر من كل أولئك بطبعه الذي يعزف عن الزهو، ويتخوف دواعي البطر. . .

وإن أمثال ابن الأحراج هذا في تاريخ البشرية لقليلون، ولكنهم هم الذين رسموا لها طريقها، ولولوها قبلتها التي ارتضوها لها وأشاروا بأيديهم إليها، وما كان أتعس البشرية لو أنها افتقدت هؤلاء الذين يتمثل بهم ضميرهم أناساً يمشون على الأرض

قال إبراهيم ذات يوم من أيام ذلك النزال (لست أدعي أنها السادة أني غير أناني، ولن أظهار بأني لا أحب أن أذهب إلى مجلس الشيوخ، كلا لن آتي هذا الادعاء المنافق، ولكني أقول لكم إنه في هذا الجدل الصارم، ليس يعنيكم ولا يعني عامة الناس من هذه الأمة ما إذا كان القاضي دوجلاس أو ما إذا كنت أنا بحيث تستمعون عنا بعد هذه الليلة أو لا تستمعون. وبما كان هذا أمراً تافهاً بالنسبة لكلينا، ولكنه إذا اعتبر من حيث علاقته بتلك المسألة العظيمة التي ربما كان يتوقف عليها مصير هذا الشعب فانه يكون في حكم العدم)

هذا هو ابراهام رجل المبدأ لا يعنيه أن يظفر أو أن ينهزم، وإنما تعنيه تلك المسألة العظيمة؛ ولن يهدأ له بال حتى تحل أو تفسر في سبيلها إلى الحل

وأني لدوجلاس أن يقف في وجه تلك القوة العاتية؟ أنى له أن ينال من ذلك الذي يتكلم فيخيل إلى سامعيه كان الأخلاق نفسها تقول كلمتها. حاول دوجلاس أن يعبر مرة عن عدم المبالاة من جانبه في مسألة العبيد فأنبرى له ابراهام قائلاً: (إنني أبغض مثل هذا المظهر، مظهر عدم المبالاة. . . إن من شأنه أن يضعف حاسة العدالة في دولتنا، وإنه ليعطي أعداء النظام الدستوري السلمي شبه حق أن ينظروا إلينا كأننا منافقون، كما أنه في نفس الوقت يمد أنصار الحرية الحقيقيين بسبب وجهه لتشككهم في إخلاصنا). . . وقال في معرض آخر:

(إنكم باعتمادكم أن تطنوا حقوق غيركم إنما تفقدون بذلك حقيقة استقلالكم أنتم، وتصبحون طعمة لكل طاغية يخرج من بينكم. دعوني أخبركم أن مثل هذا إنما يعده لكم منطق التاريخ، إذا جاءت أدوار الانتخاب الآتية بحيث تجعل الحكم في قضية دردسكت التالية وغيره من الأحكام أمراً يقبله الناس. إنكم تستطيعون أن تخذعوا كافة الناس رداً من الوقت وبعض الناس طول الوقت، ولكنكم لن تستطيعوا أن تخذعوا جميع الناس طيلة الأبد)

بمثل هذا المنطق السائع، وبمثل هذه العبارات السهلة الأخاذة كان ابراهيم يأخذ الطريق على دوجلاس في غير مشقة؛ وكان الناس كأنهم يلمسون الصدق في هذه العبارات وأمثالها؛ وهم واثقون من نزاهة غرضه وشرف مقصده. . .

ويريد ابراهيم أن يصور موقف كل من الولايات القديمة والولايات الجديدة من نظام العبيد، فيصل إلى غايته في وضوح ويسر بعبارته الآتية التي أعجب بها السامعون، قال: (إذا أنا أبصرت ثعبانا قاتلاً يزحف في طريق فأني رجل يقول بأن لي أن اعمد إلى أقرب عصا فأقتله؛ ولكني إذا وجدت هذا الثعبان في السرير بين أطفالي فإن المسألة تتخذ وضعاً آخر فأني ربما آذيت أطفالي أكثر مما أؤذي الثعبان وربما عضني ذلك الثعبان. وتختلف المسألة أكثر من ذلك إذا أنا وجدت ذلك الثعبان في سرير أطفال جاري وكنت على اتفاق وثيق مع ذلك الجار ألا أتدخل في شؤون أطفاله مهما يكن من الأمر. . . ولكن إذا كان هناك سرير قد صنع حديثاً وأُزِمَ حمل الأطفال إليه واقترح أن يحمل إليه عدد من الثعابين توضع مع الأطفال، فليس في الناس من يرى أن هناك اختلافاً في أي الطرق أسلك)

ولقد عرفنا فيما سلف من خلال ابراهيم قدرته على التهكم، ورأينا كيف يرشق خصومه في ساحة القضاء بتهكماته حتى يزلزل أقدامهم، كل ذلك في عذوبة روح وترفع عن الإساءة وحذر شديد أن يخرج إحساس أحد؛ وها هو ذا اليوم في مناظرته دوجلاس يعمد إلى ذلك السلاح في مهارة يضيق عنها ذكاء خصمه وتتخلف دونها بديهيته، ويذهل عندها مكره. استمع إليه كيف يسفه وسائله ويزيف آراءه، وقد رأى منه أنه غير رأيهِ وأنكر رأياً سالفاً له (أقول إنك خلعت قبعتك، وإنك تثبت أنني كاذب بوضعها على رأسك من جديد؛ وهذا هو كل مالك من قوة في هذا الجدل) ثم انظر إليه كيف يحمل الناس على الضحك بأن يستخرج من إحدى عبارات دوجلاس ما يشبه القانون الرياضي، قال دوجلاس: (إذا كان النضال بين رجل من البيض وبين زنجي فأني أقف

إلى جانب الأبيض، أما إذا كان بين زنجي وتمساح فإنني مع الزنجي) فأجاب ابراهام بقوله (يستنتج من ذلك أن الرجل الأبيض من الزنجي كالزنجي من التمساح، وعلى ذلك فبقدر ما يكون من الحق في معاملة الزنجي للتمساح يكون منه في معاملة الرجل الأبيض للزنجي)

ولم يدع ابراهام قولاً مما ساقه دوجلاس مساق المبادئ إلا حمل عليه وكشف عما فيه من بهرج، ومن ذلك ما أعلنه دوجلاس في مسألة نبراسكا وأبى إلا أن يسميه مبدأ سيادة الشعب؛ قال ابراهام: (مبدأ سيادة الشعب معناه حق الشعب أن يتولى حكم نفسه، فهل اخترع ذلك القاضي دوجلاس؟ كلا؛ فلقد اتخذت فكرة سيادة الشعب طريقها قبل أن يولد صاحب مشروع نبراسكا بعصور، بل قبل أن يطأ كولمبس بقدميه أرض هذه القارة. . . فإذا لم يكن القاضي دوجلاس هو مخترع ذلك المبدأ فدعنا نتتبع الأمر لتبين ماذا اخترع. أهو حق المهاجرين إلى كنساس ونبراسكا في أن يحكموا أنفسهم وعدداً من الزنوج معهم إذا أرادوا ذلك؟ يظهر في وضوح أن ذلك لم يكن من اختراعه، لأن الجنرال كاس قد أعلن ذلك قبل أن يفكر دوجلاس في مثله بست سنوات. . . وإذا فماذا اخترع المارد الصغير؟ لم يخطر على بال الجنرال كاس أن يسمى اكتشافه بذلك الاسم القديم ألا وهو سيادة الشعب. أجل لقد استحي أن يقول إن حق الناس أن يحكموا الزنوج هو حق الناس أن يحكموا أنفسهم. وهنا أضع تحت أنظاركم اكتشاف القاضي دوجلاس بكل ما فيه؛ لقد اكتشف أن تربية العبيد والإكثار منهم في نبراسكا هو سيادة الشعب)

رأى دوجلاس يعمد إلى المداجاة، ويجهد أن يلبس الحق بالباطل فشبهه بنوع خاص من السمك من خصائصه أن يفرز مادة سوداء كالمداد يضل بها الصيادين، فهو لا يفتأ يرسل من العبارات الجوفاء ما يرمي به إلى التعمية وطمس الحقائق. . . والناس يضحكون مما يقول ابراهام معجبين به مستزيدين منه. . .

ولقد رأى أبراهام في ذلك الصراع فرصة قلما تتاح له مثلها فعول ألا يدع في مسألة العبيد شيئاً غامضاً، وأخذ يقلبها على وجوها في سهولة تستهوي الألباب، تلمس ذلك في مثل قوله عن المتمسكين بمبدأ العبيد، قال: (إن مبدأ الاستعباد عندهم يظهر لي كما يأتي: ليست العبودية صواباً من جميع الوجوه، وليست كذلك خطأ من جميع الوجوه، وإن من الخير لبعض الناس أن يكونوا عبيداً، وأنهم في هذه الحال يكونون خاضعين لإرادة الله. . . حقاً ما كان لنا أن نعارض مشيئة الله، ولكن لا تزال هناك صعوبة في تطبيقها على بعض الحالات الخاصة، فمثلاً لنفرض أن هناك شخصاً اسمه الدكتور روس الموقر يملك عبداً اسمه سامبو فأنا نتساءل هل مشيئة الله أن يظل سامبو عبداً أم هي أن يطلق صراحه؟ وإنا لن نظفر من الله بإجابة مسرعة عن هذا السؤال، ولن نجد في كتابه الإنجيل جواباً لذلك، أو لا نجد في الغالب إلا ما هو من شأنه أن يثير الجدل حول معناه. . . ولا يفكر أحد أن يسأل ما رأي سامبو في ذلك. وعلى ذلك يترك الأمر في النهاية للدكتور روس ليفصل فيه؛ وبينما هو يفكر في الأمر تراه يجلس في الظل وعلى يده قفازه يفتات بالخبز الذي يكسبه سامبو تحت الشمس المحرقة، فإذا هو قرر أن مشيئة الله هي أن يظل سامبو عبداً فإنه بذلك يحتفظ بموضعه المريح؛ أما إذا قرر أن مشيئة الله هي أن يصير سامبو حراً فإن عليه أن يخرج من الظل وينزع قفازه ويكدح من أجل خبزه؛ فهل يفصل الدكتور روس في الأمر بما تقضي به النزاهة التامة التي لا بد منها في كل فصل حق؟)

وانتهى ذلك الصراع الذي اشتهر أمره، فكان نصيب الجمهوريين من المؤيدين مائة وخمسة وعشرين ألفاً؛ ونصيب الديمقراطيين دون ذلك بأربعة آلاف؛ ولكن مجلس الولاية التشريعي هو الذي كان يختار عضو مجلس الشيوخ، وكان بهذا المجلس أربعة وخمسون عضواً من الديمقراطيين وستة وأربعون من الجمهوريين؛ ولذلك فاز دوجلاس فصار عضو مجلس الشيوخ!

ولقد عد انتصاره في نظر بعض المؤرخين بعد هذا الصراع أعظم انتصار شخصي في تاريخ أمريكا السياسي. . .

وهكذا يفشل ابراهام مرة أخرى في الحصول على مقعد في مجلس الشيوخ، ويخطئ دوجلاس دونه بذلك المقعد؛ ولكن ابراهام على عادته لا يعبأ بهذا الفشل، بل إنه ليستشعر الراحة بينه وبين نفسه أن استطاع أن يسمع تلك الآلاف صوته؛ وإنه ليحس أن مبادئه قد أخذت سبيلها إلى قلوب الكثيرين منهم على صورة طالما مني نفسه بها، وأي شيء هو أحب إليه من ذلك؟

لقد أصبح اسمه على كل لسان، وصار يعتبر من رجال أمريكا المعدودين، وأضاف الناس في الشمال إلى ألقابه لقباً جديداً فقالوا لنكولن (قاتل المارد)، وطننت باسمه الصحف؛ ومن ذلك ما قالته نيويورك ايفنج بوست، (لم يصل رجل في هذا الجيل إلى الشهرة في قومه بمثل تلك السرعة التي وصل بها لنكولن في هذا الانتخاب)؛ وكتب إليه رجل غريب عنه يقول: (إن مثلك اليوم كمثل بيرون الذي أفاق ذات يوم من نومه ليجد نفسه ذائع الصيت؛ إن الناس يستنبئون عنك بعضهم بعضاً، لقد قفزت دفعة واحدة من محام له الصدارة في الينواس إلى الشهرة القومية)

أما هو فقد وصف شعوره يؤمئذ بقوله: (مثلي مثل الصبي الذي اصطدم إصبع قدمه بشيء ألمه، فكان الألم أشد من أن يصحبه ضحك وكان الصبي أكبر من أن يبكي). . .

ولاقى ابراهام عنثاً من بعض خصومه في تبرسبرج، فلقد أرادوا إيذاءه فتصايحوا ضده، وأسمعوه من البذاء ما أعرض عنه إعراض المؤمنين الصابرين. . . ولكنه في أتاوا استقبل استقبال الفاتحين فحملة شباب المدينة على أعناقهم والألوف تهتف به؛ وهو ضائق بهذا يقبله على رغمه ولو أنه استطاع أن يفلت منه لفعل ذلك مسرعاً ولكنه لا حيلة له فيه؛ وما كان أشبهه ساعتئذ بالخليفة الثاني عمر حين صاح بقومه أن كاد يقتله الزهو!

أجل؛ لقد تبرم لنكولن بهذا الزهو، فما كان من شيمته أن يزهي، ولا كان من خلقه أن يترفع أو أن يطغى؛ بل كان لا يتزايد حظه من الصيت إلا تواضع، ولا يعظم نصيبه من النفوذ إلا خفض جناحه وألان جانبه للناس جميعاً، أولياؤه وخصومه في الرأي في ذلك سواء. . .

وعاد إبراهيم إلى سبرنجفيلد بعد أن قضى في ذلك النزال أكثر من شهرين؛ عاد إلى زوجته وأولاده فلقبته ماري راضية عنه على الرغم من إخفاقه في الحصول على مقعد في مجلس الشيوخ. أو ليست ترى الصحف كلها تذكر زوجها وترى أكثر صحف الشمال تطنب في مدحه وتعهه بطلاً من أبطال قومه؟ أو ليست هذه هي النعمة التي يحلو لها سماعها؟ وأي شيء أحلى في قلبها وقعاً من أن ترى نفسها زوج رجل عظيم يعترف الناس بعظمته. . .

وأقبل على المحاماة من جديد فلقد أنفق في هذا الصراع من المال ما أرهقه من أمره عسراً؛ هذا إلى أنه بانقطاعه طيلة تلك الأيام عن مهنته لم يكسب من المال شيئاً؛ وهكذا يعود ابن الغابة إلى كدحه ليقيم أوده وأود أسرته بينما يذهب دوجلاس الثري يرفل في النعمة إلى وشنجطون ويجرر ذيل الخيلاء السابغ الضافي

عاد المحامي يكدح من أجل قوته كدحاً شديداً، ويأخذ قسطه من النصب مع صديقه هرنندن؛ وكان قد تركه وحده طيلة ذلك الصراع العنيف، فهو بذلك يخرج من جهد إلى جهد؛ والناس يعجبون من تلك القوة البدنية التي ما زال يتمتع بها قاطع الأخشاب في الغابة بالأمس وهو اليوم قد ناهز الخمسين أو كاد. وإن به بعد عودته هذه لحاجة شديدة إلى المال فهو اليوم ذو عسرة؛ وإنه لن يطلب المال ليستعين به في الوصول إلى جاه كما يفعل دوجلاس ومن على شاكلته من الناس، بل لينفق منه فيما باتت تطلبه السياسة من أوجه الأنفاق؛ وإنه ليفطن إلى أن عودته إلى المحاماة إنما هي إلى أجل قريب، فلقد خطا في السياسة خطوة لن يكون بعدها نكوص

ولم يجعل إبراهيم للمحاماة كل همه كما كان يفعل من قبل حينما كان يمني بالفشل في السياسة؛ فأن للسياسة اليوم نصيباً كبيراً من وقته ومن جهده؛ فهو يقرأ الصحف قراءة تمعن ليرى ماذا يقول الناس في مسألة العبيد، ولينظر في الأمر ليتعرف كيف يتطور وغلى أين يتجه البلاد فيه؛ وهو يدعم بنيان حزبه في أليْنواس ويعدله ما استطاع من قوة يعتد بها في غد

ونظر الناس إليه اليوم نظرهم إلى ذي جاه، ويشيرون إليه في إعجاب وإكبار، وهو يحس هذا فلا يزداد إلا دعة وليناً؛ فيدل بذلك على أن عظمته عظمة حقيقية تبدو للناس في أبسط مظهر لها فتكون بذلك في أبهى مظاهرها.

والعظمة الحق كالذهب الحر في بساطة جوهره وبهاء منظره ولن يخرج الذهب عن صفته إذا وجد غفلاً من الزخرف؛ والنحاس مهما أدخل عليه من النقش والزينة لن يكون إلا نحاساً؛ والعظمة الحق هي التي تخلق الرجال وتبنيهم، وليست هي تلك التي يختلقها الرجال فيكون الواحد منهم بما يتصنع ويتكلف كالذي يحظر في حلة رائعة وهو لا خلق له؛ فلا تخفى الحلة سمته، ولا يكون منها إلا أنها تظهره أقبح منظراً وأقهر أمراً؛ فهو إنما ينبه الناس بما

ينتحل ويدعى لنفسه من أوجه الكمال إلى حقيقته فيرون أنه ليس بالكبير ولكنه يتكبر، ولا تقع أعينهم منه إلا على مظهر وإن كان ليخيل إليه أنه جوهر. . .

ولقد كان لنكونن يفعل الفعل أو يرى الرأي في أمر من الأمور عن لقانة مدهشة وطبع معجب بكماله، فإذا رددت فعله أو رأيه على ما تواضع الناس عليه من عرف وما اتفقت عليه عقولهم وقلوبهم ما وجدت فيه شذوذاً ولا نقصاً؛ بل إنك لتراه حقيقاً أن يسير الناس كما يرمم، كأنه في أعماله كوكب في هذا الفلك الدائر يتحرك وفق نظام محدود فلا يضطرب ولا يتذبذب إلا أن ينفرط عقد ذلك النظام.

وكان من أحب الأشياء إلى نفسه أن يرفع الناس بينهم وبينه الكلفة، فهو يصاحبهم ويعاشرهم كأنه أصغرهم قدراً؛ وهو على كثرة بره بهم لا يبتغي على معروف جزاء وكان إذا غشى مجلساً لهم رآهم يتحنون له عن مكان الصدارة فيأبى إلا أن يجلس حيثما اتفق له؛ وإنه ليستحي أن يناديه الناس باسمه مجرداً عن كل لقب يراد به التعظيم وهو عندهم أيب الأمين أو أيب العجوز أو هما معاً، وهي ألفاظ لها في أذنه سحر الغناء لأن فيها جمال الصدق وجلال التواضع. . .

وحسبك دليلاً على جمال نفسه وطيب عنصره أنه طلب إليه يومئذ أن يكتب كلمة فيها ملخص حياته لتكون مرشداً إلى ترجمة توضع له فلم يشر إلى أنه نشأ في الغابة من أبوين فقيرين، وأنه عمل منذ صغره على كسب قوته فساعد أباه تارة واشتغل أجيراً تارة، وأنه تعلم القراءة والكتابة دون مساعدة تذكر من جانب غيره، وأنه ذهب إلى نيوار ليانز في تجارة لأحد الناس وأنه أشتغل بعدها صبيّاً في حانوت، وأنه عمل في تخطيط الأرض وفي توزيع البريد، وأنه عالج الحمامة حتى حذقها، وأنه اختير عضواً في مجلس الولاية. . . كل أولئك دون أن ترى في كلمته هذه العبارة تشعر بفخر أو تنم على الزهو، حتى أنه ما

استطاع أن يشير بكلمة إلى ما أصاب من نجاح في السياسة، وهو إن فعل لم يك يعدو الحقيقة في شيء. . .

رجع إبراهيم إلى سبرنجفيلد ولكن اسمه ملء الأسماع في كل مدينة من المدن الكبيرة وخاصة في الشمال؛ والصحف لا تفتأ تشير إلى ما كان بينه وبين دوجلاس، ولا تكاد تذكر مسألة العبيد إلا مقرونة باسمه؛ ثم أن مسألة العبيد تذكر اليوم معها مسألة أخرى هي مسألة الوحدة، فقد أخذت تزداد في الجنوب دعوة الداعين إلى الانفصال عن الشمال؛ وكان خصوم إبراهيم يجتهدون أن يرجعوا إليه وإلى الحزب الجمهوري السبب في هذا الانفصال إذا تم، وكانوا يسمونه الجمهوري الأسود حقاً عليه وكيداً له. . .

وانهالت عليه الدعوات من مدن كثيرة في الشمال ليخطب الناس فيها، فأعرض أول الأمر عن إجابة هذه الدعوات قائلاً: إنه إن ترك عمله في المحاماة مدة كما فعل من قبل فسوف يعدم قوته؛ ولكن خصومه لن يدعوا الكيد له ولن يتوانوا عن تشويه مبادئه والطعن عليه بكل فاحش من القول وباطل من الاتهام؛ وإذا فإلى مجادلتهم من جديد ما من ذلك من بد. . .

وكانت ماري على ما به من خصاصة تطلب منه الكثير من المال لتظهر به في المظهر الذي يليق بما أصبح له من مكانة؛ وهي في الوقت نفسه لا تنفك تستعجله في السياسة وتحرص ألا يتهاون في أمر من أمورها

ولقد عظمت ثقته بنفسه؛ ولكن تواضعه يغلب عليه فيرى نفسه بين عاملين يتنازعانه، فبينما هو يفتن إلى قوته ويحس أن منطق الحوادث يسير به إلى حيث يصبح رجل الساعة، إذا به - وكأنه يخشى الخيلاء - ينظر إلى نفسه نظرة لولا ما عرف عنه من الصدق والصراحة لأخذت على أنها نوع من المكر يلجأ إليه لغاية في نفسه. فهو يسر إلى صديق له أثناء منازلته دوجلاس أن امرأته تتوقع أن سيصبح رئيس الاتحاد، ثم يقول لهذا الصديق وهو يضحك

ملء نفسه ويداه تعتقلان ركبتيه وهو مستلق على ظهره: (صور لنفسك يا صاحبي كيف يصير أبله مثلي رئيساً)

يا الله لهذا الرجل! ولكن المبدأ عنده كما أسلفنا فوق كل اعتبار آخر، وما الرياسة عنده إلا غرور ما لم تكن وسيلة إلى تحقيق ما استقر في نفسه، لذلك كان يجهد ويدأب كلما خاف على مبادئه أن تعصف بها الأهواء والمغالطات، ولم يخطر بباله يوماً ما أن يخطو خطوة واحدة من أجل غرض شخصي

وكان لا يزال يرى في دوجلاس أخطر خصومه، لا لما كان بينهما من منافسة، بل لما كان يمتاز به ذلك الرجل من المكر الشديد والمقدرة على أن يخدع الناس في سياسة بلادهم ليصل من وراء ذلك إلى تحقيق أطماعه الشخصية وهو لا يراعي في الحق إلا ولا ذمة

وكان دوجلاس لم يكفه ما كان من جدال فحمل في أهايو على الحزب الجمهوري وقذفه بما شاء من اتهامات. فذهب لنكولن وخطب الناس في كولمبس وسنسناتي، وفي هذه المدينة أعلن سياسته في صراحة وجلاء، قال: (إنني أعلن أول الأمر لأهل كنتولي أنني كما يقولون - ولكن كما أفهم أنا - جمهوري أسود؛ إنني أعتقد أن نظام العبيد خطأ خلقي وسياسي، وإنني أود ألا تنتشر العبودية من بعد في هذه الولايات المتحدة!

ولم يقتصر كلامه على نظام العبيد بل تكلم في شؤون أخرى كانت تهم الناس، منها راس المال ونظام العمل، ولقد أطرب في ذلك السامعين وملك مشاعرهم؛ ولما رأى إقبالهم على هذا الحديث أعاده في سوق جمعية زراعية في حفل أقامته بعد ذلك بأسبوعين فقال أنه يرى رأس المال مديناً في وجوده للعمل، فللعمل لذلك أهم وأعلى منزلة، وإن خير عمل هو ما يقوم به الفرد الحر الذكي المستقل الذي يعد دخر البلاد وعتادها. . .

وفيما هو ينافح عن حزبه ويجادل خصومه في مبادئه إذ وقع في البلاد حادث جديد زاد هياجها وكان مثله مثل الزيت يلقى به على النار وذلك هو

حدث جون برون، فإن هذا الرجل على كبر سنه قد أعلن الثورة لتحرير العبيد، ولقد كانت له قبل ذلك بثلاث سنوات حركة جريئة لنصرة قضيتهم في كنساس، وقد عول اليوم أن يذكي نار الثورة في البلاد إذ لم يطق صبراً على بقاء هذا النظام البغيض، وكان أهل الجنوب قد قتلوا ابنه من قبل وباتوا يتربصون به ليقتلوه هو. . .

خرج هذا الرجل في ثمانين لا أكثر من الرجال، منهم خمسة من الزنوج؛ وكان قلبه يفيض حماسة، فأعلن خطته في جراءة الأبطال واستهتارهم بالموت، ألا وهي حق كل زنجي أن يثور على مالكة، فليس أمام هؤلاء الزنوج غير القوة؛ ولكن جون برون لم يكد يخطو الخطوة الأولى ويستولي على مركز يجعله قاعدة لحركته حتى غلب على أمره فحوكم وأعدم. . . ولقد قابل الموت بجنان ثابت ونفس هادئة. ولما حانت منيته استنزل لعنة الله على الظالمين أعداء الحرية. . .

واغتنى جون بجرأته ثم بميتته هذه بطلاً عند دعاة التحرير في الشمال؛ وأخذوا ينظمون الأناشيد في بطولته ويجعلونه رمزاً لأحرار الشمانل ومثالاً يجب أن يحتذيه كل من كان له قلب يخفق بحب الحرية. . . ويرى دوجلاس في هذا الحادث فرصة يحذر أن تفوته، فيعلن أن ذلك ليس بعجيب فلن تفضي مبادئ الجمهوريين إلا إلى مثله. . .

وأدرك لنكولن خطر التهم، ولو كان غيره مكانه لأخذته مما رمى المارد الصغير ورطة؛ ولكن صوت الحق لا يضيع في ضجيج الباطل؛ فهذا لنكولن يتلقى دعوة من جماعة في نيويورك فيلبي مسرعاً ويلقي خطاباً من أبداع وأروع ما وافته به عبقريته وفي جمع لم يسبق أن وقف في مثله

احتشد لسماعه في تلك المدينة العظيمة جمع من كبار الساسة وقادة الرأي وذوي الثقافة وأساطين الصحافة، فكان لهذا الحفل بهم مهابة وجلال وخطر. . . واحتشد كذلك عدد هائل من عامة الناس ليروا لنكولن، هذا الذي كان يشتغل

نجاراً أول ما نشأ فاستطاع أن يرقى حتى يقف من دوجلاس الشهير موقف الند من نده وأن يظهر عليه في الخطابة والمجادلة. . .

ولقد ارتاع فواده عند ما بلغ مكان الاجتماع وذلك حينما رأى هؤلاء السادة في ملابسهم الأنيقة، ورأى في وجوههم نضرة النعيم وفي أحاديثهم وتحياتهم روح المدنية؛ ولما نهض للخطابة شاهد بعض الناس علامات الحيرة عليه، فقد كان على غير ما ألف مشغول البال بملابسه المتهدلة العتيقة التفصيل والحياسة والتي تبدو بمقارنتها بما يقع عليه بصره كأنما جيء بها من متحف

وتطلع عامة الناس إليه في دهشة، وتقسمت ألحاظهم بين قامته الطويلة ويديه الكبيرتين اللتين تدلان في جلاء على أنهما خلقتا للمعول لا للقلم، ووجهه المصفار المسنون الذي تغشاه سحابة عميقة من الهم، وعينيه الواسعتين اللتين تعبران عن وداعة الأطفال وحماسة الأبطال، وأنفه الأشم الغليظ الذي يترجم عن صرامة عزيمته وشدته في الحق، وشعره الأشعث الذي يعلو رأسه الكبير في غير نظام كأنه ألاف الغابة. . .

وكان صوته في أول الأمر خافتاً، ولكنه أخذ يعلو حتى ملأ الأسماع. وصفه أحد الحاضرين فقال: (أخذ وجهه يضئ بما في باطنه من نيران. . . وجلجل صوته وعظمت قوة خطابته، واتفق له إلى حد كبير مثل سهولة الإنجيل البالغة. . . وكان يسود المكان صمت عميق بينما هو يتكلم حتى لقد كان إذا سكت يسمع هسيس الغاز منبعثاً من ثقوب المصابيح، فإذا تحمس السامعون دوت في جنبات المكان رعود قاصفة من الاستحسان)

ولقد عد خطابه هذا من أبلغ الخطب السياسية قاطبة. قال عنه جريلي - وهو الذي رأيناه قبل ذلك بعامين يدعو إلى أن ينضم دوجلاس إلى الحزب الجمهوري ففقد بذلك مودته -: (ما من رجل استطاع أن يبلغ لأول مرة بخطابه إلى مثل هذا الأثر الذي بلغ إليه لنكولن أمام جمهور المستمعين في نيويورك)

عاد لنكولن فأوضح خطة الحزب الجمهوري بما لا يدع مجالاً من بعد
لدسائس خصومه، ثم استنكر ما فعله جون برون ومما ذكره في ذلك قوله: (لا
يمكننا أن نعارض في الحكم على جون برون جزاء خيانتة ولاية من ولايات
الاتحاد، لا يمكننا أن نعارض في ذلك ولو أنه يوافقنا فيما يراه من خطأ نظام
العبيد فان ذلك لا يبرر العنف وسفك الدماء والخيانة)

وأقبل عليه الناس كبيرهم وصغيرهم عالمهم وجاهلهم يهنئونه بما ظفر به
من توفيق في هذا الحفل المشهود، ويعلنون إليه حبهم وولاءهم وإعجابهم
بمبادئه. ولقد طار صيته بهذا الخطاب عل نحو لم يرى مثله من قبل، وأخذ
الناس يحسون أنه الرجل الذي تجتمع عليه القلوب والأهواء. ولقد رأى
الصحف وهو في طريقه إلى سبرنجفيلد تتحدث عن ترشيحه للرئاسة في
الانتخاب الذي يحل ميعاده في نهاية هذا العام. . .

وكان ابراهيم في الحادية والخمسين من سني عمره بينما كانت تتأهب البلاد لانتخاب رئيس جديد للولايات إذ كان عام ستين وثمانمائة وألف هو نهاية مدة الرئيس القائم؛ وكان انتخاب رئيس الولايات أهم الحوادث السياسية التي تشهدها البلاد، وإنه لأعظم خطر اليوم وأبعد في مصير البلاد أثراً؛ ذلك أن الانتخاب إنما يقوم هذه المرة على ما يشغل الناس في أمر العبيد وفي أمر الوحدة، لهذا كان ذلك العام نقطة يبدأ منها تاريخ البلاد عهد جديداً ويتدرج في مسلك جديد. . .

وكان الحزب الجمهوري وهو الذي ينتمي إليه ابراهيم ويعد من أبرز رجاله، أقوى الأحزاب نفوذاً وأعزها نفراً، إذ كانت مبادئه أقرب من غيرها إلى قلوب الناس في الشمال فهو يعمل على أن يحول دون انتشار العبيد وهو يكره نظام الاستعباد ولكنه يرفع جانب الدستور في كل ما يقول أو يعمل

أما الحزب الديمقراطي فقد هان على الناس أمره بانقسامه وتنازع رجاله؛ ففريق من أهل الجنوب يكرهون اليوم دوجلاس لما كان منه أيام مجادلاته مع لنكولن. . . أو لم يصرح إن لكل ولاية الحق كل الحق أن تقضي على نظام العبيد فيها متى شئت ذلك، فوقع بتصريحه هذا في حبال خصمه؟ ثم إن فريقاً من الديمقراطيين في الشمال قد كرهوا منه معارضته الرئيس بيو كانون في دستور كنساس حتى لقد فكر بعض الجمهوريين في ضمه إلى حزبهم! وإنه اليوم ليحني ثمار غرسه. وهل كان له أن يجني من الشوك العنب؟. . . لذلك فشل الديمقراطيون حينما عقدوا مؤتمراً لهم ليجمعوا أمرهم على رجل يعدونه للرئاسة وانفض مؤتمروهم وقلوبهم شتى.

وأخذ الجمهوريون يستعدون للمعركة القادمة فامتلات صحفهم بفيض أقلامهم، وماجت كبريات البلاد في الشمال بمظاهر نشاطهم ومعالم استعدادهم. ففي ربيع ذلك العام الفذ عقد الجمهوريون في أليينواس مقاطعة لنكولن، مؤتمراً لينظروا في نشر الدعوة له في الولايات ليحظى ابراهيم بترشيح

الحزب إياه في مؤتمره العام ليكون رجله في انتخاب الرئاسة! وفي ذلك المؤتمر التمهيدي الذي عقد في مدينة ديكاتور اشتدت حماسة المؤتمرين لإبراهام فما تهتف الألسن إلا به وما تحنو الجوارح إلا عليه؛ ولا يقتصر الأمر على المؤتمرين فههو ذا جمع حاشد من الناس يهتف به في شوارع المدينة، وعلى رأس هذا الجمع ابن عم له كان يعمل معه في شق الأخشاب قبل ذلك بثلاثين سنة. . . أنظر إلى ابن عمه هذا يحمل العلم على قطعتين شوهاوين من الخشب، وهو ينبئ الناس في زهو أنهما من صنع أبراهام قطعتهما فأسه يوم كان يعمل في الغابة، فهو من الناس وللناس! ثم انظر إلى وجوه القوم كيف تتهلل بشراً، واستمع إلى ألسنتهم كيف تضيف إلى ألقاب أبراهام التي ألفوها لقباً جديداً، فهو أيب الأمين وهو أيب العجوز وهو أيب فالحق الأشجار. . .

وانعقد في الصيف المؤتمر الجمهوري العام في شيكاغو، وتدارس المؤتمرين طويلاً ثم أعلنوا ما اتفقت عليهم كلمتهم من المبادئ، فلم تخرج عما أوضحه أبراهام في خطبه وأحاديثه، وقد احتشد في تلك المدينة عدد عظيم من أهلها ومن غير أهلها بلغ أربعين ألفاً ليشهدوا هذا المؤتمر العظيم والتفت تلك الجموع حول مكان الاجتماع. . .

وجاء دور الانتخاب واجتمع ممثلو الولايات لاختيار رجل يمثل الحزب جميعاً، وجرت في القاعة أسماء خمسة أشخاص يختار منهم واحد، من هؤلاء لنكولن من سبرنجفيلد وسيوارد من نيويورك. . . وكان سيوارد في نظر أهل الشمال الزعيم الحقيقي للحزب الجمهوري فهو رجل واسع الثقافة عظيم الخلق يحب بلاده ويكبرها وهو كإبراهام يمقت نظام العبيد وقد ظل يحاربه زهاء ربع قرن في غير هوادة.

وظن الناس وشاع فيهم بادئ الأمر أن الأمر سيتم لسيوارد في هذا المؤتمر! وكذلك ظن سيوارد فلم يكن يحس منافسة أبراهام إياه؛ أما أبراهام فكان فؤاده

يحدثه أن النصر له هذه المرة فهو يحس في أعماق نفسه دون أن يدري لما يحس سببا أنه عند الناس أرحج كفة من صاحبه وأن شبه لهم غير ذلك

ولكن القلق يساوره أحياناً وهو جالس في سبرنجفيلد في قاعة أحد أصدقائه من رجال الصحافة أثناء انعقاد المؤتمر فهو يقول لهذا الصديق (إني أعتقد يا صديقي أنني سأعود ثانية إلى مكتب المحاماة وأعمل عملي في القانون. . .) ثم يعاوده الأمن برهة ويخالجه الشك برهة كما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال حينما ينتظره المرء عاقبة أمر يهمه؛ وأي أمر هذا الذي كان يتوقع إبراهيم عاقبته؟ إنه اليوم في مفرق الطرق من حياته، فإما إلى رسالته وإما إلى حرفته.

لقد طال به الانتظار حتى كاد أن يسأم، ولم يأتئه نبأ عن المؤتمر فليصرف إلى القراءة حيناً، وإنه لكتاب شعر لبيرنز، هذا الذي يقلب صفحاته، ويقرأ كما يقرأ المرء في مثل تلك اللحظات بعينه أكثر منه بعقله؛ ولكنه يدع الكتاب ليفكر ولينتازع فؤاده الشك واليقين. . .

والمؤتمر منصرف إلى عمله في شيكاغو يفتتح في رواية البلاد فصلاً جديداً سوف يترتب عليه كل ما يليه من فصول. . . والناس من حوله يموج بعضهم في بعض، وهم يتساءلون لمن يكون النصر؟ فيؤكد هذا بأن النصر لسيوارد في إشارة حازمة ولهجة جازمة، فيقبل عليه جماعة منهم فرحين؛ ويصيح ذاك: كلا بل النصر لفالق الأخشاب. فيتهافت عليه كثيرون. . .

وتعلن نتيجة الدفعة الأولى للولايات فإذا سيوارد يزيد على إبراهيم بسبعين صوتاً وصوت، فيهتف أنصار سيوارد ويكتب أصحاب إبراهيم. . . وتعلن الدفعة الثانية فإذا إبراهيم لم يبق بينه وبين سيوارد سوى ثلاثة أصوات. . . ويسود الصمت في جنبات المؤتمر وقد علقت الأنفاس وشخصت الأبصار وخفقت القلوب وتأهب رجال الصحافة لتلقي النبأ الأخير. وما هي إلا لحظة حتى يرتفع صوت باسم لنكولن، فهبت في المكان عاصفة هائلة من الهاتف والتصفيق تجاوبها خارجه عاصفة أشد منها قوة وأطول أمداً إذ يظل الناس

يتعانقون ويتصايحون ويقذفون بقبعاتهم في الهواء ويتواثبون ويرقصون زهاء ربع الساعة كأنما مسهم طائف من الجنون. .

وابراهيم في غرفة صاحبه في سبرنجفيلد يوجس خيفة في نفسه طوراً، ويثق في النصر طوراً، وحوله جماعة من أنصاره ينتظرون كما ينتظر، وإنهم كذلك إذ يقبل شاب من مكتب البرق يحمل رسالة ويظفر بها كما يظفر العصفور من المرح ويقبل على ابراهيم فيحمل إليه النبأ السار، ثم يهيب بالحاضرين أن يهتفوا ثلاث مرات لأيب الأمين رئيس الولايات المقبل. . .

ويقبل على ابراهيم صاحبه وفي مآقيهم دموع الفرح وعلى ألسنتهم ما لا يفي بالتعبير عما في قلوبهم من معاني الابتهاج، وهو منشرح الصدر مثلج الفؤاد ولكنه واقف بينهم معقود اللسان لا يجد من الكلام ما يفصح عما في نفسه، وبعد برهة يقول لهم: (إن امرأة صغيرة قصيرة هنالك في بيتنا يسرها أن تعلم هذا النبأ. يقول ذلك ويمضي مسرعاً إلى ماري فيفضي إليها بأجمل وأبهج ما انفرجت عنه أمامها شفتاه. . .

ويأتي بعد ذلك وفد من قبل الحزب يعلن إليه رسمياً نتيجة الانتخاب فيلقاهم ابراهيم في داره، فما يبرحونها إلا وقد ارتبطت قلوبهم بقلب ذلك الرجل العظيم. . . وهكذا يظفر ابراهيم لنكولن فالحق الأخشاب بتأييد أكبر حزب في البلاد. . . هكذا يظفر النجار ابن النجار فيصبح رجل الساعة ومناطق الرجاء في قومه

ولبت ابراهيم نحو أربعة أشهر في سبرنجفيلد حتى حان موعد الانتخاب للرئاسة، لبت في المدينة هذه المدة فما عهد عليه أحد من أهلها أدنى تغير عما كان عليه، فهو في الناس فرد منهم وإن كان بسبيل أن يذهب عما قريب إلى البيت الأبيض. . . وهل كان مثله يتغير حتى بالذهاب إلى هذا البيت العتيق؟ وهل كانت عظمتة إلا منبعثة من نفسه حتى يتكبر أو يطغي؟ إنما هو من الناس وللناس ولسوف يظل أول خادم لهم حتى تزهق روحه في سبيل مبدئه. . .

وظلت سبرنجفيلد أياها في ابتهاج ومرح وإبراهام يلقي الوفود في داره خافضاً لهم جناحه باذلاً لهم من وده وحبه أكثر مما يبذلون وهم معجبون برجلهم الذي استحق محبتهم وظفر بتأييد كبارهم وتعظيم صغارهم. . . يعجبون منه بكل شيء وخاصة ذلك التواضع الذي يبدو رائع الجلال باهر الجمال. . . لقد أحاطوا بداره ليلة مجيء الوفد وطلبوا إليه أن يخطبهم فأطل عليهم قائلاً (أي مواطني! توجد لحظات في حياة كل سياسي حينما يكون خير ما يفعل أن يحتفظ بشفتيه مضمومتين؛ وإنني أحسب أن مثل تلك اللحظات قد حانت الآن بالنسبة إلي)

ولما ضاقت بالوفود داره جعل لقاء الناس في قاعة من مقر الحكم للمدينة، ولا يرد عن مجلسه أحداً، ولا يأخذ الحيلة من أحد، فإذا سأله شخص عن أمر في السياسة ناقشه في هدوء أو أعطاه نسخة من مجموعة خطبه؛ وهو يذهب بنفسه إلى مكتب البريد فيحضر رسائله المتعددة التي تأتيه من كل فج فيفضها ويقرؤها ويرد على ما يتطلب الرد منها إما بيده أو بيد كاتب قد اتخذه له منذ قريب. . .

ولقد سخط الناس في الجنوب على اختيار رجال حزبه له؛ وأصابهم من ذلك كرب شديد وضيق، وراحت صحفهم تناله بفاحش الهجاء، فهو تارة الجمهوري الأسود، وأونة فالحق الأخشاب الجاهل، وأحياناً الرجل الذي لا يحسن إلا النكات الخشنة المسفة، وطوراً الشبيه بالغوريلا؛ وهو يقابل ذلك كله بالصبر الجميل مترفعاً ترفع الكرام عن جهل اللئام. . . ولم يحدث منذ تألف الاتحاد أن قامت العداوة والبغضاء بين أهل الجنوب وأهل الشمال مثلما قامت بينهم عقب اختيار الجمهوريين لنكولن

أما أنصاره فما فتئوا يثنون عليه في صحفهم وأحاديثهم ويدفعون عنه مكر أعدائه ويدحضون أباطيلهم؛ وضرب سيوارد للناس مثلاً طيباً فكتب في إحدى

صحف نيويورك يثني على ابراهام ويهنئ البلاد باختياره هذا ويتمنى له الفوز في المعركة الأخيرة. . .

وظل هو في سبرنجفيلد لا يتكلم عن نفسه ولا يأبه لما يقول عليه أعداؤه؛ أما عن أنصاره فكان يرتاح إلى دفاعهم وإن كان ليتبرم بينه وبين نفسه بما يزجونه إليه من عبارات المديح والإطراء. وما فتئت الكتب تلقى إليه من أنحاء البلاد وهو يجيب عنها غير متخلف ولا مبطئ؛ ومن أجمل تلك الكتب وأغربها كتاب جاءه من بنت صغيرة تستفهمه فيه عن أسرته وتطلب إليه أن يطلق لحيته. ولقد رد عليها بهذا الكتاب قال: (أي فتاتي الصغيرة العزيزة: تلقيت كتابك الجدير جداً بالقبول، المؤرخ في ١٥ من أكتوبر عام ١٨٦٠، وإني أسف أن أراني مضطراً إلى إخبارك أنه ليس لي ابنة. . . إن لي ثلاثة بنين عمر الأول سبعة عشر عاماً والثاني تسعة والثالث سبعة، ومن هؤلاء، وأهمهم معهم تتألف أسرتي كلها. . . أما عن إطلاق لحيتي، أفلا ترين، ولم تكن لي من قبل لحية، أني إذا أطلقتها الآن إنما آتي بذلك ما يعد ضرباً من التكلف السخيف؟. . هذا وإني لك الصديق الوفي المخلص. ا. لنكولن). . .

وهبت من الجنوب الشائعات بالندى، فلقد ازدادت الدعوة إلى الانسحاب من الاتحاد، وإلى إعلان التمرد والعصيان إذا قدر أن ينتخب لنكولن رئيساً للولايات؛ ونمى إليه فيما نمى من الأنباء أن أهل الجنوب يطاردون بالقوة كل من يدعو إلى تحرير العبيد في ولاياتهم. على أن أعظم ما أزعجه يومئذ ما أفضى به إليه قائد من القواد من أنهم في الجنوب يعدون معدات القتال!.. لقد ارتاع ابراهام لذلك وأحس بميل شديد إلى معرفة كل شيء ولكنه يشعر، ولم ينتخب للرياسة بعد، أن ليس له حق فيما هو فيه من الاستطلاع فيطلب إلى ذلك القائد أن يتبين قبل أن يزده علماً بما يجري فإذا لم يكن في الإفضاء بما يعلم خيانة فليفض به وهو يترك الحكم في ذلك له. . .

وجاء يوم الانتخاب ففاز لنكولن وأصبح رئيس الولايات المتحدة، أصبح فالح الأحشاب الخليفة الخامس عشر لوشنچطون العظيم بطل الاستقلال. فكأنما كان مجيئه يومئذ من تدبير الأقدار لقرن اسمه في تاريخ أمريكا باسم محررها الأول فعليه اليوم أن يمسك بنيانها أن يختر من القواعد

وكان نجاح ابراهام محققاً قبل يوم الفصل بما كان لحزبه من جاه ونفوذ في أهل الشمال وهم أكثر عدداً وأحكم سياسة من أهل الجنوب، وذلك فضلاً عن اتحاد كلمة ذلك الحزب ونشاط أعضائه بينما كان يتنازع الديمقراطيون ويتناذبون وكان بينهم عداوة

على أن خصوم ابراهام يعيرونه بهذا الفوز إذ كانوا لا يعدونه فوزاً، فهم يقولون أن ما ناله منافسوه من الأصوات يربو كثيراً على ما ظفر به، هذا إلى أن عدداً من الولايات الجنوبية لم يجد عليه أهلها بصوت واحد. . . ولكن أصحابه يعلنون أنه الغالب فإنه ليندر أن فاز قبله أحد بمثل ما فاز به من الأصوات وإن بينه وبين دوجلاس أقوى منافسيه وأقدرهم لفرقاً كبيراً يشهد بعلبته وعظم مكانته. . .

وكان على ابراهام أن يقضي أربعة أشهر آخر قبل أن يحتفل بتسلمه أمانة الحكم فقضاها في سبرنجفيلد بينما كان الرئيس بيو كالون يكمل مدته بقضاء تلك الأشهر في البيت الأبيض في وشنچطون

ولبت ابراهام في سبرنجفيلد يلقي زائريه كل يوم ويمشي في الطرقات بين الناس لا يجعل بينه وبينهم كلفة ولا يتخذ من دونهم حجاباً، يحييهم فيدعوهم بأسمائهم ويردون فيدعونه بأحب أسمائه إليه، فمنهم من يناديه أيب الأمين ومنهم من يناديه أيب العجوز ومنهم من يقولها مجردة من النعوت

وتبدو (أيب العجوز) يومئذ أقرب النعوت منه وأعلقها به، فإن على محياه لكآبة هي من أثر ما يهجس في نفسه، وأنه اليوم لكثير التأمل والإطراق لا

يسمع الناس من أقاصيصه ما كانوا قبل يسمعون، ولا يشهدون من عذوبة روحه ما كانوا يشهدون

أما امرأته فمرحة طروب، لا تملك نفسها من الزهو حينما تقف إلى جانب بعلها في شرفة الدار وهما يطلان على الجماهير الهاتفة وإن كانت لتكره وتنترم منه بهذا الوجوم وهذا الصمت، وإن كانت لتتكر عليه ما يظهر فيه من ملابس وخاصة قبعته التي ألحت عليه وما تفتأ تلح أن يستبدل بها أخرى جديدة فلا يطيع!

وحق له أن يبتئس وأن يرتاع فما تزال تتراعى إليه الشائعات والأنباء المزعجات، فهذه صحيفة من صحف الجنوب تعلن نبأ اختياره للرياسة تحت عنوان أخبار خارجية، وهذا حاكم كارولينا الجنوبية يتناول المعول فيهدم أول حجر من بناء الاتحاد. . . لقد استقال أعضاء الشيوخ لهذه الولاية وانسحبوا من وشنجنطون، بينما أخذ الحاكم يعد ما استطاع من معدات الحرب وصحفه تذيع في صراحة أن قد صار الاتحاد أثراً بعد عين؛ وهو يسعى بالتفرقة ويحرض الولايات الجنوبية على الانسحاب بعد أن أعلن على لسان المجلس التشريعي في ولايته أن لا صلة لهذه الولاية بالاتحاد

وما كان ارتياحه عن خور حين أذنت العاصفة بالهبوب؛ ولعمري ما يكون الخوف كل أونة جنباً ولا الدم كل يوم حلالاً. ثم لعمري ما يكون الإقدام في كل موقف شجاعة، ولا الوثوب في كل مأزق بطولة؛ وإلا فما أضيع الحكمة، وما أتفه البصيرة، وما أسخف الأنات. . . وما كان يخاف ابراهام إلا أن تصيب بلاده فتنة تذهب بكل شيء

وإنه ليدور بعينيه في هذه المحنة يبحث عن الرجال الذين يشدون أزره فيرى - والأسى يرمض فواده - أن رجال حزبه أنفسهم لا يرون رأيه فهم يميلون إلى مصالحة أهل الجنوب وعلى رأس القائلين بذلك سيوارد. . . ولكن ابراهام يعلن إليهم في ثبات عجيب أن مصالحة أهل الجنوب معناها التهاون

في المبادئ والتسليم بانتشار العبيد والاعتراف بحقهم في اتباع القوة وفي الانسحاب من الاتحاد وهو لن يأمن أن يعودوا إلى ذلك في أي وقت؛ فيسمعون ذلك ولكنهم لا يعقلونه ويحملونه كل ما عساه أن يترتب على موقفه من مصائب

والنذر لا تأتي تأتي من الجنوب بما يقلق المضاجع ويزعج النفوس، فهي ذي ست ولايات أخرى تنسحب من الاتحاد وتتضم إلى كارولينا الجنوبية فتولف من بينها اتحاداً جديداً تختار لرياسته جفرسون دافيس. . . وهكذا يصبح في البلاد حكومتان! وهكذا ينهار البناء حجراً بعد حجر والرئيس الجديد ما يزال في سبرنجفيلد يشهد ما تفعل العاصفة

ويحمل البريد إلى ابراهام كل يوم آلاف من الرسائل بينها نوع جديد تنفر منه نفسه، بينها نوع ملؤه الوعيد والسباب وتفصيل صور الموت التي تنتظره إن هو مضى فيما هو فيه وأصر على عناده؛ وهو يطوي تلك الرسائل ليلقي بها في النار مخافة أن تقع عين امرأته على صور الخناجر التي تتوج الكثير منها. . .

ويتطلع ابراهام في هذا المأزق الشديد إلى وشنجطون ليرى ما عسى أن يفعله بيو كالون الرئيس القائم؛ ولكن بيو كالون لا يتحرك فيزيد بتهاونه النار اشتعالاً ثم يصرح بأنه إذا لم يكن للولاية حق الانسحاب من الاتحاد فليس لحكومة الاتحاد حق ردها إليه بالقوة إذا هي انسحبت فيكون بتصريحه هذا كمن يلقي الحطب على النار حين يجدر به أن يلقي عليها الماء. . .! وتشيع الخيانة في وزرائه فيرسلون الرجال والمال إلى الولايات الجنوبية ويستقيلون. . .

ويشتد عدوان أهل الجنوب وقد اتخذ الاتحاد الجديد هناك دستوراً جديداً يقر نظام الاستعباد ويعلن أنه أمر مشروع من ناحيتي الدين والخلق ونظام الاجتماع. . . ويعظم هياج العاصفة ويشتد دويها. . .

وابراهيم في سبرنجفيلد كالسنديانة العظيمة لا تهز العاصفة إلا فروعها، ولن يصيب الجذر مصيبة إلا أن تزلزل من تحته الأرض فتشقق فتמיד. . . يخوفه سيوارد عاقبة الأمر فلا يحجم ولا يلين؛ ويسخط أهل الشمال أنفسهم على ابراهيم ويظنون به الظنون، ولكنه يقول ذات مرة لرجل ممن يحاورونه (اذهب إلى شاطئ النهر وخذ معك غربالا متيناً فاملأه بالحصى؛ فسترى بعد هزات قوية أن الرمل وصغيرات الحصى تنفذ من الثقوب وتتوارى عن الأعين إذ تضيع على الأرض، وتبقى في الغربال الحبيبات التي تزيد عنها حجماً إذ أنها لا تنفذ من بين الخيوط. . . وبعد هزات أخرى متكررة يتبين لك أنه من بين القطع الباقية في الغربال تصل كبرياتها إلى القمة، وهكذا فإنه إذا لم يكن من الحرب بد وأن هذه الحرب سوف تهز البلاد من وسطها إلى جوانبها فإنك ستجد صغار الرجال يتوارون عن الأنظار في هزاتها، وبينما تركز الكتل على قواعد ثابتة ويرتقي أكابر الرجال إلى القمة؛ ومن هؤلاء يبرز أعظمهم فيكون منه قائد القوم في الصراع القائم).

هذا هو العزم الذي لا يعرف التردد، ولكن من وراء هذا العزم نفساً شاعرة وقلباً يحب الخير وينأى بجانبه عن الشر وينفر بطبعه منه؛ وما كانت هموم نفسه إلا مما يريد أن يدفعه عن بلاده من شر وبيل فهو لا يهتم أن يذوق الموت بعد أن وطد على الجهاد عزمه ووهب إلى بلاده نفسه. . .

ها هو ذا قد وصل في بلاده إلى القمة فهل ابتغى من وراء ذلك جاهاً أو تلهى بالعرض عن الجوهر؟ هل تنفس الصعداء واستكان إلى الدعة وجعل من المنصب متعة وغروراً؟ كلا فهذا هو ذا يجعل من وصوله إلى هذه المرتبة مبدأ مرحلة جديدة في جهاده المبرر. . . وإنه ليحس أنه هالك في هذا الجهاد ولا محالة ففي نفسه من المعاني ما يشير إلى ما سوف يلقاه من خطوب وويلات. . . تحدث هذا الصنديد الجلد إلى صديق له بعد فوزه بالرياسة بسنوات يصف ما كان يهجم في خاطره عقب ذلك الفوز فذكر أنه نظر يومئذ ذات مرة، وقد

جلس متعباً على مقعد، إلى مرآة أمامه فرأى فيها لوجهه صورتين فهب من مكانه يستوثق من ذلك فامحت الرؤيا ولكنها عادت كما كانت حين عاد فجلس؛ وكانت إحدى الصورتين تخالف الأخرى في أنها تبدو مصفارة مخيفة. ولقد أوجس ابراهام خيفة في نفسه؛ ولم يكن خوفه مما رأى في ذاته بل لما انبعث منه في نفسه من المعاني. ولقد تكرر ذلك المنظر بعد أيام ثم انقطع على رغم محاولاته أمام المرآة. . . أما امرأته ففسرت ذلك أنه سيختار للرياسة مرة أخرى ثم يموت في تلك المرة! يا لله ما أعجب نبوءات هذه المرأة!

وكانما كان صاحبنا يحس ما يخبئه له الغد من مكروه فهو يقدم في عمله على علم بما وراءه ولذلك لا يتهيب ولا ينكص، يحذر ويتدبر أن تصيب بلاده دائرة. . .

وظل يمني نفسه أن يثوب أهل الجنوب إلى رشدهم فتخشع للحق قلوبهم، ولكنهم في شطط من عنفهم وغرورهم. فهاهي ذي الأنباء تأتي بجديد من كيدهم، وبيان ذلك أنه كانت لحكومة الاتحاد حصون في الولايات الساحلية بها جند تحميها وكان من تلك الحصون في كارولينا حصنان أهمهما حصن سمتر، فأرادت كارولينا أن تستولي على الحصنين لتتم سيادتها فلم تغلج إلا في أحدهما، وكان ذلك عقب إعلان انفصالها

واحتل الجند في حصن سمتر وأرسلوا إلى الرئيس بيو كالون أن يمددهم بالعون والذخيرة، فلم يستطع بيو كالون أن يصم أذنيه عن هذا الطلب وأرسل سفينة تحمل المؤونة والرجال ولكن أهل كارولينا أطلقوا عليها النار في ميناء شارلستون وأجبروها على الرحيل. . . وطلبت حكومة الاتحاد الجنوبي تسليم حصن سمتر فرفضت الحامية بقيادة القائد اندرسون أن تسلم، فضرب عليها الحصار. . . وبات في الواقع أهل الشمال وأهل الجنوب في حرب

وعاد سيوارد يلح على ابراهام أن يتفق أهل الشمال مع أهل الجنوب على شروط تخفف من غضبهم، فرفض ابراهام ذلك وأعلن أنه مصر على الرفض

مهما يكن من الأمر. . . ولما يؤس سيوارد من إقناعه عرض عليه أن يزحف على العاصمة في جيش من المتطوعين ويأخذ بيده زمام الأمور من بيو كالون قبل أن يستفحل الشر فرفض ابراهام أن يفعل ذلك لما فيه من خروج على الدستور. . .

وازداد الموقف خطورة حين ترمى إلى سماع لنكولن أن كثيراً من الناس يودون لو ينسحب ويدع تقرير الأمور إلى رئيس غيره من جديد. . . ولو أن رجلاً غيره في موقف مثل موقفه هذا لخارت عزيمته، وانكسرت نفسه، ولكنه ما وهن ولا استكان وما زادت الشدائد إلا صبراً وعزماً ولا المحن إلا رغبة في الجلاء والنضال. . .

وجلس يختار مجلس وزرائه فعظمت حيرته ووقع اختياره أول ما وقع على سيوارد وقد وقف إلى جانب ابراهام بعد أن رأى من ثباته ما لم يتعلق به من قبل وهمه، ورضى سيوارد بادئ الرأي أن يعمل معه في مركز يعادل مركز وزير الشؤون الخارجية في الحكومات الحالية مضافاً إلى ذلك أنه كاتم سره ومستشاره وحامل أخته. . . وأخذ ابراهام يبحث عن غيره ممن يأنس فيهم الكفاية في مثل هاتيك الشدة. . .

وجال ابراهام جولة في البلاد التي قضى فيها صدر شبابه، وزار من لا يزال على قيد الحياة من أهلها، وحج إلى قبر والده وأوصى أن يعنى به، وبعد أن قضى أرب مشاعره ولبانة قلبه عاد إلى سبرنجفيلد ليودع أهلها قبل رحيله إلى وشنجطون. . .

ولما أزف يوم الرحيل لاحظ على وجهه أهل المدينة شيئاً مثل ذلك الذي يبدو على وجه من يوشك أن يرحل عن وطن اشتد حبه له وعظم تعلقه به، ولقد زاده هذا نحولاً على نحوله وهماً على همه، وكذلك اشتد أسف الناس فهم لا يدرون كيف يصبرون على رحيله عن مدينتهم ولقد كان لصغارهم الأب

العطوف الرؤوف وكبارهم الصديق الوفي، والناصح الأمين. ولكنهم يتأسون
على فراقه بما باتوا يأملونه من خير للبلاد جميعاً على يديه

وجاء يوم الرحيل وأن لفتى الأحرار أن يؤدي رسالته. أن لابن النجار أن يأخذ بيديه أزمة الحكم في قومه؛ وتأهب ليوافه العاصفة، وأنه ليراها اليوم عاصفة دونها تلك العواصف التي طالما هبت في الغابة هوجاء عاتية، فزعزعت باسقات الدوح وشعنت كثيفات الألفاف وأفزعت الرجال والدواب. . إنه يراها اليوم عاصفة من عمل الإنسان لا من عمل الطبيعة، وما أهول ما يفعل بنو الإنسان حين ينسون إنسانيتهم فتستيقظ فيهم غرائزهم التي دبّت فيهم أول ما دبوا على هذه الأرض. . .

عول على الرحيل (الرجل القادم من الغرب) كما اعتاد أن يسميه أهل العاصمة وغيرهم من أهل المدن الشرقية السابقة في المدينة. . . وتقدم الربان ليقود السفينة ودوى الأنواء في مسمعيه

ذهب مساء اليوم السالف ليوم رحيله إلى مقر عمله في المحاماة فجمع طائفة من الكتب والأوراق فلفها وربطها بيده وحملها معه ثم أوصى أن تظل الرقعة التي تحمل اسمه واسم زميله هرندن حيث هي على الباب قائلاً: إنه عائد - إن مد في أجله بعد انقضاء مدته في الرياسة - إلى عمله في المحاماة كأن لم يكن هناك شيء

وكان قد حزم متاعه وأعد كل شيء ليكون على أهبة إذا تنفس الصباح، وأعد فيما أعد خطاباً يذيعه في الناس ساعة الاحتفال بتسلمه مقاليد الأمور، ولقد احتفل لهذا الخطاب وكانت معانيه محتبسة في نفسه زمناً تهدر كالسيل وتجيش وتجتمع وأسفر الصباح فركب وجماعة من أصدقائه مركبة أفلتهم إلى المحطة وقد تلاقى هناك نفر من أهل المدينة جاءوا يحيونه فما رأيهم حتى وقف على سلم العربة وأطل عليهم وقد شحب لونه وتندت عيناه فقال: (أي أصدقائي؛ لن يستطيع أي رجل لم يكن في مثل موقعي هذا أن يدرك ما يخالجنى من الحزن لدى هذا الرحيل. إني مدين بكل شيء لهذا البلد ولكرم أهله؛ ولقد لبثت فيه من عمري ربع قرن وتدرجت فيه من شباب إلى رجل مسن. . . هنا ولد

أبنائي وهنا دفن واحد منهم؛ وهأنذا أرحل ولست أدري ما إذا كنت عائداً إليكم بعد اليوم. . أرحل وأمامي عمل هو أعظم من ذلك الذي ألقى على كاهل وشنجطون، ولا نجاح لي ما لم أصب معونة الله الذي كان معه أبداً. . . ولئن ظفرت بهذه المعونة فلن أخيب. فلنأمل في حسن المنقلب مخلصين واثقين في الله الذي هو معي ومعكم والذي يكون منه الخير في كل مكان، وإنني حين أكلكم إلى عنايته كما أمل أن تكوني إليها في صلواتكم أقرنكم وداعاً حاراً. . .)

وانطلق به القطار وقطرات المطر تنزل على رؤوسهم الحاسرة كأنها دموع منصبة من السماء، ولكم التقت ساعتئذ تلك القطرات بما فاض من المآقي. . . ورحل أبراهام ليعود بعد جهاد شديد ومراس فإذا هو شهيد تمزق الجراح جثته وقضى في رحيله إلى العاصمة اثني عشر يوماً. وعلم الناس بهذا الرحيل، فكانوا يلقونه في المدن التي يمر بها مرحبين، وقد تلاقت جموعهم على نحو لم تشهد البلاد من قبل، فما في الناس إلا من ملكه حب الاستطلاع؛ وكثير منهم كانت تدفعهم المحبة إلى هذا اللقاء

وكان قد عقد النية أن يظل صامتاً إلا ما يكون من تحية يرد بها على ما كان يلقيه من تحيات؛ ولكن إصرار الناس في كل مكان على أن يسمعوا حديثه جعله يتحلل مما اعتزم؛ ثم إنه - دون أن يعرف التظاهر أو الغرور - رأي أن هذه كانت آخر فرصة يتحدث فيها إلى عامة الناس، وهم الذين يعول عليهم ويطمع أن يتخذ منهم ظهيراً فيما هو مقدم عليه من كفاح

وكانت له في خطبه أثناء ذلك المسير خطة رشيدة؛ فقليل ما كان يبرم أمراً أو يقطع في المسائل القائمة برأي؛ وإنما كان يشرح الأمور حتى تستبين، ثم يتساءل عن أوجه الصواب تاركاً الناس يتدبرون حتى تأتيهم البينة، تتمثل ذلك في مثل قوله في أنديا نابولس: (أي مواطني، لست بمبرم أمراً، إنما أنا ألقى عليكم أسئلة لتتدبروها. . .)

ولقد تكلم في هذه المدينة فأشار إلى ما كان يجري على الألسن يومئذ حول حق الاتحاد في رد الولايات الخارجة عليه بالقوة؛ ولقد عد أنصار الجنوب ذلك العمل عدواناً؛ فتساءل الرئيس هل يكون في الأمر عدوان إذا لجأت حكومة الاتحاد إلى المحافظة على ما تملك هناك من عقار، أو إذا حافظت على سبل مواصلاتها وحرصت على جباية المال المقرر على البضائع الواردة؟

واستقبل إبراهيم في سنسناتي استقبالا لم تر هذه المدينة لأحد من قبل نظيراً له؛ وتزاحم الناس عليه يريدون رؤيته وباتت المدينة في مثل فرحة العيد، ففيها الأنوار الوضاءة والأناشيد الصداحة والجموع الغفيرة المستبشرة، وفيها ما هو أعلى من سمات العيد هذه ألا وهو الحب الصادق تفيض به القلوب

ومر بحدود كنتوكي وهي ولاية من ولايات العبيد تشدد فيها الدعوة إلى الانسحاب من الاتحاد فقال يوجه الكلام إلى أهلها مشيراً إلى ما اعتاد أن يخاطب به أهل الجنوب من قبل: (أي مواطني أهل كنتوكي، هل لي أن أدعوكم بمثل ما أدعو؟ إني في موقعي الجديد، لا أجد حادثاً ولا أحس ميلاً يدعوني أن أغير كلمة من هذا، فإذا لم تنته الأمور إلى الخير فثقوا أن الخطأ ذلك لا يكون خطئي. . .)

وفي بتسبرج أفصح عن سروره أن كان استقباله هناك استقبالاً شعبياً لا أثر للحزبية فيه ثم قال: (إذا لم تجتمع كلمتنا الآن لننجي سفينة الاتحاد القديمة الطيبة في رحلتها هذه، فلن يكون ثمة من فرصة بعدها لقيادتها إلى رحلة غيرها)

وفي محطة من المحطات الصغيرة وقف لنكولن بعد أن قرت حماسة المستقبلين فقال إنه يذكر أن خطاباً جاءه من فتاة هذه بلديتها تسأله فيه أن يطلق لحيته، ولقد فعل كما أشارت فهو ذو لحية اليوم كما يراه الناس، ثم عبر عن رغبته في رؤية تلك الفتاة إن كانت حاضرة، فبرزت من الجموع تلك الفتاة

ومشت على استحياء حتى وصلت إلى الرئيس، فقبلها قبلة على جبينها، والناس بذلك معجبون فرحون!

وفي ألبنى عاصمة ولاية نيويورك العظيمة كانت حفاوة الناس به شديدة؛ وكذلك كان شأنه في مدينة نيويورك التي سبق أن زارها لأول مرة من قبل ليخطب الناس فأصاب من النجاح ما سلفت الإشارة إليه

ووقف في ترنتن على مقربة من ميادين القتال التي سالت فيها دماء الثورة غداة حرب الاستقلال، فأخذ جلال الموقف وهزته روعة الذكرى فجري لسانه بما اختلج في نفسه قال (إني لأرجو أن تسامحوني إذا ذكرت في هذه المناسبة أنني في أيام طفولتي وفي مستهل عهدي بالقراءة قد تناولت كتاباً صغيراً يدعى حياة وشنجطون تأليف ويمز؛ وإني أتذكر كل ما جاء فيه عن ميادين القتال وعن مواقف النضال من أجل الحريات في هذه البلاد، ولكن ما من حادثة تركت في نفسي من أثر مثل ما تركه موقف النضال هنا في ترنتن نيوجرسي). وبعد أن أشار إلى بعض الحوادث قال. . . (وإني لأذكر الآن أنني فكرت يومئذ ولما أزل غلاماً صغيراً أنه لا بد أن يكون أمراً غير عادي ذلك الذي كافح من أجله هؤلاء الناس؛ وإني لأحس رغبة ملحة قوية أن هذا الذي كافحوا من أجله وشيئاً آخر هو أعظم من الاستقلال القومي: شيئاً ينطوي على وعد يوعد به الناس جميعاً في هذا العالم في كل ما هو آت من العصور. . . أقول أنني شديد التطلع أن أرى الوحدة والدستور وحريات الناس بحيث تصبح أبدية وهي مقرونة بتلك الفكرة الأصلية التي من أجلها قام الكفاح. وسوف أكون جد سعيد إذا أصبحت الآلة المتواضعة في يد القوى العلي وأيدي هؤلاء الذين يكادون أن يكونوا شعبه المصطفى للعمل على أن يدوم ذلك الذي انبعث من أجله ذلكم النضال العظيم)

وكان الكتاب الذي يشير إليه لنكولن في هذه الذكرى هو بعينه ذلك الكتاب الذي أعاره إياه أحد معارفه والذي بللته قطرات المطر فأصابته ببعض العطب،

وتركت الصبي الفقير في حال شديدة من الغم حتى لقد سار يحمله إلى صاحبه وهو شديد الحيرة، فلما جاءه عرض عليه أن يعمل عنده بما يساوي ثمنه. . . ذلك هو الكتاب الذي قرأ فيه النجار الغلام حياة وشنجطون العظيم، ولم يكن يدور بخله أنه سيجلس يوماً حيث كان يجلس وشنجطون ويسدي إلى بني قومه وإلى الإنسانية جميعاً من صنيعة ما لو شهد ذلك البطل الكبير لطمع أن يكون ما تقدم يده فوق ما قدمت

واستأنف الرئيس لنكولن ومن معه سيرهم إلى العاصمة حتى وصلوا فيلادلفيا؛ وهناك علم أن فريقاً من بني جنسه يأترون به ليقتلوه! . . . سمع إبراهيم أن أمامه الخطر يوشك أن يحدق به؛ وما كان إبراهيم بدعاً من العظماء، فكم من أمثال خلوا من قبله لاقوا مثلاً يلاقي اليوم من عنت، ودبر لهم مثلاً يدبر له، فما وهنوا ولا اصرفوا عن وجهتهم حتى أدركوا الغاية أو أدركهم الموت. . .

وارتاب لنكولن أول الأمر، فما كان يظن أن أحداً تحدثه نفسه بإتيان هذا العمل، ولكن جاءه رسول من عند صديقه سيوارد ينبئه أن قائد الجيش حدثه أن هناك مكيدة تدبر له وأن عليه أن يحذر حتى لا يكون ضحية للغادرين. . . فلما سمع لنكولن هذا لم يعد يرتاب وبات على حذر وإن لم تأخذه خيفة

وكانت لفيلادلفيا وهي المدينة التي كتب الثوار فيها وثيقة الاستقلال وصاحوا صيحة الحرية منزلة عظيمة في نفسه وفي نفس كل أمريكي من أنصار الحرية، وكان أبراهام قد وافق أن يخطب الناس في تلك القاعة التاريخية التي ولدت في ساحتها الحرية، وكأنما توافقت الذكريات لتزيد في جلال الموقف فلقد تصادف أن كان ذلك اليوم هو عيد ميلاد الزعيم وشنجطون؛ ورغب الناس أن يرفع العلم على رأس القاعة الزعيم لنكولن. . . ووافق لنكولن على ذلك مغتبطاً مرحباً كما وافق أن يخطب الناس مساء ذلك اليوم في مدينة هرسبرج وكانت تقع غير بعيد من فيلادلفيا. . .

وخشي أصحاب أبراهام أن يفتك به المجرمون في زحمة الناس في ذلك اليوم المشهود في أي من المدينتين وأشاروا عليه أن يقتصد في الاتصال بالناس فيفوت على الغادرين قصدهم، ولكنه أبى إلا أن يفي بوعدده ولو كان في ذلك هلاكه. . .

ورفع أبراهام العلم في فيلادلفيا وكان في ذلك موفقاً، فإنه صعد في ثبات إلى حيث ينتصب العمود الذي يثبت فيه العلم فشد الحبل فانبسط العلم ورف، وخفق الناس واستبشروا وهم ساعتهذ جموع خلفها جموع إلى آخر ما يذهب فيهم البصر. . . وكلهم يحيون الرئيس في حماسة وغبطة

وخطب في القاعة التاريخية فأفصح عن شيء من سياسته على خلاف ما جرى عليه في خطبه السالفة؛ قال: (كثيراً ما سألت نفسي ما ذلك المبدأ أو ما تلك الفكرة التي حفظت الاتحاد هذا الزمن الطويل؛ إنها لم تكن مجرد انفصال المستعمرات عن الأرض الأصلية، ولكنها كانت تلك العاطفة التي منحت الحرية لا لهذه الأمة فحسب، بل للناس جميعاً في كل عصر مقبل كما أرجو؛ إنها كانت تلك التي بشرت أنه متى حان الوقت المناسب رفع العباء عن كواهل الناس جميعاً ومنح كل امرئ فرصة على قدر ما يمنح أخوه. . . تلك هي العاطفة التي انطوى عليها إعلان الاستقلال. والآن أسألكم يا أصدقائي هل يتسنى خلاص هذه البلاد على هذا الأساس؟. . . إذا أمكن ذلك فإنني إن استطعت أن أساعد على خلاصها أعد نفسي من أسعد الناس في هذا العالم. أما إن كان من المستحيل خلاصها إلا أن يضحي هذا المبدأ، فإنني أفضل أن أغتال في هذا المكان على أن أضحي به. والآن أرى من شواهد الحال القائمة أنه ليس ثمة من ضرورة إلى سفك الدماء والحرب. ليست ثمة ضرورة إليها؛ وإنني لا أميل إلى اتجاه كهذا؛ وأضيف إلى ذلك أنه لن تقوم حرب إلا إذا أجبرت الحكومة عليها؛ ولن تلجأ الحكومة إلى القوة إلا إذا أشهر في وجهها سلاح القوة. . . أي أصدقائي! هذه كلمات جاءت على غير ترتيب سابق ألبته؛

فأنا لم لأكن أتوقع قبل وصولي أن أدعى إلى الكلام هنا؛ لم أكن أحسب إلا أنني سأرفع العلم فحسب؛ وعلى ذلك فربما كانت كلمتي هذه خلواً من الحرص ولكني لم أقل إلا ما أريد أن أعيش به وما أريد - إذا كانت تلك مشيئة الله - أن أموت به. . .)

وذهب لنكولن في المساء إلى هرمسبرج وخطب الناس كما وعد؛ وكانت بلتيمور هي المدينة التي اعتزم المجرمون أن يقتلوه فيها وهي في طريقه إلى العاصمة؛ فعاد لنكولن إلى فيلادلفيا قبل الموعد المضروب، وركب ومن معه قطاراً عادياً كان قد استتبقني بناء على إشارة قادمة ليحمل (طرداً) هاماً إلى وشنجطون وترك لنكولن القطار الخاص الذي كان معداً لسفره، فمر ببلتيمور قبل الموعد المعروف ففوت بذلك على الكائدين كيدهم فكانوا هم المكيدين. . .

وفي الساعة من صباح اليوم التالي وصل (الرجل القادم من الغرب) ومن معه إلى وشنجطون، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها؛ اللهم خلا سيوارد ورجل آخر كانا على علم بمقدمه فلقياه. . . وركب لنكولن إلى فندق لينتظر بضعة أيام حتى يحتفل بتسليمه أزمة الحكم. . . دخل الزعيم لنكولن عاصمة البلاد في مثل تلك الساعة المبكرة وفي مثل تلك الحال المتواضعة ليجلس في كرسي الرئاسة الذي جلس فيه من قبل وشنجطون، دخل ليحمل العبء وليبدأ في حياته مرحلة من الجهاد والجلاد دونها كل ما سلف من جهاد وجلاد.

وأقام لنكولن في الفندق ينتظر يوم الاحتفال؛ وإنه ليحس أنه كالغريب في هذه المدينة العظيمة؛ ولقد كان كثير من أهلها يتوقعون قبل وصوله أن تصلهم الأنباء عن مقتله في الطريق؛ فلما فوت على الماكين قصدهم ودخل المدينة ولم تزل غافية أصاب المؤتمرين به كمد وغم؛ ولكن هل فاتت الفرصة فلا سبيل لهم إليه بعدها؟ كلا فما زال الكائدون يتربصون به حتى لقد سرت في الناس إشاعة قوية أنه لن يحتفل بالرئيس الجديد؛ وأنه راجع إلى سبرنجفيلد قبل ذلك اليوم حياً أو ميتاً

وكانت المدينة إلى أهل الجنوب أكثر ميلاً منها إلى أهل الشمال؛ وكان سادتها وكبرائها ممن يقتنون العبيد ويتمسكون بنظام العبيد؛ وكانت تقع عين القادم إلى المدينة على العبيد رائحين غادين؛ ولقد كان هذا منظرًا تنفر منه عينا لنكولن وهو يطل على المدينة من الفندق. . . وكان ذوو النفوذ من أهلها يكرهون الجمهوريين ويسمونهم الجمهوريين السود. . . لذلك أحس ابراهام أنه في جو غير جوه كالنبات نقل إلى حيث لا يجدي معه ري ولا ينفع غذاء

وجلس ابراهام يفكر ويتدبر، فإذا امتد إلى الحاضر فكره رأي كيف تشيع الفتنة وكيف يستفحل الشر، وكيف يزلزل بناء الاتحاد حتى ليوشك أن ينهار. . وإذا استشرفت للمستقبل نفسه رأى ظلمات فوقها ظلمات؛ فالحرب كما يبدو له واقعة لا محالة، ما لم يقع ما ليس في حساب أحد. . . وهي إذا شبت نارها واستعرت اكتوى بسعيرها أبناء الوطن الواحد وأصحاب المصلحة الواحدة؛ إنها حرب سوف تكون بين نصفي شعب بقاؤه وسعادته لن يكونا إلا في اتحاد كلمنه والتئام شمله. . .

وليت الفتنة اقتصرت على الناس ولم تمتد إلى الحكومة؛ إذاً لكانت أهون على الرئيس وعلى الشعب. . هاهي ذي تندس حتى تتغلغل في وحدات الجيش والبحرية والسادة المسؤولين من رجال الدولة؛ ولقد وقف بيوكانون حائراً لا

يدري ما يأخذ مما يدع حتى لم يعد في إمكانه أن يحسم الشر؛ فكان بذلك وجوده على رأس الحكومة يومئذ شراً على شر

ولكن ابراهيم لم يكن ببيوكانون؛ وحسبه عزمه المصمم الجبار في هذا الموقف الرهيب؛ هذا إلى إخلاصه وكرهاته للعدوان ويقينه الذي لا يداخله شك ولا يحوم حوله شيء مما ينسج الباطل من وهم وما يصور من ريبة

ولقد أشفق من لم يكونوا يعرفونه، بل لقد جزع بعض الناس أن تلقى أزمة الحكم في مثل هذه الظروف في يدي رجل هو في زعمهم لم تحسن يداه أن تقبضاً على شيء غير المعول؛ وعجبوا أن تترك الأمور للرجل القادم من الغرب. . . لذلك المحامي الذي كان من قبل يخطط الأرض ويوزع البريد؛ والذي نشأ بين الأحرار ونما كما ينمو وحشي النبات. . . وسخط أعداؤه ممن لا يجهلون قدرته واشتد بهم الغيظ ألا يجلس في كرسي الرئاسة يومئذ إلا هذا الجمهوري الأسود! هذا الذي يعد في الجمهوريين كبيرهم الذي ألهمهم ما يلوكونه من عبارات تؤذي الأسماع وتخز القلوب وتقبض الصدور. . .

أما الذين عرفوا لنكولن وعرفوا خلاله فما خالطهم شك أنه الرجل الذي ليس غيره في الرجال تكون على يده السلامة ويتم الخلاص. . . والحق لقد خلقت هذه الحوادث هذه الأزمة وخلقت في الوقت نفسه الرجل الذي ينهض لها والذي لن يقوى على حمل أعبائها سواه. . . ولو لم يكن في أمريكا في تلك الأيام ذلك الرجل الذي أخرجه أحرارها لتغير تاريخها باتخاذها وجهة غير التي سار فيها

وإننا لنرى في ابراهيم أحد الأفذاذ الذين بيرهنون بأعمالهم على فساد الرأي القائل بأن الظروف هي التي تخلق العظماء؛ فهذا رجل نجم عن أبوين فقيرين ودرج بين أحرار الغابة وألفافها؛ فلما واجه الحياة وأخذ يعول نفسه راح يشق طريقه في زحمتها ومفاوزها كما كان يشق طريقة بين الأدغال، ولا عاصم له مما يحيط به من مخاوف إلا عزيمته وفتوته

راح ابراهيم يستقبل الحياة ويمشي في مناكبها، وكان الظروف كلها عدوه؛ فما زال يغالب الظروف وتغالبه، ويعركها وتعركه، حتى وصل إلى مركز الرياسة في قومه، دون أن يستمد العون مرة من أحد؛ أو تكون له وسيلة من جاه أو مال؛ أو حظوة عند ذي قوة، أو غير هذا وذاك مما يبتغي به الناس الوسائل إلى ما يطمحون إليه من غايات. . .

ولما أن بلغ هذا المركز كانت البلاد كما أسلفنا تتوثب فيها الفتنة ويتحفر الشر؛ فكانت الظروف يومئذ كأسوأ ما تكون الظروف؛ ولكنه على الرغم من ذلك سار إلى غايته غير خائف ولا وان ولا منصرف عن وجهته إلى وجهة غيرها حتى عقد له النصر وتم له أداء رسالته. . .

وكيف لعمري تخلق الظروف والعظماء؟ وكيف يسمى عظيماً ذلك الذي تخدمه الظروف فلا يكون له من فضل إلا ما يجيء عن طريق المصادفة؟ ألا إن العظيم الحق إنما هو الذي تخاصمه الظروف فينجح على الرغم من تكيد له الظروف؛ وتتجهم له الأيام فيقدم على العظائم على الرغم من تجهم الأيام، وتعترضه الصعاب الشداد فلا تنثنى له عزمه أشد الصعاب. بذلك تكون الظروف هي التي تخلق العظماء؛ فيكون الرجل الذي يظهر عليها ويظفر على الرغم منها هو العظيم، ويكون في ذلك كالدّر تطهر النار جوهره

لبث ابراهيم في الفندق ينتظر حتى يتخلّى له بيوكانون الشيخ عن قيادة السفينة؛ وكان ابراهيم يستمع إلى دوي العاصفة يزداد يوماً بعد يوم فيتلفت فلا يرى حوله غير سيوارد؛ ولكن سيوارد وصاحبه لا يلبث أن يدب بينهما خلاف شديد؛ فلقد كبر على سيوارد ألا يشاوره ابراهيم في الخطبة التي أعدها ليوم الاحتفال وكان قد كتبها قبل أن يسافر من سبرنجفيلد. . .

وعلم ابراهيم بالأمر فألقى بالخطبة بين يدي صاحبه؛ فاقترح عليه أن يغيّر فيها أشياء وأن يضيف إليها أشياء، فلم ير ابراهيم رأيه؛ على أنه قبل أن يضيف إلى الخطبة خاتمة كتبها سيوارد وتناولها ابراهيم بالتغيير ليلتئم أسلوبها

مع أسلوب الخطبة؛ وظن ابراهام أنه أَرْضَى بذلك صديقه. . . ولكنه فوجئ في اليوم السابق ليوم الاحتفال بخطاب من عند صاحبه ينبئه فيه أنه يتحلل من وعده الذي سبق أن قطعه على نفسه بالاشتراك معه في الحكم؛ وطوى ابراهام الخطاب متألماً مكتئباً. . . ألا ما أشد عنت الأيام! حتى سيوارد الذي ليس غيره ترجى منه المعونة تكون من جانبه العقبات؟

وأشرقت شمس اليوم الرابع من مارس عام ١٨٦١، وكان يوماً من أيام الربيع طلق المحيا رخي النسائم. . . فخرج الناس يشهدون موكب الرئيس الجديد؛ وكان موكب الاحتفال بتولية رئيس الولايات من أعظم ما تهتم به البلاد؛ وهو في هذه المرة أجل قدراً منه في كل ما سلف من الأيام؛ وذلك لما كان يحيط بتولية ابراهام من معان تجيش بها نفوس الخصوم والأنصار

وقضى ابراهام صباح ذلك اليوم يقرأ خطبته من جديد ويهذبها بالحذف والإضافة، حتى متع النهار فجاء بيوكانون إلى الفندق في عربة فركب معه ابراهام، والناس على طول الطريق إلى بناء المحافظة (الكابتول) تقع أعينهم على الرجلين، فهذا هو الرئيس القديم يشيع في رأسه الشيب ويبدو على بدنه ومحياه الهزال من أثر السنين ومن اثر ما حمل من عبء أوشك أن يلقيه وقد أربى على السبعين. . . وهذا هو الرئيس الجديد يبدو قوياً فتياً وهو يومئذ في الثانية والخمسين؛ هذا هو الرجل القادم من الغرب، هذا هو ابن الغابة. . . هذا هو النجار تملأ الأعين قامته الطويلة التي تلوح للأعين أكثر طولاً إلى جانب صاحبه الشيخ الضئيل. . . وهو يرتدي اليوم حلة ما ارتدي مثلها من قبل، حلة ارتضتها له ماري وهيئتها لذلك اليوم، ثم هو يقبض بيده الكبيرة التي أكسبها حمل المعول كبرها وخشونتها، على عصا جميلة أنيقة

وضاقت بالناس الطرقات؛ وكان رجال الشرطة قد أبعدوا الجموع قليلاً عن حافتي الشارع، وقد أمرهم كبيرهم ألا يسمحوا بأي عبث بالنظام مهما خيل لهم أنه تافه. وكان كبير الشرطة يخاف أن تمتد أيدي الأثمين إلى الرئيس بالعدوان

إذ كانت الإشاعات قد اتخذت مجراها في كل سبيل، وملأ الهمس بها الأذان، ووجفت من هول الجريمة قلوب الكثيرين من المخلصين

ووصل الرئيس إلى مكان الاحتفال، وهو مرتفع أعد لهذا الغرض، وقد امتلأت الساحة المحيطة به بجموع من الناس حتى ما تتسع بعدهم لقدم. . . وكان على مقربة من المكان تمثال وشنجطون وقد نحت من المرمز الأبيض وهو يتلأل في ضوء الشمس وتتبعث منه معاني البطولة والعظمة والحرية والفداء. . .

ووقف الرئيس الجديد يوجه الكلام للشعب جميعاً لأول مرة وقف فتى الأحرار هاتيك المجموع ثبت الجنان، مستوي القامة، مرفوع الهامة، والقي نظرة أمامه على عليّة القوم من الشيوخ والأعيان ورجال الجيش ورجال الدين والقضاة وغيرهم وغيرهم ثم مدّ بصره في المجموع وقد سكنت ريحهم فتهياً للكلام. . . ولكن ماذا عراه؟ لقد وقف يمسك بإحدى يديه عصاه وبالأخرى قبعته، فكيف يمسك الورق ليتلو منه خطبته؟ ها هو ذا يسند العصا إلى الحاجز الخشبي أمامه فأين يضع القبعة؟ لقد أوشك أن يقع في ورطة، وأوشك أن يثير ضحكات الخصوم بحيرته؛ ولكن هاهو ذا رجل يثبت من مكانه وكان يجلس منه في سمت بصره، فيأخذ القبعة من يده. . . ومن هو ذلك الرجل؟ إنه دوجلاس خصمه القديم ومنافسه ذو البأس الشديد. . .

وكان دعاة الانسحاب من أنصار الجنوب يأملون أن يتهدد لنكولن الولايات الجنوبية ويتوعد، فيشتد بذلك الهياج في تلك الولايات ويتعذر لعدّها أن يجنح هؤلاء للسلم، ولكن لنكولن خيب ظنونهم وزادهم بحكمته وحصافته وبعد نظره ويقظته غماً على غم. . .

كانت خطبته خير مثال للاعتدال في غير تفريط، وللتواضع في غير استخذاء أو استسلام، وللتحذير في غير إثارة أو استفزاز، وللمرونة في غير رياء أو التواء، وللعدالة في غير مشادة أو عناد. . . كما كانت كالسلسل العذب

فصاحة وسهولة؛ ناهيك بما امتازت به من نصوع البرهان ومثانة الحجة واستقامة المنطق وجمال السبك وبراعة السياق ودقة الإلمام بالموضوع، وسعة الإحاطة بما كان يشغل الأذهان

وكان الخطيب رنان الصوت، قوي الجرس، وثيق الإشارات تشيع في كلماته حرارة الإيمان وقوة اليقين وصدق الإخلاص فتنفذ إلى قلوب أنصاره وخصومه على السواء؛ وإن كان خصومه ليكرهون فوزه وينكرون مبادئه. . .

قال يشير إلى مخاوف أهل الجنوب: (يظهر أن المخاوف تنتشر في الولايات الجنوبية، ومبعثها أن قبولهم الحكم الجمهوري من شأنه أن يعرض أملاكهم وسلامتهم وأمنهم على أشخاصهم المخاطر. إنه لم يكن هناك سبب معقول لهذه المخاوف؛ بل لقد قامت بينهم أقوى شهادة على نقيض ذلك، وكانت دائماً سمعهم وبصرهم. . . إنها تكاد توجد في كل خطبة من خطب ذلك الذي يحدثكم الآن، وإني لأقتبس من إحدى تلك الخطب حين أقول ليس لي من غرض مباشر أو غير مباشر في التدخل في نظام العبيد في الولايات التي يقوم فيها ذلك النظام. . . وإني أعتقد أنه ليس من حقي أن أفعل ذلك، وأن الذين رشحوني وانتخبوني إنما فعلوا ذلك وهم على علم تام أنني صرحت كثيراً بمثل هذا، ولم أترشح مرة عما قلت)

ولم يقف الرئيس في اعتداله عند ذلك الحد، بل لقد ذهب إلى التصريح بأن العبد الفار إلى الولايات الحرة لا تمنح له الحرية. ولقد أشفق كثير من أنصاره من هذا التصريح، ولكن لنكونلن يستند في ذلك التصريح إلى مبادئ الحزب التي لا يمنح بمقتضاها العبد حريته إلا إذا ذهب مع سيده غير فار إلى ولاية حرة وأقام فيها

وتكلم لنكونلن عن انسحاب الولايات من الاتحاد فقال: (لن يخول القانون لأية ولاية حق الانسحاب) ثم أردف قائلاً إن القسم الذي أقسمه على المحافظة على الدستور يجعل لزاماً عليه أن يقوم بواجبه فيعمل على أن يكون قانون

الولايات المتحدة نافذاً في جميع الولايات. وأختم الحديث في هذا الموضوع بقوله: (إني واثق أنكم لن تحملوا على التهديد كلامي، بل إنها كلمة الاتحاد يعلن أنه سوف يحمي ويدعم بناءه على أساس من الدستور. وهو إذ يفعل ذلك لا يرى ثمة حاجة إلى سفك الدماء والعنف، وسوف لا يكون شيء من هذا إلا إذا أجبرت عليه السلطة القومية

وأشار إلى الوحدة من الناحية العضوية فقال إن نصف الشعب لا يستطيع أن يقوم بغير الآخر، وإذا كان في الدستور عيب فمن الممكن إصلاحه على يد مؤتمر يجتمع فيه ممثلو الشعب. فإذا رأى الشعب الانفصال حقاً لكل ولاية فله رأيه وليفعل كما يرى، أما هو فليس لديه من قوة إلا ما منحه الشعب

وتكلم عن الداعين إلى الثورة فقال إنه لا مبرر للثورة إلا إذا لجأت الأغلبية إلى الطغيان؛ ومثل هذا المبرر لا وجود له، وإن الانسحاب معناه الفوضى ولا نتيجة للفوضى إلا الاستبداد. . .

واختتم لنكون خطبته بتلك العبارة التي اقترحها سيوارد وتناولها بالتعديل قال: (لسنا أعداء بل نحن أصدقاء؛ ويجب ألا نكون أعداء. ومع أن الغضب قد جذب حبال مودتنا فيجب ألا يقطعها؛ وأن الأناشيد الخفية التي ترن في الذاكرة منبعثة من كل ميدان من ميادين القتال ومن كل قبر من قبور الوطنيين، إلى كل قلب حي وإلى جانب كل موقد في هذه البلاد العريضة لتزيد في جوقة الاتحاد، إذا ما مسها من جديد كما نثق أنها ستمس - وحي من طبيعتنا

وأقسم ابراهام اليمين ويمناه على الإنجيل. وتولى صيغة القسم القاضي تين صاحب قضية دروسكوت الشهيرة وكان يومئذ القاضي الأعلى للبلاد. وبعد أن أدى ابراهام اليمين أن يحترم الدستور ويحافظ على قوانين البلاد سار إلى البيت الأبيض، وكان أول عمل له بعد وصوله أن تناول القلم فكتب إلى سيوارد الخطاب الآتي:

(سيدي العزيز: تسلمت رقعتك المؤرخة ٢ الجاري التي تسألني فيها أن
اقبل انسحابك من الاشتراك معي في إدارة الحكم؛ ولقد كانت رقعتك هذه سبباً
لأعظم قلق عندي إيلاماً، وإني لأشعر أنني مضطر إلى أن أرجوك أن تلغي هذا
الانسحاب. أن الصالح العام ليدعوك أن تفعل هذا، وإن شعوري الشخصي
ليتجه في شدة الاتجاه. أرجو أن تتدبر وأن يصلني رد منك في الساعة التاسعة
من صباح الغد. . . خادمك المطيع. . .)

جلس أبراهام ينتظر رد سيوارد بصبر فارغ وفؤاد قلق، فإنه ليعجب كيف يقف منه صاحبه مثل هذا الموقف؛ على أنه لن يحجم عن مواجهة العاصفة وحده مهما بلغ من شدتها، وإن كان ليود بينه وبين نفسه أن يكون سيوارد إلى جانبه في تلك الشدة التي تطيش في مثلها أحلام الرجال وإن كانت تزن الجبال. يود أن يستعين بصاحبه فهو واثق من كفايته مطمئن إلى إخلاصه

وما بال الرئيس تزداد سحابة الهم كدرة على محياه حتى ليبدو للأعين كمن أخذته غاشية من حزن أليم؟ ما باله طويل الإطراق كثير الصمت، لا يستمع إلى حديث زوجه إلا قليلاً ولا يشاطرهما جذلها ومرحها ولا يشاركها ما دب في قلبها من الزهو بما باتا يتقلبان فيه من نعمة ويحظيان به من جاه. ؟

إنما يكرب الرئيس ما آلت إليه حال بلاده، فما به خوف أو تردد وما هو عن البذل بضنين؛ وإنه ليحزنه أن يكون بنو قومه بعضهم لبعض عدو في غير موجب لذلك وهم عن الحق في عماية من تبليل أفكارهم وتسلط العناد على نفوسهم، وما له إلى هديهم بالتالي هي أحسن حيلة.

ورضى سيوارد آخر الأمر أن يعمل مع أبراهام، وكان سيوارد قليل الثقة بكفاية صاحبه الإرادية لأنه لم يسبق له أن شغل منصباً إدارياً قبل هذا المنصب الخطير، ولذلك كان يطمع سيوارد أن تكون في يده السلطة الفعلية وتكون للرئيس الرئاسة فحسب؛ وبهذه الروح بدأ العمل مع صاحبه. . .

واختار لنكولن رجالاً للحكومة كون منهم مجلسه ومن أشهر هؤلاء نشيس، وكان من أعظمهم كفاية بعد سيوارد؛ غير أنه لوحظ على الرئيس أن أربعة من رجال مجلسه كانوا منافسين له في الرئاسة مما يخشى معه أن ينسوا الصالح العام من أجل العمل على توطيد مراكزهم توطئة للانتخاب القادم، ولكن لنكولن رد على هذه المخاوف بما ارتآه من اعتبارات أملاها عليه بعد نظره، فكل من هؤلاء شيعة وأعوان، وكل منهم يمثل ولاية من الولايات الشمالية؛ هذا إلى ما يعلمه من كفايتهم، وإنه ليركن إليهم مطمئناً إلى وطنيتهم قائلاً إن الوقت

عصيب فما يظن أن أحداً تحدثه نفسه أن يعمل لصالحه الشخصي في ظروف
كتلك الظروف. . .

ولما جلس لنكون معهم حول المنضدة عرف كيف يؤلف بين قلوبهم وكيف
يحملهم على احترامه ثم محبته ثم الإذعان له والتسليم بالتفوق. ولقد باتوا جميعاً
يعجبون كيف يدير الأمور كما يلمسون رجل لم يعهد إليه مثل هذا العمل من
قبل، ولولا أنهم يعرفونه جميعاً لما صدقوا أن هذه هي أول مرة يضطلع فيها
بمثل هذا العمل

رأوه يخفض لهم جناحه ويبسط لهم مودته ويوسع صدره؛ يستمع لأرائهم
جميعاً ولا يتكلم حتى ينتهوا؛ فإذا أعجبه رأي قبله مغتبطاً، وإذا خالف أحداً في
رأيه أظهر له في دماثة سبب مخالفته مع شدة الحرص على احترام شخصية
من يخالفه وإظهار الاستعداد للاقتناع إذا استطاع محدثه أن يزيده إيضاحاً أو
يسوق له الجديد من الحجج

وعرفوا من كثب خلاله فأعجبوا بأدبه وعذوبة روحه ونقاء سريره وطيب
قلبه؛ ولمسوا شجاعته في الحق، وأنسوا نكرانه لذاته ونسيانه كل شيء عدا
رسالته التي يستمد منهم العون في أدائها. . . وبلوا بأنفسهم صبره في الشدائد
وعزيمته إذا همّ بأمر اقتنع بصوابه؛ وتبينوا حصافته وأناته وبعد نظره،
وبهرهم فوق هذا ذهنه المصفى ومنطقه المستقيم وفصاحته وفطنته، تلك
الخلال التي جعلته أقدر الناس فيهم على أن يفصح عن آرائه لمن إليه، وأن
يتبين ما يأخذ مما يدع في كل ما يعرض له من الأمور مهما تعقدت والتوت
على غيره الأمور. . .

ولقد عد كثير من المؤرخين إدارة لنكون مجلسه على هذه الصورة مظهراً
قوياً من مظاهر عظمته، وناحية متينة من نواحي نجاحه، وسلوكه بها في ثبت
كبار الساسة في تاريخ الأمم، ولا عجب فإنه ليندر أن نجد في سجل الأيام
مجلساً حكومياً شعر أعضائه من معاني الاحترام والمحبة بمثل ما شعر به

أعضاء هذا المجلس نحو رئيسهم. . . لا يستثنى منهم أحد، حتى سيوارد الذي كان يدل أول الأمر بتجاربيته ودرأيته بأساليب الحكم والسياسة، ما لبث أن اعترف في نبل وكرامة نفس أن رئيسه أقدر منه وأجدر بذلك المنصب. . .

وكان أول ما تلقاه الرئيس من البريد في صباح اليوم الثاني لتسلمه العمل خطاباً من الجنرال أندرسون في حصن سمتر ينبئه فيه أنه ما لم يصل مدد إلى الحصن فإنه لا يقوى على الدفاع عنه أكثر من أسبوع. . . وكان أهل الجنوب وأهل الشمال على اتفاق ألا يهاجم أنصار الانسحاب من الاتحاد الحصن إلا إذا رأوا من أهل الشمال ما يبرر ذلك. . . وماذا عسى أن يفعل الرئيس إذن؟ أيترك حامية الحصن بلا مدد أم يرسل المدد فيتحدى بذلك أهل الجنوب؟ إن عليه أن يختار بين أمرين أحلاهما مراً.

لذلك أخذ الرئيس يتدبر عله يجد مخرجاً، وهو على عادته طويل الأناة لا يخطو خطوة قبل أن يحسب لكل أمر حساباً، ولكن سيوارد يضيق ذرعاً بهذه الأناة وينصح للرئيس أن يأمر بإخلاء الحصن، وكذلك يشير عليه سكوت رأس جنده؛ وهو لا يرى ما يريان فالمسألة دقيقة شائكة. أو ليس التخلي عن الحصن معناه الاعتراف ضمناً لأهل الجنوب بصواب دعوتهم إلى الانسحاب؟ ثم أليس في ذلك خروج على ما أعلن الرئيس في خطبة الاحتفال؟ وهو أن أرسل المدد إلى الحصن ألا يعتبر عمله هذا تحدياً للتأثرين فيكون بذلك هو الذي خطا أول خطوة نحو الحرب، الأمر الذي يحرص أشد الحرص أن يتجنبه؟. . . إذن فلا بد من الروية والتدبر والصبر. . .

وجاء رجالان من الجنوب إلى العاصمة الشمالية كممثلين لدولة أجنبية يطلبان أن يفاوضا لنكولن على هذا الأساس، ولكنه رفض أن يلقاهما ولم يفعل أكثر من أن يرسل إلى كل منهما نسخة من خطبته. . . وبقي الرجلان في العاصمة يجمعان الأنباء ويرسلانها إلى أهل الجنوب. . .

والصحف تهيب بالرئيس أن يأتي عملاً إيجابياً ولكنه صامت يفكر. .
والرأي العام يغلي كالمرجل حتى لقد أطلق الناس ألسنتهم فيه بالسوء من
القول، فالرئيس غرّ جبان، متورط لا رأي له ولا بصيرة ولا حزم. . . وتفرق
الناس في الشمال شيعاً فمنهم من يرى وجوب الحرب، ومنهم من لا يرضى إلا
المسالمة والاتفاق، ومنهم من يتذمر ويتبرم ولكنه لا يرى شيئاً ولا يحس غير
القلق والخوف، والرئيس لا يجيب إلا بقوله (إذا أخلى أندرسون حصن سمتر
فسكون عليّ أنا أن أخلى البيت الأبيض). . .

ويتهدي ابن الأحرار بعد طول روية إلى رأي فيه دليل قوي على حنكته
السياسية حتى لأنه مارس السياسة طول حياته، ذلك أنه يزمع أن يرسل القوات
ليس غير إلى الحصن، وحجته أن ذلك عمل إنساني لا عدوان فيه، فإذا قبل
التأثرون هذا حلت المشكلة؛ أما إذا قابلوا ذلك بالقوة فعليهم إثم ما يفعلون، فهم
بذلك يكونون بادئي العدوان ومشعلي نار الحرب. . . ولأهل الشمال بعد ذلك
أن يدفعوا عن أنفسهم العدوان إن كانت في نفوسهم حمية وفي رؤوسهم نخوة
الرجال. . .

وتسير السفن محملة بالقوت، بعد أن يرسل الرئيس نبأ عنها إلى قائد الثوار
حول الحصن، ولكن القائد لا يكاد يبصر السفن من بعد، حتى يطلق النار على
الحصن فيسقط علم الاتحاد وتنسحب الحامية بعد دفاع مجيد. . .

ويثب أهل الشمال للنبا وثبة واحدة فلا خلاف بينهم بعد ذلك ولا تنازع، وما
فيهم إلا من يريد الدفاع عن الاتحاد ورد الإهانة التي لحقت بالعلم الذي طالما
خفق على رأسه وشنجنطون وجنوده البواسل غداة حرب الاستقلال. . .

وما حدث في تاريخ العالم من قبل أن تحمس شعب إلى الدعوة للجهاد كما
تحمس أهل الشمال يومئذ؛ فلقد كان الشيوخ قبل الشباب يريدون خوض غمار
الحرب، ولم يتخلف النساء ولم يقعدن عن شحذ العزائم واستنهاض الهمم وإن
لم تكن هناك حاجة إلى سعيهن. . . أما الشباب البواسل فقد استحبوا الموت

على الحياة فساروا مغتبطين يطرحون نفوسهم تحت المنايا كأنما يسировون إلى نزهة لا إلى مثل عذاب الجحيم.

وهكذا تقع الحرب بين نصفي شعب واحد. ولقد كان الرئيس أكثر الناس في الشعب جميعاً تألماً، وكان قلبه الإنساني الكبير يكاد يتفطر، ولكن ما الحيلة وهو يرى بناء الاتحاد أمام عينيه ينهار حجراً بعد حجر؟

وحسبك دليلاً على حماسة أهل الشمال أن الرئيس عندما أهاب بالولايات أن ترسل إليه خمسة وسبعين ألفاً من المتطوعين، هرع إليه أكثر من تسعين ألفاً، وبعد شهرين وصل العدد إلى أكثر من ثلاثمائة ألف من البواسل الأمجاد.

وكان الموقف قبل وصول المتطوعين إلى العاصمة أشد ما يكون هولاً وخطراً. . . فلم يكن لدى لنكولن سوى ثلاثة آلاف، ولن يستطيع هؤلاء الدفاع عن العاصمة مهما كان من استماتتهم وشجاعتهم؛ لذلك سرى الخوف في المدينة وأيقن أهلها أنها واقعة في أيدي الأعداء لا محالة

والرئيس ينتظر قدوم المتطوعين لإنقاذ المدينة من الخطر المحدق بها؛ ذلك الخطر الذي تشتد وطأته تبعاً لمسلك الولايات المحايدة وعلى الأخص فرجينيا؛ إذ كانت تلك الولايات تقف من النزاع موقفاً مبهماً ظن من أجلها أنها تلتزم الحيطة وإن كانت في الواقع تنزع إلى أهل الجنوب؛ وكانت فرجينيا أقربها موقعاً من وشنجطون لا يفصلها عنها إلا نهر ضيق. وسرعان ما أعلنت فرجينيا انضمامها إلى الاتحاد الجنوبي فبات العدو بذلك على أبواب عاصمة أهل الشمال، بل لقد كان البيت الأبيض على مرأى من الجند؛ لذلك شاع في الناس أن الجند سيعبرون النهر عما قريب فيستولون على مركز الحكومة ويسوقون لنكولن ومجلسه أسرى بين أيديهم. .

وتزايد القلق وعظم الهول واشتد بالناس الكرب، والرئيس يسأل عن المتطوعين فلا يجد جواباً شافياً من أحد، حتى يصل إلى العاصمة قطار يهرول الناس على صوت صفيره إلى المحطة فتقع أعينهم على أول فرقة من فرق

المتطوعين وهي فرقة نيويورك، وتعظم حماسة الجميع فيتصايحون ويرددون الأناشيد.

ويظل الرئيس يبحث عن القائد الذي يوكل إليه أمر هذه الحرب فلا يجد غير رجل يدعى (لي)، وكان يومئذ غائباً في فرجينيا وهو خير من يضطلع بهذا العبء، ولكن (لي) يرفض أن يأخذ قيادة الجيش، فيجزع لنكون لهذا الرفض ويكتئب.

وبينما هو يبحث عن قائد غيره ينذره أهل بلتيمور، وهم الذين تأمروا من قبل على قتله، أنهم لا يسمحون بمرور جند في ولايتهم لأنهم محايدون. . . وينقضون بعد ذلك على فرقة قادمة من مساشرست، كانت من أقوى الفرق وأعظمها نظاماً، فيقتلون عدداً منها ويجرحون عدداً، ويحمل الجرحى على محفات إلى وشنجنطون، فتلهب جراحهم حماسة القوم وتستثير حميتهم وتزيد بأسهم. . .

ولم يكتف الثوار في بلتيمور بما فعلوا فحطموا الجسور التي تصلهم بالشمال والغرب، وعطلوا الخطوط الحديدية المؤدية إلى وشنجنطون. . . ولكن أحد القواد الشجعان الموالين للرئيس لنكون خرج من وشنجنطون على رأس عدد من المتطوعين وباغت المدينة ليلاً وقبض على كثير من الثوار وقتل نفرأ منهم ففت ذلك عضدهم، وأعلنت ولاية ماري لند بعد أن خضعت عاصمتها على هذا النحو انضمامها صراحة إلى الاتحاد، وكانت هذه الخطوة من جانب أهل الشمال أولى خطواتهم الموفقة

وأعلن الرئيس لنكون الحصار البحري على موانئ الاتحاد الجنوبي ليقطع الصلة بينها وبين العالم، ثم أهاب بالولايات الخاضعة له أن تمده بعدد جديد من المتطوعين، فما لبثت أن أمدته بما طلب، حتى لقد غصت وشنجنطون بهؤلاء المستبسلين الذين أراد لنكون أن يستعيز بحماستهم عما يعوزهم من التدريب والنظام.

وفي تلك الأيام العصبية نرى دوجلاس خصم لنكولن القديم يسعى إلى البيت الأبيض ويقابل الرئيس ويفضي إليه بإعجابه بما انتهج من خطة، ويعدده أن يظل إلى جانبه خادماً لقضية الاتحاد وتتوثق عرى المودة بين الرجلين، ويستأذن الرئيس صديقه الجديد أن يذيع في الناس هذا النبأ، فيأذن دوجلاس مغتبطاً بعد أن يقرأ ما أعد للنشر؛ ويقابل الديمقراطيون وغيرهم هذا النبأ بالابتهاج، ويشعرون بقوة جديدة يظفر بها أهل الشمال

ولا يني دوجلاس يدافع عن الرئيس وسياسته يخطب الناس في المدن يستحثهم إلى البذل والتضحية؛ ولا يفتأ يضع بين يدي الرئيس من نصحه ومشورته ما يحرص الرئيس على الانتفاع به. ولكن يد الموت لا تمهل دوجلاس أكثر من شهرين فيلقى حتفه، ويتلقى لنكولن نبأ الفجيعة فيذرف الدمع السخين ويشند به الغم حتى يرمض فؤاده. . .

ولقد امتدت يد الموت قبل دوجلاس إلى شاب مجاهد كان أول أمره يعمل في مكتب لنكولن أيام كان يحترف المحاماة؛ ولقد أعجب لنكولن بذكاء هذا الشاب وملك قلبه شدة محبته له، فلما سار إلى العاصمة سار معه؛ ولما تخرجت الأمور، برز هذا الشاب الباسل الذكي يجمع الفرق ويدربها ويعدها للنضال. . . إلى أن كان ذات يوم فأرسله لنكولن إلى ضفة النهر المواجهة للعاصمة ليحتل المرتفعات هناك. . .

ثم إن هذا الشاب الذي يدعى الزورت ذهب على رأس جنده فاحتل الأماكن المعينة؛ وهناك بصر بعلم من أعلام الثوار يخفق على جدار فندق في مدينة صغيرة تسمى الإسكندرية فتسلق الحائط في بسالة عجيبة وانتزع العلم من موضعه، وبينما هو نازل من أعلى الجدار إذ أصابته رصاصة فانكب على وجهه، وتدفق الدم من قلبه على هذا العلم، فكانت ميته هذه ميتة بطل، تركت في نفوس أصحابه ما لا يتركه النصر في معركة حامية. . . ولا تسئل عما أصاب الرئيس يومئذ من هم وحسرة. . . لقد حزن على هذا البطل كما كان

يحزن لو أن الميت كان وحيداً؛ وجاءت بعده منية دوجلاس فكانت الميتتان
فاتحة الكوارث في هذا النضال العظيم. . .

وإنه ليحق للمرء أن يتساءل: ألم يكن في طاقة القائمين بالأمر يومئذ تجنب تلك الحرب الضروس؛ تلك الفتنة التي لم تصب أوزارها فريقياً دون فريق؟

إن هناك من يعتقدون أنهم قادرين على تجنب ذلك الصراع العنيف، وهؤلاء ومن يرى رأيهم من المؤرخين يأخذون الساسة باللوم الشديد، لا يعفون منهم أحداً؛ ويجعلون نصيب كل من اللوم على قدر ما تواتي له من الجاه والنفوذ؛ ولذلك فقد كان لنكولن عندهم أول الملومين وكبير المسؤولين عن ويلات تلك الحرب وبلى لنكولن في ذلك جفرسون زعيم الاتحاد الجنوبي

ولكن الذين يتوخون الأنصاف يرون أن الحرب كانت أمراً لا محيص عنه؛ كان مردها إلى حركة ولدتها الأيام فما زالت تنمو حتى اتخذت آخر الأمر سبيلاً لم يكن في الإمكان أن تسلك غيرها، لم تكن تلك السبيل لتؤدي إلى غير ما أدت إليه من نهاية دامية؛ ومن ذا الذي يستطيع أن يلوي الأيام عن وجهها؛ أو أن يتصرف في الحادثات لجعلها تفضي إلى نتيجة بعينها؟

لقد كان للزمن والبيئة حكمها الذي لا ينقض وفعلها الذي لا يقف وسنتها التي لا تبدل لها؛ فهؤلاء أهل الشمال كانوا كما ذكرنا أهل صناعة وأهل ثقافة بينما كان إخوانهم في الجنوب أهل زراعة، ولم يك يتوفر لهؤلاء من العلم مثل ما كان يتوفر منه لأولئك الشماليين

وكانت أعمال الزراعة في الجنوب تتطلب الأيدي الكثيرة، وبخاصة حينما بدأت النهضة الصناعية وتزايد طلب القطن، وكانت زراعة القطن أمراً مرهقاً، لم ير الجنوبيون خيراً من إلقائه على كاهل العبيد؛ ولذلك كان نظام العبيد عندهم أمراً يتعلق بكيانهم ومن ثم كانت سياستهم تدور على هذا المحور الاقتصادي، فكانت بذلك مسألة حياة أو موت. . .

أما أهل الشمال فلم تكن بهم حاجة إلى الزنوج، وما كانوا يستخدمون عندهم في أغلب الأحيان إلا خداماً في المنازل؛ وأملت عليهم ثقافتهم فلسفة إنسانية

فكرهوا نظام العبيد واشمازت منه نفوسهم ودارت سياستهم أول الأمر على هذا المحور الإنساني فكانت بذلك في نشأتها مسألة عاطفية

على أنه كان للمسألة وجه آخر فقد اعتبر عدد العبيد من عدد سكان الولايات عند تقدير عددها للتمثيل النيابي في المجلس التشريعي الأدنى كما نص الدستور، وعلى ذلك فقد أشفق أهل الشمال من تزايد عدد العبيد في الولايات، الأمر الذي يتهدد نفوذهم

وتطورت بعد ذلك مسألة العبيد على النحو الذي أسلفناه، فتزايدت كراهية الكثيرين من الشماليين لذلك النظام حتى تحولت إلى مقت، وظهر من بينهم دعاة إلى التحرير؛ وما زال يعظم خطر تلك المسألة حتى باتت كبرى المسائل

وولد الحزب الجمهوري فكانت مبادئه وسطاً بين مبدأ الجامدين ومبدأ أنصار التحرير، فهو يرى ألا تزداد ولايات العبيد حتى ينقرض ذلك النظام على مر الأيام. ولقد كان إبراهيم من زعماء ذلك الحزب الوليد، وهو وإن كان من أشد الناس سخطاً على نظام العبيد إلا أنه أثر الحكمة خوفاً على بنيان الاتحاد؛ فبقاء الاتحاد عنده في المحل الأول من اهتمامه

ولكن مسألة الاتحاد ومسألة العبيد ما لبثتا أن تداخلتا حتى أصبحنا في الواقع مسألة واحدة؛ فلقد فكر أهل الجنوب في الانسحاب من الاتحاد حينما اختير إبراهيم للرئاسة وحينما أيقنوا أن الحوادث مفضية إلى القضاء على العبودية، وما كانوا يريدون من الانسحاب إلا أن يزيّدوا عدد العبيد كما يشاءون. . .

وأنكر إبراهيم عليهم حقهم في الانسحاب؛ فهو لن يبخل بشيء في سبيل المحافظة على الوحدة؛ ولكنهم مضوا في سبيلهم لا يلوون على شيء ولا يستمعون إلى رأي؛ حتى نفذوا ما اعتزموه ثم عولوا على أن يجمعوا أنفسهم بالقوة إذا أدت الحوادث إلى ذلك

وكان جيفرسون زعيمهم يقرر حق الولايات في الانسحاب متى أرادت، بينما كان لنكولن يقول: إن مثل الولاية من الاتحاد كمثل قسم من الولاية من هيكلها، فإذا جاز لهذا القسم أن يفصل عن جسم الولاية، جاز للولاية أن تنفصل عن الاتحاد

وجاءت بعد ذلك مسألة حصن سمتر فكانت بمثابة الشرارة التي أوقدت نار الحرب. . . ولقد عدت تلك الحرب من المآسي البشرية، ذلك لأنها كلفت الفريقين كثيراً من الأموال والأنفس؛ فلقد استحرّت جذوتها لأن الفتنتين كانتا كلتاهما ترى الحق في جانبها. . . وكانت الدماء التي تجري دماء شعب واحد فكل قاتل ومقتول إنما هما صورة جديدة لقابيل وأخيه هابيل

وقفت أمة واحدة فتنتين تقتتلان؛ فهنا الوحدة والحرية، وهناك الفرقة والعبودية، وهنا وهناك الكثير من مواقف الحماسة والتضحية، يضيع في حميتها وضجيجها صوت الحق ويتبدد دعاء الإنسانية. . .

وكانت أولى المعارك الكبيرة معركة نشبت في فرجينيا بعد ثلاثة أشهر من سقوط سمتر عرفت باسم بول رن. وبيان خبرها أن جنود الاتحاد التقوا بجموع الثائرين، وكانت الحماسة والاستبسال هي كل ما لدى هؤلاء المتطوعين من عدة، وكان لأهل الجنوب وإن كان معظمهم من المتطوعين أيضاً، قواد مدربون كانوا قبل في الجيش النظامي للبلاد وتسלّلوا منه إلى الجنوب حين تفرقت الكلمة!

وتبين أول الأمر أن النصر في جانب الشماليين، ولكن ما لبثت موجتهم أن انحسرت، ثم ولوا بعدها هاربين على صورة منكرة، تبعث على الرثاء حتى لقد قيل إن بعض الفارين لم يبقوا عن العدو حتى دخلوا منازلهم في وشنجن ودخلت فلول المنهزمين المدينة في حال شديدة من الذعر والهلع وطافت بالناس الشائعات أن المدينة واقعة في أيدي الجنوبيين، فألقي الرعب في قلوب

السكان وبخاصة حينما وقعت أعينهم على أكثر من ألف من الجرحى؛ وحينما علموا أنه قد قتل في هذا اللقاء الأول أربعمئة وخمسون. . .

ولو أن أهل الجنوب تقدموا غداة انتصارهم لأخذوا المدينة ما في ذلك شك، ولكنهم نكصوا ورضوا من الغنيمة بفرار خصومهم على هذا النحو، وحسبوا أنهم بعد ذلك أحرار فيما يفعلون فلا خوف عليهم من أهل الشمال؛ ثم أنهم منذ خيل إليهم أن عدد أعدائهم يبلغ خمسين ألفاً أو يزيدون مع أنهم لم يتجاوزوا ثمانية عشر ألفاً

وكثيراً ما يكون التاريخ في تطوره رهيناً بحادث بسيط، ومن أروع الأمثلة على ذلك وقوف أهل الجنوب عن الزحف على وشنجنطون؛ ولو أنهم فعلوا لكان للولايات المتحدة وجود غير هذا الوجود وتاريخ غير هذا التاريخ

وكذلك كان يتغير وجه التاريخ لو أن القنوط يومئذ تمكن من نفوس الناس؛ ولولا أن كان على رأسهم إبراهيم لذهبت ريحهم وخارت عزائمهم وتفرقت كلمتهم. فلقد صمد ذلك الصنديد للنبا شأنه في كل ما مر به من الحادثات، ولئن ابتأس للهزيمة وتحسر على الفشل في أول لقاء علق عليه الكثير من آماله، لقد صبر وصمم ألا غنى عن الجهاد مهما يبلغ من هول الجهاد. . .

وسرعان ما سرت روح ابن الغابة في الناس، فعادت إليهم ثققتهم بأنفسهم، وازدادوا حماسة على حماسة حتى ما يقر لهم قرار بعد اليوم حتى يغسلوا عن أنفسهم هذه الإهانة الجديدة وينصرون حقهم على باطل أعدائهم

ولقد استطاعت قوة الشماليين البحرية بعد ذلك أن تستولي على حصنين على الساحل في موانئ أهل الجنوب، كما استطاع القائد ماكيلان أن يفصل بقوته البرية الجزء الغربي من فرجينيا عن جزئها الشرقي ويضمه إلى الاتحاد، وكان أكثر أهله ممن يرفضون الانسحاب فكان ذلك رداً على الهزيمة في معركة بول زن

وكان لنكولن قد دعا المؤتمر ليشاور ممثلي الأمة في الأمر وليطلعهم على الموقف من جميع نواحيه، ولقد بعث لنكولن إلى المؤتمر برسالة كانت من خير ما كتب من الرسائل، تناول فيها كل ما يهم الناس يومئذ معرفته

بدأ لنكولن يسرد الحوادث حتى انتهى إلى موقف أهل الجنوب فذكر أنهم وضعوا البلاد بين أمرين إما الحرب وإما تفكك الاتحاد. . . ثم قال إن الأمر لا يقف عند هذه الولايات المتحدة، بل إنه ليتعداه إلى مبدأ عام هو مبلغ نجاح الحكومات الديمقراطية القائمة على إرادة الشعب

ولقد كان لنكولن جد موفق في إشارته هذه إلى ذلك المبدأ العام، كما كان يصدر في ذلك عن طبع، فهو من أنصار الحرية ومن كبار العاملين على سيادة الشعب وتكلم الرئيس عن الولايات الوسطى التي تظاهرت بالحياد فقال: (إنها تقيم سداً لا يجوز اختراقه على الحد الفاصل بيننا، ومع ذلك فليس هو بالسد الذي لا يخترق فإنها تحت ستار الحياد تغل أيدي رجال الاتحاد بينما هي تبيح الطريق في غير تحرج للإمداد ترسل من بينهم إلى الثوار، الأمر الذي كانت تستطيع فعله أمام عدو صريح)

ورد الرئيس على دعوى جفرسون دافيز زعيم الولايات الجنوبية الذي يقول إن مبدأ انسحاب الولايات حق يبيح القانون الحرب من أجله. ولقد اعتبر الرئيس هذه الدعوى من لغو الكلام قال: (إن الستار الذي يتسترون وراءه وهو أن ذلك الحق المزعوم لا يستعمل إلا مع وجود مبرر عادل، بلغ من الرقة حداً لا يستحق معه أية ملاحظة، وهم سيكونون الحكم في عدالة ذلك المبرر أو عدم عدالته)

وكان رد الرئيس على جيفرسون من الخطوات التي ارتاح لها أهل الشمال فلقد أشفقوا أن تجد مزاعم جيفرسون سبيلها إلى قلوب الأغرار والإغفال

ثم أهاب الرئيس بالمؤتمر أن يمدد بالمال والرجال فهو في حاجة إلى أربعمئة مليون من الدولارات. وأربعمئة ألف من الرجال؛ وسرعان ما أجابه

المؤتمر إلى ما طلب في حماسة جعلته يزيد العدد في المال والرجال عما حدده الرئيس.

وأيقن الناس في طول البلاد وعرضها، وقد رأوا من صلابة الرئيس وعزمه ما رأوا، أن الحرب سيطول أمدها، فتألفت في البلاد كلها جماعات للنجدة حتى كأنما نسى الناس أموالهم الخاصة فليس ما يشغل أذهانهم ويستدعي جدهم ونشاطهم إلا هذه الحرب

ولقد تغلغت تلك الروح في جميع الطبقات: الكوخ والقصر في ذلك سواء، والقرية الفقيرة لا تفترق فيه عن المدينة العظيمة، وأصبح النشيد الذي يتردد على كل لسان ذلك الذي جعل مطلعته (نحن قادمون إليك يا أبانا إبراهيم ستة آلاف من الأشداء. . نحن قادمون. .).

والرئيس لا يعرف الراحة ولا يذوق طعمها. يصل إلى مكتبه في الصباح الباكر قبل أن يطرق البيت الأبيض أحد، ويظل هناك حتى يهبط الليل فيقضي طرفاً منه بين أوراقه. . وامراته تضيق بذلك وتعلن إليه غضبها، ولكنه في شغل عنها بما هو فيه من عظيمات الأمور، وأنى له في مثل ذلك الموقف بلحظة من هدوء البال. . .

وأنى للرئيس أن يستمرئ الراحة أو يهفو إليها حتى يفرغ من رسالته؟ لذلك فهو يجعل للعمل وقته جميعاً لا يكاد يدعه لحظة وكان له في هذا الجهاد الأكبر خير عون من عافيته وقوة بدنه، فلقد بنته الغابة كما تبني دوحاتها العظيمة، كأنما كانت تهيئه لهذه العظام. . .

ولم تكن الحرب وحدها هي كل ما يحمل الرئيس من عبء، فلقد كان له ممن يعمل معهم من الرجال، كما كان له من اختلاف الأحزاب وتبليبل الرأي العام أنقال فوق أثقاله.

وهناك عدا ذلك موقف الولايات الوسطى التي عرفت باسم المحايدة فكان يخشى الرئيس أن تنظم إلى الاتحاد الجنوبي فتزيدهم قوة وعزماً ولن تكون تلك القوة في الوقت نفسه إلا خسراناً لأهل الشمال. . .

ثم هناك موقف أوربا من هذا النزاع. . . وهو أمر له خطره يحسب الرئيس له ألف حساب، وإن كان سيوارد لا يرى له أول الأمر ما يراه الرئيس من خطر.

ولم يترك الناس رئيسهم يعمل لقضيتهم الكبرى فحسب، بل راح الكثيرون يطرقون بابيه يرجونه ويسألونه إلحافاً، فهذا ممن ساعدوا الحزب الجمهوري يطلب من طريق خفي أن يكافأ على خدماته. . . وذلك يطلب وظيفة يأكل من راتبه فيها. . . والموظفون في البيت الأبيض يعجبون من هذا الرئيس الذي لا يجعل فرقاً كبيراً بين قاعة الحكم هناك وبين حجرة مكتبه في سبرنجفيلد. .

لقد جعل للناس يومين كل أسبوع يلقاهم فيهما جميعاً لا يوصد بابيه في وجهه أحد، وإنه ليستمع إلى كل ذي حاجة، فأن استطاع أن يمد إليه يد المساعدة دون أن يجوز بذلك على القانون لم يتردد أو يتأخر. وكثيراً ما كان يجعل الرحمة فوق العدل، إذا رأى نفسه بين أن يعدل فيقسو أو يرحم فيميل بعض الميل. . . ولكنه في ذلك لا يسئ إلى الخلق أو يتهاون في قاعدة جوهرية وحاشاه أن يفعل هذا أو ما هو دونه. . .

ولن يضيق صدره بذوي الحاجات لديه، مع أنهم كانوا يلقونه على السلم، ويقفون أمام غرفته صفوفاً خلف صفوف، بل كثيراً ما كانوا يستوقفونه على الطريق ويحزنونه. . . ولكنه من الكاظمين الغيظ. . ولن يستطيع قلبه الكبير أن ينهر السائل فيزيده بؤساً على بؤسه، وهو الذي عرف اليتيم منذ حادثته وذاق الشقاء ألواناً. . .

على أنه مهما بلغ من رحمته وبره بالمساكين، يعرف أساليب الماكرين، فلا ينخدع بما يراه من ادعاءاتهم فيصرفهم بالحسنى وإلا فبشيء من الشدة يشبه التأنيب ويراد به الزجر. . . دخل عليه رجل كسرت ساقه يسأله عملاً إذ فقد رجله في الحرب، فسأله الرئيس أيحمل أية شهادة أو دليلاً على صدق دعواه، ولكن الرجل لا يحمل شيئاً، فصاح به الرئيس قائلاً: (ماذا؟ ليس لديك أي أوراق أو أي شهادات أو أي شيء يربينا كيف فقدت رجلك. . . فليت شعري كيف أتبين أنك لم تفدها في فخ وقعت فيه وقد سطوت على بستان غيرك. . .)

ويعجب القائمون على الحكومة كيف يطيق الرئيس وقد ملأت وقته الأحداث الجسام أن يلقى هؤلاء الناس ويستمتع إلى مثل هذه الأمور الصغيرة وكان جديراً به أن يكلها إلى غيره. . . ولكن أليس هو من الناس؟ أليس هو خادم الجميع قبل أن يكون رئيس الجميع؟ وهل يغير المنصب ما فطرت عليه الأنفس الكريمة من كريم الخصال؟. . .

هاهو ذا ابراهام النجار تراه في البيت الأبيض ولم يزل هو هو، وداعة في قوة، وتواضع في عزة، ورقة في وقار. . . ومن وراء ذلك قلب تسع رحمته شكوى الناس جميعاً، قلب لا يتنهأ ولا يفرح إلا إذا صنع المعروف وأدلى الجميل فأفرح القلوب وأدخل عليها الهناءة.

وما كان أعظم الرئيس وأجمل خلقه حين يلقى في الطريق إلى غرفته أحد معارفه ممن لا قاهم قبل في مضطرب الحياة، فيقف يضحك وإياه ويده على كتفه ويسأل عن أمره وأمر أسرته. . .

ولقد يأخذه معه إلى قاعة الرئاسة فيذكر له الأيام الماضية حتى ما يشعر
الرجل أنه بين يدي رئيس الولايات المتحدة

ثم ما كان أعظم الرئيس حين كان الفقراء يستوقفونه في الطريق فيقف
ليستمع إليهم وليكلمهم كأنه أحدهم، فلا ترفع ولا كبرياء. ولن يستنكف الرئيس
أن يطيل الحديث أحياناً عليه يستطيع أن يكف بكلامه شيئاً من دموعهم
ويخفف بالعطف عليهم بعض آلامهم. . . ولئن كانت هل حيلة إلى أجابتهم إلى
ما سألوا فما هو عن ذلك بضنين

ولقد كان ينكر عليه مسلكه هذا بعض موظفي البيت الأبيض. . ولكنهم حين
كانوا يزعمون أنه لا يليق ذلك بمن كان في مثل مركزه كان يغيب عنهم أنه لا
مسلك غيره لمن كان له مثل قلبه. على أنهم لم يلبثوا أن أكبروا الرئيس
وأعجبوا بخلاله، وأصبحوا لا يرون أي مأخذ عليه، وأصبح من المناظر
المألوفة عندهم أن يدخل أحدهم ببطاقة للرئيس فيراه ينهض بنفسه إلى خارج
الحجرة يلقي مرسلها مرحباً ضاحكاً. . . أو أن يروه يأتي بنفسه إلى الحاجب
فينهره حين يسمعه يمنع طالبي الدخول عليه. . .

أما الوزراء وكبار الموظفين وقواد الجيش فقد اعتادوا أن يروا الرئيس
يسعى إليهم أحياناً بدل أن يدعوهم إليه. . وكثيراً ما كان يلتفت الواحد منهم فإذا
حاجبه مقبل يعلن إليه أن الرئيس على السلم أو في طريقه إليه

ويدخل الرئيس فيجلس إلى مرؤوسه يستفهمه عما يريد وينصت إليه؛ فان
كلمه مرؤوسه في أمر فني كلام الأخصائي، لا يستنكف الرئيس أن يستوضحه
وكأنه منه التلميذ حيال أستاذه؛ ويعجب المرؤوسون من هذا الرجل الذي لا
يدعي أبداً العلم في أمر يجله، والذي يفهم ما يُبين له في فطنة وسرعة

ماجت واشنجنطون بالمتطوعين حتى أصبحت المدينة معسكراً عظيماً،
ولكن الرئيس يعوزه القواد. . . وإنه ليطيل التفكير فيمن عساهم أن يصلحوا
للقيادة في هذا النضال الهائل. إن على رأس القوات الآن القائد سكوت ولكنه

شيخ كبير ناهز الخامسة والسبعين، والموقف يتطلب قائداً فتيماً يثبت من روحه في قلوب جنده ويمشي بهم إلى النصر. . . ألا ليت القائد لي لم يرفض ما عرض عليه، ولكن بنس ما فعل لي فلقد أنضم إلى الثائرين وأصبح ن أكبر قوادهم

فكر الرئيس وتدبر. وأخذ يقلب الأمر على وجوهه والرأي العام من حوله يزيد موقفه صعوبة، فكل حزب رأي، ولكل جماعة فكرة، ولحكام الولايات آراؤهم وإلا توقفوا عن إرسال الجنود. . . والرئيس يهين له الناس بسكوتهم الجو ليختار قواده على أساس الكفاية ولكنهم لا يفعلون، وهو لا يستطيع أن يغضب تلك الجهات في هذه الظروف القاسية، بينما هو في الوقت نفسه لا يستطيع أن يرضيهم جميعاً

ويستعرض الرئيس الموقف الحربي، فيجد القائد ماكليان قد وفق في أعماله في فرجينيا الغربية، ويسمع الثناء عليه من جهات كثيرة حتى لقد سماه نابليون الجديد. . . ولذلك يدعوه الرئيس ويعينه قائداً عاماً للقوات في فرجينيا

وتتجه الأنظار كلها إلى القائد ماكليان فهو شاب في الرابعة والثلاثين؛ وفيه كثير من الصفات التي تحمل الناس على محبته؛ فله حسن السمات وهيبة الطلعة وروح الشباب؛ وله من صغر جرمه ما يشبه به نابليون، وكذلك له من صفات نابليون بريق عينيه ومضاء عزمته وتوقد حماسه

وسرعان ما تعظم شهرته حتى يجري اسمه على الألسن جميعاً؛ وكم له في الحياة من أشباه ممن قامت شهرتهم على أوام الجماعة ولكن لعل الأيام تثبت جدارته، فإن الأعين والقلوب متفقة على الإعجاب به

على أن للشباب نزاعاته ونزواته، فهذا القائد يدل بجاهه من أول الأمر، حتى ليعد نفسه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن ينقذ البلاد مما هي فيه. . . ولقد شاعبه في هذا الزعم كثير من الناس. . . حتى رجال مجلس الوزراء قد عظمت ثقتهم فيه إلى حد أنهم كانوا يميلون إلى جانبه أحياناً إذا هو رأى ما لا يرى

الرئيس والرئيس يتذرع بالصبر ويتغاضى عن ذلك في سبيل ما يعقده من
الآمال على ما عساه أن يأتي به ذلك الشاب

وأخذ القائد الشاب يدرب مائتي ألف رجل على حدود فرجينيا، وقام بذلك
العمل على خير ما يرجى، ولكنه أطل التدريب وأطاله حتى تسرب الملل إلى
الرأي العام فضاق بما يفعل فإن الناس كانوا يستعملون الزحف؛ وكذلك ضاق
الرئيس ذرعاً، ولكن ماكليان يعد الناس أنه ستعد لحركة عظمى سوف تطفئ
نار الثورة

وشاع في الناس أسم قائد آخر هو القائد فريمونت، ولقد كانت له مواقف
محمودة في الجهات الغربية يومئذ، وكان هذا الرجل من قبل أول مرشحي
الحزب الجمهوري للرئاسة فله بذلك في الناس منزلته وخطره، وله في قلوب
الساسة وأولي الرأي نفوذ كبير

ولن يقل فريمونت عن ماكليان اعتزازاً وترفعاً، فهو يحيط نفسه بفرقة من
الحرس، ويرقي بعض الجند دون أن يرجع إلى الرئيس وهو بحكم مركزه
القائد الأعلى لقوات الدولة. . . وكذلك يتباطأ فريمونت في الرد على البريد
القادم من العاصمة. . . ولن يقف الأمر عند ذلك، بل تأتي الأنباء أن فريمونت
ينوي إقامة اتحاد ثالث في الجهات الشمالية الغربية

ولكن الرئيس لا يصدق هذه الأنباء فهو واثق قبل كل شيء من إخلاص
الرجلين لقضية الاتحاد، وإلا فما كان ليضعهما حيث وضع مهما يكن من الأمر
وأحاط فريمونت نفسه أول الأمر بجو من السكوت، ولكنه ما لبث أن أذاع
قراراً خطيراً اهتز له الرئيس وتبرم منه وضاق به، وذلك أن القائد أُنذر أهل
مسوري في آخر شهر أغسطس عام ١٨٦١، أي بعد قيام الحرب بنحو أربعة
أشهر أنه ينفذ قوانين الحرب في الولاية، ولذلك فهو يحدد منطقة يجعلها
محرمة، يعدم كل من يحمل السلاح فيها ضد حكومة الاتحاد وكذلك يعلن القائد

أن كل من تحدثه نفسه بالثورة من أهل الولاية جميعاً يكون جزائه مصادرة أملاكه وتحرير عبيده إن كان له عبيد. . .

ارتاع لنكون للقرار وتردد وجهه وأوشك أن ينفذ صبره، وكان يلاحظ من يرونه غداة هذا القرار علامات الهم الشديد على محياه، ولكنهم كانوا كذلك يلمحون إمارات العزم والصلابة ودلائل الحزم والثبات

انزعج الرئيس لإثارة مسألة العبيد في تلك الآونة، فلقد جعل مبدأ الحرب من أول الأمر المحافظة على الاتحاد، حتى تكون قضية دستورية لا عيب فيها، وبذلك تجد سبيلها إلى القلوب وتستنهض الهمم بما تثيره عدالتها من حماسة ولا تدع سبيلاً لأحد أن يتهم أهل الشمال بأنهم أوقدوا النار ما أجل أغراضهم وعواطفهم في مسألة العبيد. . . وكذلك كان يتحاشى الرئيس إثارة تلك المسألة حتى لا تثور الولايات المحايدة وتنظم إلى أهل الجنوب، ويفقد الرئيس كل أمل في ضمها إلى جانبه، ومن تلك الولايات مسوري نفسها فقد كان فيها كثير ممن يفتنون العبيد، وأهم منها وأعظم خطراً كانت ولاية كنتولي التي ينتمي إليها الرئيس منذ نشأته، فلقد بذل الرئيس كل ما في وسعه للمحافظة على مودة أهلها لتنضم إلى جانبه أو لتبقى على الأقل محايدة، فلموقعها الجغرافي في الحرب شأن أي شأن

ولكن هذه السياسة الرشيدة العاقلة التي جرى عليها الرئيس ما لبثت أن طاح بها ذلك القرار الطائش؛ فسرعان ما هاجت الخواطر في تلك الولايات المحايدة، وسرعان ما جزع كثير ممن يسلمون بنظام العبيد من أهل الولايات الشمالية

وعظم خطر هذا القرار حتى أصبح نقطة تحول جديد في الموقف كله. . . ونظر الرئيس فإذا هو تلقاء عاصفة شديدة من الرأي العام، فأن دعاة التحرير وأعداء نظام العبيد ما لبثوا أن هتفوا بالقائد الجريء الحازم، وراحوا يمتدحون خطته بقدر ما يعيبون على الرئيس تردده وخوره

وانطلقت الصحف تدعوا الرئيس أن يقر فريمونت وأن يحذو حذوه فيعلن قراراً عاماً ينطبق على الولايات الثائرة جميعاً. ولما وجدوا منه الأعراض والغضب، عصفت برؤوسهم النزوات وراح بعضهم يدعوا إلى إرغام الرئيس على الاعتزال ووضع فريمونت في مكانه

ويتطلع الرئيس بعينيه الواسعتين فإذا بواذر الفرقة والتنازع تكاد تقضي على قضية البلاد، إذا العاصفة تشتد وتشتد؛ ولكنه الرجل الذي لم يخلق له الفرع؛ وهل يذكر أنه خاف العاصفة يوماً ما حينما كانت تنطلق عاتية مدوية فتتهنز لها أرجاء الغابة، وهو واقف منها موقف المتفرج؛ ذلك الموقف الذي ما كان يطيقه صبي في مثل سنه إلا إذا كان مثله من بني الأحرار الذين ألفوا ملاقاته العواصف؟ . . .

لم يتردد في العمل على إبطال قرار فريمونت على الرغم مما بدا له من تحمس الرأي العام له ومظاهرتة إياه فيه على نحو ما بينا؛ ولقد كان من أبرز خلال أبراهام أنه كان لا يعرف التردد أو النكول إذا هو عقد النية على أمر اقتنع بصوابه واطمأن إلى نفعه ووثق من مقدرته على الاضطلاع به؛ وما جرب عليه من عملوا معه أنه صمم قط على رأى ثم انصرف عنه، ولذلك كانوا إذا عزم أذعنوا طوعاً أو كرهاً فما لهم من ذلك بد. . .

وتصرف لنكولن تصرف السياسي الحكيم، فكتب إلى فريمونت يسأله أن يعدل قراره وأن يظهر للناس كأنما يفعل ذلك من تلقاء نفسه؛ ولكن فريمونت لم يذعن لذلك وكبر عليه أن يتراجع؛ فلم ير الرئيس بداً من أن يعلن قراراً عدل به قرار فريمونت غير عابئ بما كان من مخالفة الرأي العام له ولا وجل من تصايح الصائحين من دعاة التحرير. . . وبذلك العمل الحازم الحكيم قضى الرئيس على نذير من نذر الفرقة والتناذب، وكسب بذلك وقوف ولاية كنتولي إلى جانبه. . . ولا تتحسبن الرئيس كما تقول عليه خصومه ومخالفوه في الرأي من أنصاره، قد اتخذ بذلك سبيلاً رجعية؛ كلا، إنما هي السياسة الحكيمة تقضى عليه ألا يتنكب الطريق التي رسمها منذ شبت الحرب، ألا وهي جعل المحافظة على الوحدة أساس هذا الصراع القومي؛ أما مسألة العبيد فما هو بغافل عنها وإنما هو يؤثر الأناة حتى تنتهي الفرصة. . .

هذا ما كان من أمر فريمونت؛ أما ما كليان فلقد ظل يدرّب جيشه على حدود فرجينيا وهو لا يفتأ يرسل إلى الرئيس يطلب فرقاً جديدة، ولا يفتأ يتبرم بأي استفهام يأتيه من قبل الرئيس عما هو عسى أن يفعل؛ ولقد كان هذا القائد الشاب يكره من الحكومة تدخلها في شؤونه؛ بل لقد كان يزدرى أعضاء مجلس الوزراء ويرميهم بالغباء، أو كما يقول إنه شاهد أكبر نوع من الإوز في ذلك المجلس.

وبلغ به الذهاب بنفسه حدًا جعل الناس يظنون به الظنون حتى ليحسبونه يتطلع إلى الرئاسة، فهو ينتظر لا يعمل عملاً حتى تواتيه الفرصة إلى انقلاب يأتي به على غرة. . . ولكن الرئيس على الرغم من مسلك ما كليان يعينه قائداً عامّاً للقوات بعد أن يترك سكوت العمل لكبر سنه.

ولا يقف صلف ماكليان عند حد، فلقد ذهب الرئيس مرة إليه يستنبه عن أمر، فتركه القائد لحظة ينتظر قبل أن يلقاه؛ وشاع ذلك في الناس، وأشارت إليه الصحف، وانعقدت الآراء على استنكاره، ولكن الرئيس لم يعبأ بما حدث، فما كان هو بالذي تلهيه المسائل الشخصية عما هو فيه، ولقد رد على ذلك بقوله (إنني لأمسك لما كليان زمام جواده إذا هو جاء لنا بانتصارات).

ولكن حدث بعد ذلك أن ذهب الرئيس ومعه كبير وزرائه إلى مكان القائد فلم يجده، فجلسا ينتظران حتى رجع؛ وأنبأه بعض الجند بانتظارهما إياه؛ فصعد إلى غرفته وأرسل إليهما رسالة يأسف فيها لعدم استطاعته أن يراها لأنه متعب! واستشاط سيوارد من ذلك غضباً، ولكن الرئيس راح يهون الأمر عليه. .

على أنه كف بعدها عن زيارة ذلك القائد المدل بنفسه.

وقدر الرئيس فضلاً عن ذلك أن يلاقي العنت من الرأي العام كما يلاقيه من أكابر قواده، ومن أمثلة ذلك ما كان من موقف الناس إزاء قرار فريمونت فلقد بالغوا يومئذ في إعنات الرئيس وإحراجة. . حتى كان موقف آخر فعداوا إلى غيهم يأخذون على الرئيس مسالك القول والعمل، وكان ذلك الموقف نتيجة لما أدت إليه الحوادث بين حكومة الاتحاد الشمالي وبين الحكومة الإنجليزية. .

كان لنكونلن يخشى أن تسوء العلاقات بين حكومته وبين إنجلترا، إذ كانت الأنباء تنذر بذلك؛ فكثير من رجال الحكومة الإنجليزية كانوا يرون أن تعترف حكومتهم بالاتحاد الجنوبي كحكومة مستقلة حتى يتسنى لإنجلترا أن تدخل سفنها الموانئ الجنوبية وعلى الأخص موانئ القطن، دون أن يكون في ذلك

تصادم مع الحصار المضروب عليها من الشماليين. . وأخذت الصحف الإنجليزية تدعو إلى ذلك وتلح في الدعوة غير عابئة بما ينطوي عليه ذلك من التحدي لأهل الشمال. واشتد غضب حكومة الاتحاد الشمالي بقدر ما عظم فرح الجنوبيين، إذ كان كل فريق ينظر باهتمام شديد إلى ما عساه أن يحدث من جانب إنجلترا. . وبلغ من استياء سيوارد أنه كتب احتجاجاً إلى الحكومة الإنجليزية، لم يخفف من حدته ما أدخله عليه الرئيس من تعديل، فلقد كان يحرص أشد الحرص أن يفوت على الجنوبيين ما يأملونه من انضمام إنجلترا إليهم.

وفي هذا المأزق الحرج يأتي أحد القواد البحريين عملاً تزداد به الأمور تحرجاً حتى ليحسب الناس أن الحرب واقعة بين إنجلترا والولايات المتحدة ما من ذلك بد. . .

وبيان ذلك أن القائد البحري ولكس داهم سفينة إنجليزية كانت تحمل رسولين من قبل الولايات الثائرة أحدهما إلى إنجلترا والآخر إلى فرنسا أبحرا ليسعيا لدى الحكومتين الإنجليزية والفرنسية أن تأخذا بيد الاتحاد الجنوبي. . . وأرغم ولكس الرسولين على النزول فأسرهما على الرغم من احتجاج قائد السفينة الإنجليزية.

ووصلت الأنباء إلى وشنجطون فراح الناس يعلنون إعجابهم بالقائد ولكس ويثنون على عمله، وما لبث أن انهالت عليه رسائل الإعجاب والثناء؛ ولقد أثنى عليه فيمن اثنوا المجلس التشريعي نفسه، وكثير من الزعماء ورجال الصحافة؛ وهكذا انحاز الرأي العام إلى جانب ولكس كما انحاز إلى جانب فريمونت من قبل لتزداد بذلك الأمور تعقداً وخطراً. . .

أما عن موقع النبأ في إنجلترا فلك أن تتصور مبلغ ما أثار من سخط واستنكار، في ظروف كتلك التي نتحدث عنها، وكذلك كان للنبأ في فرنسا موقعه الشديد وأثره السيئ.

اعتبرت إنجلترا هذا العمل من جانب القائد ولكس إهانة موجهة إلى العلم البريطاني الذي كان يخفق في سارية تلك الجارية التي كانت تحمل الرسولين وقدمت لندن وشنجبوط احتجاجها وأذرتها أن تقابل العدوان بمثله إلا أن تسرع بتقديم الترضية الكافية، ولن تقنع إنجلترا بأقل من إطلاق الرسولين وعدم التعرض لهما ثم الاعتزاز عما حدث. . .

عندئذ اشتد هياج الولايات ورأت في إنذار إنجلترا إياها معاني الإذلال وسوء النية وقبح استغلال الحوادث؛ وأصر الناس على المقاومة مهما يكن ثمنها. وأمدت إنجلترا حامية كنده وأخذت الولايات تزيد في قوة ثغورها الشمالية، وفي الجملة لم يبق إلا إعلان الحرب. على أن بعض العقلاء استطاعوا أن يطيلوا الوقت المحدود للإنذار بضعة أيام على أهل الولايات وخصومهم في إنجلترا يرون حل تحقق به الدماء.

وأخذ الوقت يتصرم ولكن أهل الولايات مصرون على موقفهم لا يثنى عنهم شيء! ورئيسهم ووزرائه يفكرون في هذا الخطر الداهم، وكان سيوارد يميل إلى خوض غمار الحرب ضد هؤلاء الإنجليز الذين تنطوي قلوبهم على الحقد والحق منذ خلعت الولايات الأمريكية نير إنجلترا في عزه وإباء.

وهكذا يجد لنكولن نفسه في شدة ما مثلها شدة. . . فهو بين أن يجاري الرأي العام وبذلك يجر على البلاد حرباً خارجية طاحنة تأتي مع الحرب الداخلية القائمة في وقت واحد، أو يطلق الرسولين ويقضي على أسباب الخلاف بينه وبين إنجلترا وبذلك يجنب بلاده خطراً محدقاً، وإن تعرض بعدها للوم اللأمين وسخط الساخطين واتهامات المبطلين. . .

ولكنه لنكولن الذي لا يعرف الخور والذي لا يطيش في الملمات صوابه. . إنه الرجل الذي تزداد عزمته مضاء بقدر ما تزداد الحادثات عنفاً وخطراً، والذي تزداد قناته صلابة كلما ازدادت الخطوب فداحة والأعباء ثقلًا واستفحلاً.

عقد أبراهام مجلس وزرائه وأخذ يناقش الأعضاء ويناقشونه وهو من أول الأمر لا يؤمن بعدالة ما فعله ولكس؛ وبعد جهد استطاع أن يحمل المجلس على قبول رأيه ثم أعلن بعدها في شجاعة وحزم إطلاق الرسولين، وأجاب على إنذار الحكومة الإنجليزية برسالة متينة جاءت دليل قوياً على حكمته وبعد نظره، رسالة احتفظ فيها بكرامة بلاده وعزة قومه، وجنبها بها في الوقت نفسه خطراً ما كان أغناها عنه يومئذ.

وارتاحت إنجلترا لما فعل الرئيس وأثنى رجالها على حنكته وشجاعته! ولكنه لاقى في بلاده من السخط والاستياء ما لا يقوي على مواجهته غيره، وأوشكت مكانته في القلوب أن تززع، وراح يرتاب فيه المتحمسون ويصفون عمله بالجبن والخور. . . ولكنه فيما بينه وبين نفسه يعتقد أنه أسدى صنيعاً إلى قومه لا يدركه إلا العقلاء، الذين لا يجعلون في كل وقت للعواطف سلطاناً على أعمالهم. . . قال مرة يرد على الساخطين (لقد حاربنا بريطانيا العظمى مرة لأنها فعلت عين ما فعله الكابتن ولكس؛ فإذا ما رأينا إنجلترا تحتج على هذا الفعل وتطلب إخلاء سبيل الرسولين فواجبنا هو ألا نخرج على مبادئنا التي ترجع إلى عام ١٨١٢. . . يجب أن نطلق هذين السجينين وحسبنا حرباً واحدة في وقت. . .)

ومضى العملاق بعدها في سبيله يؤدي للإنسانية رسالته؛ وإننا لنرى هذا الجبار الذي درج من بين الإحراج والأدغال يحمل العبء وحده في الواقع. . . بل إنه كما ذكرنا ليلاقى مما يفعل كثير من أكابر رجاله أعباء تضاف إلى أعبائه ولكنه معود حمل الأعباء ومواجهة الأنواء.

وإنه ليسأل نفسه: ألم بأن لهؤلاء الرجال أن يعملوا كما تطلب الظروف؛ وماذا على فريمونت لو كان رجع إلى الرئيس، ثم ماذا على ما كليان لو أنه خفض جناحه وألان جانبه واخذ الأمور بالشورى. ؟ ولكن ها هو ذا قائد آخر يفعل مثل ما فعل فريمونت، وذلك هو هنتر الذي كانت له القيادة في كارولينا

الجنوبية؛ وكان هنتر أكثر جرأة من فريونت أو على الأصح أكثر نزقاً فلقد أعلن أن سكان فرجينيا وفلوريدا وكارولينا الجنوبية من العبيد أحرار بعد اليوم إلى الأبد. . . .

ولم يسع الرئيس إلا أن يجعل ينقض هذا القرار في غير مجاملة أو هوادة، فلقد كان هنتر خليقاً أن يعتبر بما كان من أمر صاحبه فريمونت مما أعلنه الرئيس قوله: (إن حكومة الولايات المتحدة لم تخول للقائد هنتر ولا لأي قائد أو شخص سواه من السلطان ما يعلن معه تحرير العبيد في أية ولاية من الولايات، وإن هذا الإعلان المزعوم، سواء كان حقيقياً أو زائفاً، هو إعلان باطل)

ولا يكاد الرئيس ينتهي من نزق إلا ليواجه نزقاً غيره، فهاهو ذا وزير الحربية كامرون يرسل رسالة إلى بعض الضباط شبيهة بما أعلنه فريمونت وصاحبه. . ولولا أن تدارك الرئيس الأمر لأحدثت من سوء الأثر ما يصعب بعد علاج؛ ولقد أبرق الرئيس إلى مكاتب البريد لترد نسخ تلك الرسالة المطبوعة وحال بذلك دون وصولها إلى وجهاتها. .

ولما أن يئس الرئيس من ما كليلان وقد مضى عليه أكثر من عام وهو لا يعمل أكثر من تدريب جنده ولا ينفك يطلب فرقاً جديدة؛ رأى أن الموقف، يقضي عليه أن يدرس فنون الحرب والتعبئة! أليس هو بحكم مركزه القائد الأعلى للقوات البرية والبحرية؟ وإذاً فعليه أن يتعلم فن الحرب اليوم كما تعلم مسح الأرض من قبل وتخطيطها وكما تعلم القانون حتى حذقه، بل وكما تعلم القراءة والكتابة قبل ذلك جميعاً وهو بين مطارح الغابة.

شمر الرئيس عن ساعده وراح يدرس ويتعلم لايني ولا يكل ساعات طويلة من النهار وساعات من الليل؛ الخريطة مبسوبة أمامه، ومعلموه من الحربيين يتناوبون العمل معه واحداً بعد الآخر حتى فهم بعض الفهم وأصبح له شيء من

الرأي! يا الله من هذا العبقرى الجبار الذى يحمل على كتفيه ما كان ينوء بحمله
أطلس أو أخيل!

واستطاع الرئيس بعد مدة أن يدلى للقواد برأى فى فهم، ولكنه كان حذراً
يعرض الفكرة ويترك القطع بصحتها للقائد المرسله إليه. ولقد كتب مرة إلى
أحدهم برأيه ثم شدد عليه ألا يتقيد به قائلاً إنه يلومه أكبر اللوم إن هو تحيز له
أو تردد عن العمل تمليه عليه خبرته إذا كان ذلك الرأى لا يتفق وهذه الخبرة.

على أنه يكتب إلى ما كليان نفسه ذات مرة مشيراً عليه بما يجب أن يعمل،
فى خطة مرسومة على أساس فنى، ولما رد ما كليان عليه يرفض تلك الخطة
لم يقره الرئيس، وعاد فكتب إليه يسأله أسئلة تدل على فهم دقيق وإلمام شامل،
ويدع له أن يجيب على تلك الأسئلة الفنية إجابة صريحة ونزيهة والرئيس
مستعد بعدها أن يقره. ثم تحاكما إلى أخصائيين، فما زال الرئيس يدلى لهم
بحججه ويريههم أن خطته أضمن وأسلم من خطة القائد ما كليان، ولكنهم، آخر
الأمر أقروا خطة ما كليان، فلم يسع الرئيس إلا أن يذعن وإن كان لا يزال
يرى وجاهة آرائه.

وتعجب ماكليلان وتعجب الناس معه من هذا المحامي الذي يدلي برأي في الخطط الحربية كأنه من أصحاب الحرب وممن لهم بفنونها خبرة؛ وما عرف عنه أنه شهد حرباً من قبل، اللهم خلا تلك المعركة الضئيلة التي اشترك فيها وهو في صدر شبابه متطوعاً ضد الصقر الأسود. . .

ولكن الذين يؤمنون بسر العبقرية لم يروا في الأمر عجباً؛ وكذلك كان الذين تربطهم بالرئيس صلة من كذب، والذين رأوا راحة عقله وسلامة منطق وقوة لقائته. ومن ذا الذي يقول إن الكتب هي التي أوحى إلى نوابغ العالم في شتى مناحي الحياة ما أتوا به من المعجزات. . ؟ إنما يسير هؤلاء على نهج من فطرتهم وعلى هدى من نور عبقريتهم. . .

وهل التوت الأمور على ذلك الرجل في السياسة ولم تكن له بأسبابها من قبل صلة؟ أو لم يحمل الذين أشفقوا أول الأمر من رياسته على محبته ثم على الإعجاب به؟ وإذا كان هذا هو شأنه في السياسة ولم يتعلمها فلم لا يكون كذلك في أمور الحرب وهو قد استعان بالمعلمين الأخصائيين في تعرف مداخلها بادئ الرأي؟

أخذت الأزمة تشتد في الميادين، وذلك بتوالي الهزائم على أهل الشمال إذ كان هؤلاء ينقصهم القادة القادرون، ولولا أن كان لهم لنكولن في كرسي الرئاسة يومئذ لحاق بهم الفناء؛ والذين يتتبعون أدوار الحرب يشهدون أن النصر في النهاية كان مرده إلى شخص الرئيس فلقد كان وحده جيشاً مغالباً، وكان وهو رجل الأمة وحده أمة في رجل. . .

وكان القواد في الميادين يبذلون ما في وسعهم لا يألون جهداً للوصول إلى النصر، ولقد كان لبعضهم خطوات موفقة في هذا السبيل ونذكر من هؤلاء جرانت الذي سوف يعظم شأنه حتى يصبح رجل هذه الحرب

أما ماكليان فقد ظل على حاله يدرب جنده، ويطلب المزيد من الفرق، والرئيس صابر على ذلك لا ينفد صبره وإن أوشك أن ينفد صبر الناس، فلقد كانوا يستعجلونه الزحف على رتشمند عاصمة الجنوبيين

ومع أن الرئيس قد أمره بالزحف في نهاية يناير عام ١٨٦٢ أي بعد نحو تسعة أشهر منذ بدأت الحرب، فإنه لبث مكانه حتى شهر مارس ثم أخذ يتحرك ولكن في ببطء وحذر مما دعا الرئيس أن يطلب إلى وزير الحربية أن يستحثه ولكن ما كان أعظم دهشتها حينما كتب إليهما ذلك القائد يطلب المزيد من الرجال، وحثته في ذلك أن العدو متكاثر أمامه

وفي مثل هاتيك الظروف التي كانت تتطلب من الرئيس ما أشرنا إليه من جهد يأبى القدر إلا أن يصبوب إليه سهماً يصمي مهجته ويوشك أن يذهب بلبه ويزرع فؤاده، فلقد غالت المنية أصغر بنيه وهو صبي في العاشرة من عمره. ولقد كان وأخاه يزوران مستشفى من مستشفيات الحرب فسرت إليهما العدوى، ولم يقو الصغير على المرض فذوى كما تذوي الزهرة ولدت مع الصبح ولم يكن لها إلا مثل عمر الندى. . .

لقد ارتاع الرئيس ووهى جلده أمام تلك المصيبة ورأى الناس ذلك الطود الأشم بتمایل ويتخاذل من الوهن وهو لا يستطيع أن يخفي عن الناس جزعه ولوعته؛ وإنه ليجهش بالبكاء كما يجهش الصبي وفي عينيه حزن وحسرة وفي وجهه صفرة كصفرة الموت. . علم من الممرضة أنها فقدت زوجها وولديها فسألها ذلك العملاق الذي يحمل عبء قومه كيف تحملت تلك المصائب؟ فأجابته أنها تحملت ضربات الدهر ضربة ضربة وأنها تثق في رحمة الله فمنه العزاء والسلوان. . وهنا يجيبها ذلك الرجل العظيم الشديد البأس أنه سيحاول أن يتعلم الصبر منها وأنه يثق أيضاً في رحمة الله وأن الله سيهبه العزاء ثم يردف قائلاً (أتمنى لو كان لي مثل إيمان الأطفال هذا الذي تتحدثين عنه). . .

ويعبر عن مبلغ حزنه بقوله (إنها أعظم محنة لأقيتها في حياتي. . . لم كان هذا؟ لم كان هذا؟).

ولقد كان الرئيس لنكولن في محنة قومه ثبت الجنان حتى لتتزعزع الجبال ولا يتزعزع، ولكنه كان مع ذلك رؤوفاً عطوفاً يكره الحرب ويتألم منه أكثر مما يتألم الناس جميعاً، ويتمنى أكثر مما يتمنى غيره أن تضع أوزارها في أقرب وقت. . . ولذلك كان ينكر على المتشددین تشددهم، ولا يقر أحداً على قسوة أو يطاوعه في صرامة، فإذا أنس الرئيس من محدثه غلظة على العدو تجهم له وأشاح عنه، في حين أنه كان يقبل على من يطلب إليه اللين والمغفرة وهو يقول له وللناس جميعاً أنه يمقت تلك الحرب من أعماق قلبه وإنه ما دخلها إلا وهو موقن أنها شر لا بد منه، وما أراد بها إلا أن تكون علاجاً لمعضلة باتت تهدد كيان بلاده. . . أما أن تكون انتقاماً وعلواً في الأرض واستكباراً فليس هو من ذلك في شيء. . .

وكثيراً ما كان يصدر من الأمر ما يتعجب منه القواد ولا يشيعونه الرأي فيه ولأن نفذوا ما أمر به. ساقوا إليه في تلك الأيام شاباً حكم عليه أن يرمى بالرصاص لوجوده نائماً في الخطوط وكانت عليه الحراسة؛ فسأله الرئيس عن سبب نومه فعلم أن ذلك كان بسبب الإجهاد فإنه كان متعباً من قبل وأخذ الحراسة بدل زميل له مريض. وهنا صرفه الرئيس ولم يرض أن يكون جزاء اجتهاده ومروءته الإعدام. . . وما قيمة قوانين الحرب عنده؟ إنما هو يستمد قوانينه من قواعد الإنسانية، ولذلك تراه يصبح بالقواد (إنني لا جلد لي أن أفكر أنني ألقى الله ودماء هذا الشاب المسكين على يدي). . .

أجاب الرئيس ماكليان إلى ما طلب وأمدّه بالرجال لكيلا يكون للقائد حجة عليه، فلقد كان يشيع في الناس من أول الأمر أن عدم تحرك القائد إنما يرجع إلى أن الحكومة تضمن عليه بالمال والرجال. . . ولقد كتب إليه الرئيس خطاباً كان مما جاء فيه (أحسب أن القوات التي سيرت إليك قد بلغتك؛ وإذا كان الأمر

كذلك فإنك الآن في الوقت الذي ينبغي أن تضرب فيه ضربة. . إن العدو بتأخرك يكسب نسبياً)

ولم يسع القائد إلا أن يصرح في رسالة له أنه واثق بعد من النتيجة وأنه أخذ في الزحف، ولكنه في الوقت نفسه أخذ يشكو من المطر الهطال ومن الطرق الوعرة، فكان هذا هو جهد ما فعل. . . وأخيراً لم ير الرئيس بداً من أن يبرق إليه في الخامس والعشرين من مايو يقول: (أظن أنه قد أزف الوقت لكي تهاجم رتشمند أو تدع هذا العمل جانباً وتأتي للدفاع عن وشنجطون)

فكأنما أراد ماكليان في ذلك الوقت أن يکید للرئيس، أو كأنما أراد أن يخلق مشاكل جديدة يتخذ منها ذريعة لهذا الجمود فلقد كتب إليه ينتقد الموقف الحربي كله في جميع الميادين ولم يقتصر على شؤون الحرب، بل راح ينتقد الحكومة في جميع شؤونها!

وتقدم القائد بعد ذلك نحو رتشمند تقدماً بطيئاً، فأدى ذلك إلى أن أرسل الثوار المدد إلى جيشهم الذي كان في طريقه لتهديد وشنجطون، وهنا لا يتردد ماكليان في أن يرسل إلى وزير الحربية قائلاً إنه يزمع أن يتراجع. ومما جاء في رسالته قوله: (إذا أنا نجيت هذا الجيش فأني أقول لك في بساطة إنني في ذلك لن أدين لك بشكر، لا ولا لأي شخص في وشنجطون، فلقد بذلتهم قصارى جهديكم لتحطيم هذا الجيش)

وكان القائد لي في ذلك الوقت يزف على وشنجطون، وكان على حمايتها بوب أحد قواد الشمال ومعه ثمانية وثلاثون ألفاً من الرجال ولكن جيش لي كان أكثر عدداً وأشد بأساً؛ وتبين أن خير وسيلة لرد لي عن وجهته أن يبادر ماكليان بالزحف على رتشمند لا أن يتراجع ويتباطأ كما فعل

ولما يئس الرئيس منه في هذا السبيل أرسل إليه يدعوه لحماية العاصمة، ولكنه أبى أن يطيع حتى هذا الأمر وكتب يقول إنه سيجيبه إلى ذلك (إذا رأى الظروف تسمح به) وكان ذلك في شهر أغسطس، ولقد عاد الرئيس فكتب إليه

يطلب إليه القدوم بكل ما في وسعه من سرعة وأبرق إليه القائد هاليك يستحثه ولكنه لم يأبه بذلك كله ولم يصل إلا بعد شهر من هذه الدعوة. . .

وكان أمراً طبيعياً أن تنزل الهزيمة بالقائد بوب وأن تبيت وشنجطون معرضة للسقوط؛ ولقد عاود الذعر هذه المدينة على نحو ما حدث غداة الهزيمة في معركة بول رن، بل لقد كان الموقف يومئذ أشد هولاً؛ إذ اختلفت وجهات النظر في مجلس الوزراء واحتدم الجدل في المجلس التشريعي، وارتفعت الأصوات بطلب عقد الصلح مع الجنوبيين، الأمر الذي خيف منه أن يؤدي إلى انحلال العزائم. . . ولكن لنكولن وحده بقي على عزمه وثباته يعالج الموقف بالصبر والحزم ويهيب بالرجال ألا يتخاذلوا وينكسوا على أعقابهم. . .

ولقد كان للناس من هذا الصبر والثبات مثل ما يكون من النصر في معركة، وبذلك تضاعف فرعهم وعادت إليهم الثقة ووقفوا إلى جانب رجلهم ثم إن الرئيس ضم عدداً من الجيوش بعضها إلى بعض وجعل منها جيشاً جديداً وضعه تحت قيادة ماكليان، وطلب إليه أن يقابل لي بهذا العدد الهائل الذي بلغ مائتي ألف، فلم يفعل ماكليان كما طلب الرئيس فأصاب أهل الشمال هزيمة أخرى في شهر سبتمبر

وأخيراً التحم جيش ماكليان وجيش لي في معركة عنيفة هي معركة انتيتام، فلم ترجح كفة أحدهما، ولكن لي اضطر أن يوقف الزحف، بل اضطر أن يعبر نهر بوتوماك الذي كان على أبواب العاصمة، متراجعاً بذلك عنها، فكان على ماكليان ألا يضيع هذه الفرصة فيتعقب الجيش المتراجع ويعركه في تراجعته ويوقع به هزيمة تفت في عضده، ولكنه قعد دون ذلك على رغم إلحاح الرئيس عليه أن يفعل، وراح يطلب المدد من جديد. . . وأصدر الرئيس إليه أمراً أن يسير في أثر الجيش المتراجع ولكن دون جدوى

ولقد بلغ من استهتار العدو بقوة الشماليين أن عبر أحد القواد الجنوبيين النهر بجنده وسار حتى اقترب من وشنجطون وألحق بأهل الشمال هزيمة

منكرة، وأحاط بجيش ماكليلان، ولولا قلة عدد جنوده لأدى هجومه إلى كارثة ليس بعدها كارثة

على أن ماكليلان قد أساء إلى نفسه قبل كل شيء، فلقد فقد منزلته عند الناس، وبعد أن كان اللوم يوجه أول الأمر إلى الرئيس وحكومته أصبح يوجه إلى هذا القائد الذي أضاع كثيراً من الفرص بجموده. . . وراح الناس يتهمونه بأنه يفعل ذلك لغرض في نفسه، وهكذا أخذ يتضاءل شأنه حتى هان أمره على الناس وتأنى الرئيس أن يعزله ليبحت عن قائد غيره. . .

وربما أخذ على الرئيس طول صبره على ماكليلان ومصانعته زمناً على الرغم من تطاوله في غير مبرر؛ وبذلك يكون الرئيس هو الملوم في ضياع الفرص أو يكون على الأقل شريكاً لماكليلان فيما هو خليق به من اللوم؛ ولكن الرئيس لم يكن غرأ، فهو يعلم أن كثيراً من جنود ماكليلان مفتونون به، يخلعون عليه من صفات العبقرية ومن معاني البطولة ما لا يتهيأ لقائد غيره.

وكذلك كان لماكليلان أول الأمر في قلوب الناس من غير الجند مكانة عظيمة، وإذا فلم يكن من الحكمة في شيء أن يقف الرئيس منه موقف البغض والنفور فيؤدي موقفه هذا إلى فتنة في وقت أن كانت البلاد أحوج ما تكون إلى الاتحاد ولم الشمل على أن لنكون كان بمصانعته ماكليلان على هذا النحو يظهره على حقيقته ويكشف للناس عن مواطن ضعفه، بينما كان هو يبهرهم بقوة صبره، تلك الخلعة التي كان لها أعظم الأثر في إنقاذ البلاد من الخطر في تلك الأيام العصيبة، وأي صبر هو أعظم من هذا الصبر في زمن توالى فيه على الرئيس المهموم والشدائد؟

لقد كان إبراهيم يتلقى الأنباء عن عدد القتلى والجرحى وهو أكثر الناس إشفافاً وجزعاً، ولقد كان يسأل عن العدد من الفريقين المتحاربين لا من فريقه فحسب فيحزن لهؤلاء جميعاً، كأبناء أمة واحدة

ولقد كان الرئيس يذرف الدمع على ما يصيب رجاله في تلك الحرب الهائلة. ذهب ذات مرة إلى مقر أحد الجيوش فلعلم بموت صديق له كان من جلسائه في سبرنجفيلد، فأسرع إلى العودة مضطرباً يداه على صدره كأنما يمسكه أن يتصدع، وعيناه تفيضان، وعلى وجهه شحوب وكدر، وإنه ليسير بين الجنود لا يلتفت إلى تحياتهم فلا يردها من شدة الغم وتكاد لا تقوى على حمله رجلاه.

وفي تلك الأيام كان لا يفتأ يقرأ شكسبير، ففي مآسيه صدى لنفسه الحزينة. على أن عينيه تقعان ذات مرة على تسأل أم ولهى تقول: (لقد سمعتك أيها الأب الكاردينال تقول إننا سنرى ونعرف أصدقاءنا في السماء. ولئن كان هذا حقاً فلسوف أرى ابني ثانية). فانظر إلى الرجل يضع الكتاب ويكب بوجهه على كفيه فيملأهما من روافد دمه. . .

ذلك هو الرجل الذي كان يقوم على شؤون هاتيك الحرب. فله ما أقسى الأيام! إن فؤاده ليكتوي بنارها كلها؛ وإنه ليحس كل ضربة أو طعنة تصيب كل رجل غيره من الرجال، ولكن عليه أن يحمل الأهوال، وإلا فمن يحملها كما يحمل من الأبطال؟

ولقد كانت هذه السنة الثانية للحرب أسوأ الأيام التي مرت بالرئيس طيلة حياته. وأي شيء أشد سوءاً من الهزيمة والخذلان؟ وإن الرئيس ليخشى أن تتحل العزائم وتخور القوى وبخاصة حين أحس الناس أن الحرب لا بد أن يطول أمدها ويشتد سعيها. وهاهو ذا تهامس الأمهات بدأ يصل إلى مسمعيه. وليته كان تهامس الأمهات فحسب، فان كثيراً من الرجال قد أخذوا يبدون تمللمهم وتذمرهم ويعلنون عن رغبتهم في وضع حد لهذه المحنة القومية. . .

وكان مما يكره الرئيس ويوجع نفسه أن كثيراً من الناس كانوا يلومونه ويرجعون سبب الهزائم إليه؛ ويغفلون في ذلك عما كان يفعل قواده وعلى الأخص ماكليان، ذلك الذي كانت محبته والثقة به إحدى خطايا الجماعات

ورجحت كفة الجنوبيين في البر ولكنهم في البحر كانوا أذلة؛ ذلك أنهم لم يكن لهم مثل ما كان لأعدائهم من الجاريات المواخر فيه؛ ولقد استطاع أحد القواد البحريين وهو فرَّاجُت أن يسير في تلك السنة بسفنه إلى نيو أورليانز فيصليها من ناره ويأخذها عنوة، وكان انتصاره هذا وإذلاله أهل الجنوب على هذا النحو مما خفف على الشماليين بعض ما كانوا يلاقونه في البر من هوان وذلة. . . ولسوف تكون تلك القوة البحرية في النهاية عاملاً من أهم عوامل النصر، الأمر الذي لم يفتن إليه أهل الجنوب إلا بعد فوات الفرصة. . .

وبينما كانت الحرب تتأجج نارها ويتفجر بركانها، وتتواثب في البر والبحر شياطينها، كان الرئيس يفكر في أمر هو أعظم ما فكر فيه من الأمر. . . ولقد كان من أجل مواهبه أنه كان يتبين الأمور على حقيقتها مهما التوت عليه سبلها واختلطت وشائجها، وهو في ذلك يلقي بنظره فيتبين حقيقة موقفه وموقف أعدائه ثم يسدد خطاه على هدى مما رأى دون أن تفوته صغيرة أو كبيرة مما تقع عليه عيناه. . .

وتبين الرئيس موقفه فأخذ يتحفز ويستجمع قواه ليقدم، ثم عزم وصمم فليس من الأقدام بد؛ وليس لما عسى أن يلقي من المعارضة أي وزن عنده. . . ومتى عقد إبراهيم النية على أمر ثم تخاذل عنه أو تهاون في العمل على إنفاذه. ؟

صمم الرئيس أن يضرب الضربة التي طالما انتظر أن تواتيه لها الفرصة. أجل، أراد الرئيس اليوم أن يضمن تاريخ البلاد، بل وتاريخ الإنسانية، أجل عمل قام به ألا وهو تحرير العبيد! وإنه لن يحجم اليوم أن يعلن رسمياً وفي مجال واسع ما سبقه إليه فريمونت وهنتر، ولن يتردد أن يأخذ بما رفض من قبل مهما يكن من الغرابة في موقفه، ولكن أية غرابة وهو كفيل أن يوضح للناس قضيته وأن يحملهم على قبول حجته؟

الحق أن الرئيس لم يغفل يوماً عن مسألة العبيد، ولم ينس ذلك النظام المنكر البغيض الذي نشأ على مقتته وازدرائه والذي طالما تمنى أن تنجو البلاد من آثامه. . . ولكنه كان يحرص ألا تفسد مسألة العبيد عليه قضية الحرب، ولقد كان محور تلك القضية كما مر بنا المحافظة على الوحدة؛ فلما رأى تحرير العبيد قد أصبح عاملاً من عوامل نصرته تلك القضية وعنصراً من عناصر نجاحها، لم يتردد ولم يخف ومضى قدماً إلى غايته. . .

وكان الرئيس قد خطا خطوة في هذه المسألة في أوائل السنة الثانية من سني رئاسته (٦ مارس سنة ١٨٦٢) وذلك أنه أرسل إلى المجلس التشريعي مقترحاً أن يصدر المجلس قراراً به تعويض الولايات التي تقضي على نظام العبيد فيها تدريجياً تعويضاً مادياً عادلاً، وأصدر المجلس ذلك القرار ولكن الولايات المحايدة عارضته ورفضته وهي المقصودة قبل غيرها به. . . ودعا الرئيس ممثليها وحاول إقناعهم ولكنهم لم يقتنعوا فمנית الفكرة بالفشل ولم يفد الرئيس منها إلا أنه تعرض لنقد هذه الولايات ولومها ثم للوم دعاة التحرير من جهة أخرى لأنهم رأوا في الفكرة تردداً وتقاعداً وهم يريدون التحرير العاجل في غير تحفظ أو تراجع وكان الرئيس لا يزال يقلب الأمر على وجوهه، فهو

يخشى من التحرير العاجل الشامل أن يغضب الولايات المحايدة فتتضم إلى الاتحاد الجنوبي، وكان يعد ذلك، والحرب قائمة، كارثة؛ ثم هو يخاف أن يتهم أنه ما أثار هذه الحرب الضروس إلا من أجل نظام العبيد مع أن الدستور يقر ذلك النظام.

وهو في الوقت نفسه يرى أن تحرير العبيد سوف يدعوهم إلى التمرد على ساداتهم في الجنوب فتضعف شوكتهم، هذا إلى رفضهم العمل في فلاحه الأرض بعد ذلك فيضطر البيض إلى العمل مكانهم فتتضاءل جيوشهم وتضعف مواردهم، فضلاً عن أن التحرير من شأنه أن يكسب الرئيس وحكومته عطف الدول المتقدمة في أوروبا فلا تناوئه وهو فوق ذلك جميعاً يقضي على ذلك النظام البغيض الذي تنفر منه الإنسانية وتستخذي له، والذي ما فتئ الرئيس ينتظر يوم الخلاص منه. . .

ولكن يبقى بعد ذلك حكم الدستور في الأمر، فالدستور يقر امتلاك العبيد، وإذا أقدم الرئيس على التحرير خرج بذلك على الدستور وهو الحريص على مبادئه العامل منذ اشتغاله بالسياسة على المحافظة عليه وتقديسه. . . على أنه يجد مخرجاً من ذلك فالمسألة تدعو إليها ضرورة حربية وهو مستطيع أن يحمل الممثلين بسهولة على تعديل الدستور في هذه النقطة. . .

بذلك لا يعوز الرئيس إلا الفرصة المناسبة وقد لبث يترقبها. . ولهذا كان يرفض أن يشايع دعاة التحرير قبل أن تحين الساعة فلا عجب أن يرفض في مايو من تلك السنة ما فعله القائد هنتر ولكن ليفعله هو بعد حين. . .

لبث الرئيس يترقب الفرصة، وكانت البلاد يتزايد فيها الشعور بضرورة القضاء على العبودية، ويتجلى ذلك الشعور في تلك العبارة التي كتبها قبل ذلك بنحو ثمانية شهور أحد الكتاب المؤرخين والتي جاء فيها (إن هذه الحرب الأهلية هي الأداة التي سخرها الله لاقتلاع جذور العبودية، وإن أعقابنا سوف

لا يرضون بنتيجتها إلا إذا كان مما تحدثه الحرب ازدياد عدد الولايات الحرة هذا هو ما يتوقعه الجميع وهذا هو الأمل الذي ينشده جميع الأحزاب)

وكانت أولى الخطوات العملية التي جاءت مظهراً لهذا الشعور أن أصدر المجلس في أبريل قراراً بالتحريض العاجل في العاصمة وما حولها؛ ولما وقع لنكولن على هذا القرار قال: (عندما تقدمت باقتراح إلى المجلس عام ١٨٤٩ للقضاء على العبودية في هذه العاصمة ولم أكد أجد من يستمع إلى ذلك الاقتراح، لم أكن أحلم أنه سوف يتحقق بمثل هذه السرعة)

ولقد كان هذا القرار بمثابة مقدمة لما سيتلوه في القريب من تحرير شامل عاجل للعبيد في الولايات جميعاً، ذلك العمل الذي سوف يضاف إلى تراث الإنسانية ويعد من مآثر البشرية في هذا الوجود

وكان على ممثلي الولايات المحايدة، تلك الولايات الوسطى أن تعتبر بما جاء في هذا القرار، لكنهم ظلوا على عنادهم على الرغم من أن الرئيس قد دعاهم إلى مؤتمر آخر في يوليو سرد لهم فيه وجهة نظره وأطلعهم على حججه أخذ الرئيس يتحين الفرصة ولكن الموقف الحربي في صيف ذلك العام كان على ما بينا من حرج وشدة، فالقائد ماكليان في زحفه على رتشموند متلكئ متردد، ولقد تراجع في يوليو تراجعاً مهيناً مخجلاً وإنه ليرفع عقيرته بالسخط على رجال الحكومة في العاصمة كما أسلفنا، الأمر الذي تألم له الرئيس أشد الألم ووقع منه في غمة شديدة وحيرة

وأراد الرئيس أن يفرج عن نفسه فيعلن التحرير في تلك الآونة، ولكن سيوارد أشار عليه أن يتريث ويرجئ المسألة إلى حين، فانه إن فعل اليوم وأعلن التحرير عد ذلك منه ضرباً من اليأس وهو مهزوم مستضعف. . . ورأى الرئيس وجهة رأي صاحبه فآثر التريث والصبر قائلاً: إن التحرير معناه يومئذ (آخر صرخة في الهروب)

وأخذت الأصوات ترتفع من كل جانب بمطالبة الرئيس بإعلان قرار التحرير، ومن ذلك ما جاء في جريدة نيويورك تريبيون على لسان محررها جربلي وهو ذلك الصحافي العظيم الذي كانت تربطه بالرئيس صلة منذ بدأ يعظم شأنه في الحزب الجمهوري.

كتب جربلي في عبارة صارمة يأخذ على الرئيس تردده ويطلب إليه في لهجة أقرب إلى الأمر منها إلى الرجاء أن يعلن تحرير العبيد. ولقد عجب الناس حين رأوا الرئيس يرد بنفسه في الصحيفة على محررها ومما جاء في رده قوله (إذا كان هناك من لا يحافظون على الوحدة إلا أن يحافظوا على نظام العبيد فإني لست معهم، وإذا كان هناك من لا يحافظون على الوحدة إلا أن يقضوا على نظام العبيد فأني لست معهم! إن غرضي الأسمى هو أن أحفظ الاتحاد وليس هو أن أحفظ أو أقضي على العبودية. فإذا تسنى لي أن أنقذ الاتحاد دون أن أحرر عبداً واحداً فعلت ذلك، وإذا كان في وسعي أن أنقذه بتحرير جميع العبيد فعلت ذلك. . . وإذا استطعت أن أحافظ عليه بتحرير بعض العبيد وترك البعض فعلت ذلك أيضاً. . .)

وكان جيش الجنوبيين يزحف على وشنجطون بقيادة لي وقد عبر نهر بوتوماك ونزل في ولاية ماري لند، وأسقط في يد الشماليين وباتت عاصمتهم في ذعر وهلع. . . وحزن الرئيس وضاق صدره بماكليان وأقسم لئن ارتد العدو ولحقت به الهزيمة ليعلنن قرار التحرير إثر ذلك

وأخيراً التحم الجيشان في سبتمبر: جيش لي وجيش ماكليان وارتد الجنوبيون عقب معركة أنتيتام التي أشرنا إليها وكان تراجعهم في اليوم السابع عشر من الشهر

وفي اليوم الثاني والعشرين من هذا الشهر دعا الرئيس مجلس الوزراء إلى الاجتماع عنده، ولم يكن أحد من الوزراء يعلم الغرض من هذا الاجتماع، ولما أكتمل جمعهم فتح الرئيس كتاباً كان يقرأ فيه، وأخذ يقرأ في صوت جهوري

قصة فيه أعجيبته وهو يضحك والوزراء يضحكون ويعجبون إلا أحدهم وهو ستانتون فكان يضيق بكثير مما يفعل الرئيس وبما يأتيه من ضروب المزاح، وهو لا يدري أن مثل هذا الرجل في تلك الشدائد أحوج ما يكون إلى أن يرفه عن نفسه ويخفف عنها بعض ما بها. . . وإلا فكيف يستطيع أن ينهض بذلك الحمل الذي تنوء به الجبال؟ وكثيراً ما يكون ضحك بني الإنسان مغالبة منهم لما يجيش في نفوسهم مما يصبه الدهر عليهم من آلام وخداعاً منهم لأنفسهم عما بها ولو ساعة أو بعض ساعة

ولما فرغ الرئيس من تلاوة القصة غامت أسارير وجهه وبدأ عليه إمارات الجد ودلائل الاهتمام والحزم، فأخرج من جيبه ورقاً طويلاً كتبه بخط يده وتلاه على الأعضاء فإذا هو قرار التحرير

أعلن الرئيس أن العبيد في جميع الولايات بعد اليوم الأول من السنة الجديدة أحرار وأن الحكومة ستعترف بحريتهم وتساعدتهم على بلوغها وأنها ستقوم بتعويض الولايات الموالية عما تطلقهم من العبيد. . . وبهذا الإعلان ضرب نظام العبودية ضربة سوف تكون القاضية عليه، وبه تحقق حلم طالما منى الرئيس به نفسه، ورأى ذلك النجار - الذي وقف في صدر شبابه مرة في مدينة أورليانز يشهد سوق العبيد - نفسه يقضي على ذلك النظام فيعلن باسم حكومة هو رئيسها أن عبودية بعد اليوم المحدد وأن الشعب الأمريكي جميعه شعب حر، وأن أمريكا دولة حرة وأمة حرة

أعلن الرئيس كلمته وأدى رسالته، وشهد ابن الغابة اليوم الذي يقف فيه موقف الأمر الذي ينطق باسم شعب في أمر طالما شغل باله وبأل الأحرار في ذلك الشعب، ورأى العالم نوعاً جديداً من الحركات الكبرى تؤثر في تاريخه وتضاف إلى سجله، حركة من تلك الحركات التي تنقل تاريخ الشعوب من فصل إلى فصل

وهزت البلاد من أعماقها فرحة عظيمة، وراح الناس يعلنون عن ابتهاجهم
بالزينات ينصبونها والليالي يقيمونها ويملئونها بأفراحهم واحتفالاتهم ومظاهر
حبورهم

وانهالت على الرئيس رسائل التهئة والإعجاب يحملها البرق والبريد من
أمريكا ومن خارج أمريكا. . . فلقد تلفتت أوربا تنظر ما تفعله الدنيا الجديدة
للمرة الثانية من أجل الحرية، فهذه الدنيا التي ولدت الديمقراطية في القرن
الماضي تند العبودية في هذا القرن وتضع أسم رجلها وهدية إحراجها لنكولن
إلى جانب أسم بطلها ومحررها وشنجطون الذي انتزع لها استقلالها بحد
السيف من الغاصبين من أعدائها

والرئيس صامت لا يعرف البطر كما لا يعرف الخور؛ يتلقى تهاني المهنيين
وكلمات المعجبين بحزمه في سكون وتواضع، وإنه ليحس ألا يزال بينه وبين
يوم الراحة جهاد وجلاد يرى مظهرهما تلك الحرب التي ما فتئ يتزايد
سعيها. . .

وكان على الرئيس ورجال حكومته بعد قرار التحرير أن يبذلوا غاية جهدهم ليضعوا حداً لتلك الحرب، فان انتصار أهل الجنوب معناه القضاء على كل شيء، فبه تصبح الحرية مجرد أمنية وتصير الوحدة ضرباً من الوهم. . .

ولقد انقضت تلك السنة الثانية للحرب والجنوبيون أرجح كفه، ففيها أرغم ماكليان كما رأينا على التراجع وكان من رتشمند عاصمة الجنوب على بضعه أميال، وفيها حلت الهزيمة بالقائد بوب وهو يدافع عن طريق العاصمة الشمالية، وكذلك انتصر الجنوبيون في الميادين الغربية؛ ولقد كان مرد تلك الانتصارات إلى كفاية قوادهم وحسن نظام جنودهم. . .

وفي نهاية تلك السنة حل محل ماكليان في قيادة الجيش المرابط على نهر بوتوماك، في طريق العاصمة، قائد آخر هو بيرنشيدي؛ ولقد برهن هذا القائد الجديد على كفايته في بعض الأعمال الحربية من قبل، ولذلك اتجهت الأنظار إليه في مركزه الجديد، وراح أهل الشمال يعلقون الآمال على تغيير القيادة، أن كان قد ألقى في روعهم أن ما حل بهم من الهزائم فيما سلف إنما يرجع إلى سوء تدبير ماكليان. . .

ولكن في الجيش عدد كبير من الجند قد ألمهم أن يفارقهم قائدهم أو أن يحال بينهم وبينه على هذا النحو، لذلك لم يحسنوا لقاء القائد الجديد أو لم يشعروا تحت رايته بما كانوا يشعرون تحت راية ماكليان من حماسة وزحف القائد الجديد على رأس جيش ليحتل فردريك سبرج على الضفة الأخرى للنهر، حيث كان يربط لي قائد الجنوب العظيم؛ ووقف القائد الشمالي تجاه خصمه يفصل بينهما نهر يوتوماك، وقف ينتظر أن توافيه هناك تلك المعابر المتنقلة التي لا بد له منها ليعبر النهر ولكن المعابر وصلته متأخرة فاستطاع خصمه القوي أن يحصن المرتفعات حول المكان، فلما أخذ يعبر النهر هو وجنوده انصبت عليهم النيران الحامية من كل صوب، ونظر القائد فإذا كثير من جنده حوله صرعى

لا يقل قتلاهم عن الجرحى، فكان لا بد أن يتراجع وكانت هزيمة جديدة تضاف إلى سلسلة الهزائم في ذلك العام المشئوم. . .

وحمل الجرحى إلى وشنجنطون فضاقت بهم المستشفيات حتى لقد حول عدد كبير من الكنائس وغيرها من الأبنية إلى أمكنة للجرحى، وطافت النذر بالمدينة، وانعقدت في جوها سحب الغم مركومة سوداء، وأخذت الناس غاشية من الحزن ورجفة من الذعر زاعت لهما الأبصار وبلغت القلوب الحناجر. . .

وأخذت الأنظار تتجه إلى البيت الأبيض وليس فيها من معاني الأمل بقدر ما فيها من معاني اللوم والغيط، وكأنما كانت ترف من حوله أرواح القتلى فتلبسه كآبة وتشيع فيه ما يكرب النفوس ويؤلم الصدر. . .

وأخذ يظهر في العاصمة حزب جديد ترمي أغراضه إلى وضع حد لهذه الحرب بأية وسيلة، وألفى الرئيس نفسه بين تيارين، فهنا من ينادون بوضع حد لتلك المحنة، وهنا من يطلبون إعادة ماكليان إلى القيادة والسير في الحرب ولكن في سرعة وحماية وإقدام، وغير هؤلاء وهؤلاء قوم يطالبون بتغيير القواد والبحث عن وسائل جديدة تكفل النجاح، وقوم آخرون خيل إليهم أن الفرصة قد سنحت لهم لإعلان رأيهم في مسألة تحرير العبيد وكان رأيهم ألا يمس ذلك النظام بما يغير من أصوله. . .

وترامى إلى الناس فضلا عن مزعجات الحرب وشائعاتها أن المجلس التشريعي منقسم بعضه على بعض، وأن مجلس الوزراء نفسه قد شاع الخلاف بين أعضائه، ورأى الناس مما يشاع ويداع أنهم على حافة الكارثة. . .

ولكن السنديانة ثابتة على رغم العاصفة لا تنال الريح العاتية شيئا من ثبوت أصلها وسموق فرعها. أو لم يك في الغابة منبتها وكان فيها غداؤها وريها؟. . . أجل، إن رجلا واحدا هو الذي بقي أمام هذه الشدة رابط الجأش صارم العزم قوي الإيمان، وذلك هو الرجل الذي ألقت عليه الأقدار عبء قومه دون غيره من الرجال فكانت كأنما اختارته عن بينة مما تبين وتدبر!

وقف ابراهام عزيزاً لا يهون، صلباً لا يلين، بصيراً لا يطيش حلمه، أميناً لا يخون العهد الذي قطعه على نفسه، مؤمناً لن يقعد حتى يتم رسالته أو يموت. وكان موقف الرئيس هذا هو كل ما بقي للقضية من عناصر القوة. . . ولكن أية قوة لعمرى هي أعظم وأبقى من تلك القوة؟ ألا أن الظروف التي بالغت في قسوتها على الاتحاد وأنصاره قد عوضتهم من جهة أخرى خير العوض بأن جعلت على رأسهم ذلك الرجل العظيم.

وليت شعري ماذا كان عسياً أن يحدث من أول الأمر لو لم يكن على رأس البلاد هذا الذي درج من بين أدغالها؟ بل ماذا كان عسياً أن يحدث في هذه الأونة الدقيقة التي لم يكن للبلاد فيها من عاصم إلا الصبر كأعظم ما يكون الصبر؟ وأي صبر هو أشد وأبلغ من صبر ذلك الطود الراسخ الأشم؟

وكان من قواد الحرب يومئذ قائد يدعى هوكر وهو في المرتبة الثانية من بعد بيرتسيد، راح في ذلك الوقت يذيع في الجند أن البلاد أشد ما تكون حاجة إلى ديكتاتور يقضي على المنازعات ويرغم الأحزاب أن تحبس هزرها وتدفن خلافها، وأن الجيش لن يقوده إلى النصر إلا مثل ذلك الرجل الذي يقبض بيد قوية على أزمة الأمور في الدولة وفي الميادين جميعاً! . . . ولقد ذاعت أفكار هوكر حتى لقد اجترأ ضابط كبير أن يعلن (أن الجيش وعلى رأسه ماك الصغير يستطيع أن يطهر المجلس التشريعي والبيت الأبيض). . . قالها من غير تحرج وإن كان قد ألقى القبض عليه من أجلها. . .

وكتب لנקولن إلى هوكر يعاتبه على ما يذيع من أفكار ويحذره العاقبة ويعينه قائداً لجيش بوتوماك، ومما جاء في خطابه قوله: (إنك لن تستطيع أنت ولا نابليون - إذا قدر له أن يبعث - أن ترجع بخير من جيش هذه هي روحه. . . ألا حذار من التعجل، حذار من التعجل، ولكن أقدم في نشاط وحمية لا تخبو واكسب لنا النصر)

انتهى العام الثاني بهذه الحرب الهائلة، وقد لاقى الشماليون ما لاقوا من الهزائم، ولقي الرئيس من عنت الظروف والرجال ما لاقى، وحل العام الثالث فلقى الرئيس في مستهله وفود المهنئين بالعام الجديد وباليوم الذي يحل فيه موعد التحرير، والرئيس مشغول بالحرب وما تتطلب من الرجال والمال. . . وهاهو ذا يعلق الآمال على ما عسى أن يفعل هوكر ويسأل ترى ماذا سيكون نصيب القضية في هذا العام

وزار الرئيس ميدان القتال على نهر بوتوماك وقضى هناك أسبوعاً يشرف بنفسه على الجيش ثم عاد إلى العاصمة يماني نفسه بالعوز الذي يضع حداً لهذا القلق الذي تزايد حتى عم الرجال جميعاً

وتحرك جيش بوتوماك في إبريل من تلك السنة ولكنه ما لبث أن هزم هزيمة منكرة في شانزلورزفيل، بعد أن أبلى في المعركة بلاء حسناً أول الأمر. . . ثم انقطعت أخبار الجيش عن العاصمة بعد الهزيمة حتى بات الناس في حيرة شديدة. . . ورضي لنكولن من الغنيمة بالإياب، فكان يماني نفسه أن يعود الجيش إلى موقفه الأول فيمنع الطريق إلى العاصمة. . . وأخيراً وصلتته رسالة من القيادة أن الجيش قد عاد إلى موضعه، ولقد تسلمها الرئيس وقرأها فتندت جفونه، وهو يقول لمن حوله من أصحابه: ماذا عسى أن يقول الشعب؟ ماذا عسى أن يقول الشعب؟ واشتد به الغم حتى ما يفلح كلام في الترفيه عنه. .

وركب الرئيس وجماعة من صحبه زورقاً بخارياً إلى حيث يرباط الجيش، فاستطلع واستفهم القائد عن سبب الهزيمة ثم رجع إلى المدينة وقد عقد النية على أمر. . . أعلن الرئيس ما يشبه الأحكام العرفية، فحد من حرية الصحافة ومن حرية القول، وأنذر من يعمل على عرقلة قضية الاتحاد أنه سوف يقدم إلى المحاكم العسكرية لنتظر في أمره، ولم يعبأ الرئيس فيما فعل بالنقد الشديد يوجه إليه من كل جانب، فلقد كان مستنداً إلى أحكام الدستور الذي يخول له أن يتخذ عند الخطر ما تتطلبه مصالح البلاد من الأحكام

وحل الورق محل الذهب والفضة في المعاملة إذ كانت الحكومة في حاجة إلى المال لتتفق منه على هذه الحرب الضروس، ولقد التجأت من أجلها إلى القرض. . . وامت الضائقة حتى شملت الناس جميعاً وهكذا ظهر للناس أن هذا العام الجديد أشد هلعاً مما سبقه

ولكن هذه الشدة لم تأت بالغرض منها، لقد وجد أعداء الحرب وأعداء القضية فيها فرصة لنشر آرائهم، وسرعان ما تألفت في نواح كثيرة من البلاد جمعيات سرية تعمل على مقاومة الرئيس وحكومته بكل ما يمكن من الوسائل وجهر فريق من ذوي الرأي والمكانة بمقاومتهم هذه السياسة ومن هؤلاء ولندنجهام وهو نائب عن أهايو في المجلس التشريعي. . ولقد أخذ هذا الرجل يعمل في نشاط وقوة على معارضة كل مشروع في المجلس يراد به نصره قضية الحرب، وفي خارج المجلس راح يطلق لسانه في الرئيس بكل فاحش من القول فتارة يسميه (الملك لنكولن) وتارة يسخر من ذلك الرجل الذي يريد (أن يخلق الحب بالقوة، وأن ينمي شعور الإخاء بالحرب) وتطرف ذات مرة فهتف بسقوطه في مجتمع احتشد فيه عدد من الديمقراطيين الذين أعجبوا به

وكان برنسيدي يقود الجيش في الجهات التي تقع فيها أهايو مدينة ذلك النائب، ولقد أعلن القائد أن كل شخص يعمل ضد الحرب وقضية الاتحاد جزاؤه أن يقدم إلى محكمة عسكرية لينال عقابه على يديها. . . ورد ولندجهام على هذا بخطاب حماسي احتشد الناس في تلك الولاية لسماعه ودعا الناس إلى رفض هذا القرار وعصيانه؛ ولم يسع القائد إلا أن يقبض عليه ويسوقه إلى المحكمة العسكرية فقضت بحبسه في أحد الحصون هناك. . .

وارتفعت الأصوات بالاحتجاج على هذا الفعل الذي يتجلى فيه خنق الحرية، فغير لنكولن حكم الحبس بالنفي إلى خارج مناطق النفوذ الشمالي، وأرسل ذلك النائب المتمرد إلى الولايات الجنوبية في حراسة نفر من الجند

تكاثفت السحب وأكفهر الجو، ولم يعد يرى الناس بصيصاً من نور الأمل، فيئسوا من النصر، وتخرجت الأمور حتى ما يعرف لنكولن نفسه ماذا يفعل! . . ألا هل من قائد يكسب معركة واحدة فيعيد الرجاء إلى النفوس، والأمن إلى الخواطر، والعزم إلى القلوب؟

إن هزيمة الشماليين في شانسلو رزفيل كانت أقسى ما لاقوا من المحن، حتى لقد عد مايو وهو الشهر الذي وقعت فيه الهزيمة شر الأيام هو لا في تاريخ تلك الحرب الأهلية الكبيرة. ولقد كانت خسائر الشماليين في تلك المعركة بعد ما ذاقوا من الهزائم من قبل، مما يثبط الهمم ويحل العزائم بينما خرج منها الجنوبيون ولم يخسروا كثيراً اللهم إلا إذا ذكرنا خسارتهم الفادحة بموت قائدهم جاكسون الذي خر صريعاً من رصاصة طائشة أصابته من يد أحد جنوده. . .

ها هو ذا الرئيس يفكر ويدور بعينه يتلمس القائد الذي يفلح مسعاه بعد أن خابت مساعي القواد. . . ألا من له بهذا القائد؟ من له بهذا القائد؟ . . . ولكن أين جرانت؟ أنه هو الرجل، وإن قلب الرئيس ليلتفت إليه في هذه المحنة كأنما يلتفت من إلهام. لقد برهن جرانت على كفايته في بعض المواقع وإن لم تكن بذات بال، وحسبه النصر فيها على أي حال، ولعله لا يتخلف عنه النصر إذا أُلقيت على عاتقه القيادة في غيرها من المعارك الكبيرة. . . لقد استطاع أن يستولي على حصني هنري ودونلسن على نهر المسيسيبي في فبراير من عام ١٨٦٢ سنة الكروب والهزائم واستطاع كذلك أن يحمل الجنوبيين في أبريل على التراجع في معركة حامية حدثت في أبريل من تلك السنة

وكان الرئيس لا يعرف جرانت معرفة شخصية، ولكن هاتيك الانتصارات في أوقات عز فيها النصر تتم عن كفاية، وتدل على بطولة، وإن عين الرئيس البصيرة لتستشف من وراء تلك الأخبار الرجل المرجو. . . وإذا فليرسل الرئيس إليه وليعطه الراية ولينتظر النصر على يديه

ولكن بعض الرجال يلقي إلى الرئيس من أنباء ذلك الرجل أنه بابنة العنقود مولع حتى ما يفيق منها إلا قليلا، فاستمع إلى الرئيس وقد هداه قلبه الذي لا يكذبه ودلته بصيرته التي لا تخطئه، استمع إليه يقول لهؤلاء الناس (أرجو أن تدلوني: أي نوع من أنواع الويسكي يشرب ذلك الرجل لأرسل منه دنا لكل قائد من قوادي الآخرين)!

أيقن الرئيس أن سوف تنتشع السحب ويتنفس الناس الصعداء، فلئن لم يكن لهم إلا ثقتهم في رجلهم، لقد امتدت عيناه البصيرتان إلى القائد الذي يكون في ميادين القتال مثل ابراهام في البيت الأبيض، رشيدا لا يزوغ بصره، قويا لا يكل عزمه، ثابتا لا يخف حلمه، حكيما يعرف ما يأخذ مما يدع، جريئا مؤمنا يرى الحياة الحقيقية في أن يموت في سبيل مبدئه.

وكان لهذا القائد الذي بزغ نجمه شبه كبير بالرئيس في نشأته وفي كثير من طباعه، كلاهما واجه الحياة وهو في سن اللهو واللعب، وكلاهما شق طريقه فيها بنفسه فكان كالنبذة القوية المستقيمة التي تفلق التربة وهي بعد صغيرة، لا كتلك الأفاع الملتوية التي لا تعرف من معنى النماء إلا أن تتسلق على غيرها وهي في ذاتها هزيلة نحيلة. . .

كان جرانت كأبراهام قوة إرادة ومضاء عزيمة، وكان مثله يلم بما حوله من المشكلات إماماً تاماً ويستوعب أجزاءها لا تفوته منها صغيرة ولا تستعصي عليه كبيرة، كما كان يعرف في كل موقف قدر نفسه لا يغتر ولا يزهى ولا يتضاءل ولا ينكص. . وهو إن لم تكن له سماحة الرئيس وعذوبة روحه، فقد توفر له الكثير من بساطته ووداعته. . .

كان جندياً في سني يفاعته، ثم انصرف عن الجندية إلى الزراعة حيناً ثم إلى التجارة بعد ذلك، وظل بضع سنين حائراً يضرب في الأرض في طلب الرزق. ولو لم تقم تلك الحرب الأهلية لما وعى التاريخ عنه إلا بقدر ما يعي عن الآلاف غيره من البشر اللذين يعبرون هذا الوجود وكأن لم يخلقوا!

وأحس لنكون أن في هذا الرجل من الصفات ما يعد متمماً لصفاته، فهو متحمس سريع المضي إلى غايته إذا اتجه همه إلى أمر؛ وهذه الحمية يقابلها عند الرئيس الروية قبل البدء، والتمهل إذا مضى في سيره. . .

هذا هو القائد الذي أحس أبراهام أن سوف يكون على يديه النصر بعد تلك الهزائم الشائنة، وبعد أن خذلته الظروف، وتنكر له الرجال وضايقوه على صورة لم يكن يطيقها غيره. .

أراد الجنوبيون أن يقوموا بهجوم قوي على العاصمة الشمالية فيضربوا الاتحاد الضربة الحاسمة، فزحف قائدهم الكبير لي بجيشه فعبر نهر بوتوماك وسار حتى أصبح على بعد خمسين ميلاً أو نحوها من وشنجنطون في مكان

واشتدت العزائم ورأى المستضعفون والذين استكبروا ما كانوا قبل في
عمى عنه؛ رأوا فضل رئيسهم وعاقبة ثباته وصبره، فراحوا يتوبون إليه
ويهنئونه بما صبر. . .

والرئيس يشارك القوم جذلهم، ولكن نشوة النصر لا تصرف عينيه عما هو
فيه، كالربان الماهر الحاذق، لن يدير عينيه عن البحر إذا هو اجتاز مكاناً
تتجمع فيه الصخور، ولن يزال محققاً متيقظاً حتى تلقى السفينة مراسيها. . .

وكان في نفس الرئيس شيء يكاد يكرهه فينسيه فرحة النصر، وذلك أن ميد
قد وقف فلم يتعقب لي ويجهز على جيشه لدى انسحابه، فلقد كان عليه أن يعبر
النهر ليعود إلى ولاية فرجينيا، وعبر النهر ليس بالأمر الهين على جيش
ينسحب؛ ولكن ميد كان يرى الجيش في حالة من الإعياء لا يستطيع معها أن
يقوده إلى أي زحف مهما هان أمره، فلقد جاء نصره بشق الأنفس. . . وأحس
القائد المنتصر الحرج من وقوف الرئيس حياله فطلب إليه أن يعفيه من القيادة،
فرد عليه الرئيس ملاطفاً في صفح يشبه الاعتذار

وكأنما جاء انتصار الشماليين في المعركتين في تلك الأيام على قدر من
الظروف، فلقد كانت تأتي الأنباء من خارج أمريكا بسوء موقف الحكومة
الإنجليزية من قضية أهل الشمال! تلك الحكومة التي كان يعتقد لنكون أنها
سوف تحمد له قضاءه على العبودية فأعلن قرار التحرير وفي نفسه هذا
الرجاء؛ ولشد ما ألمه بعدها أن يرى الحكومة تتذبذب وتلتوي ولا تخطو إلا
على هدى من مصالحها المادية.

وكان مما يخفف وقع هذا الجحود على نفس الرئيس ما كانت تأتي به الأنباء
من موقف أحرار الشمال من الشعب الإنجليزي حياله، فلقد علم أن اجتماعات
عقدت في مانشستر ولندن هتف فيها باسم الرئيس هتافاً عالياً حتى لقد وقف
الناس في أحدها دقائق يلوحون بقبعاتهم في الهواء عند ذكر اسمه؛ وظل هذا
موقف الأحرار في الشعب الإنجليزي حتى وصلت إليهم الأنباء بالانتصار

السالف الذكر فاستخذى الطامعون وذوو الأغراض من رجال الحكومة والبرلمان، هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يتخذوا من انتصار الجنوبيين ذريعة لإعلان اعترافهم بهم كأمة مستقلة، والذين بلغ بهم الحقد على لنكولن وحكومته أن جهزوا سفناً لمناوأة تجارة الشماليين في المحيط وأرسلوا بعضها فعلاً لهذا الغرض.

تلك هي نتائج الانتصار في المعركتين وأثره في الداخل والخارج. قال لنكولن عندما قرأ رسالة جرانت: (الآن يستطيع أبو المياه أن يذهب من جديد إلى البحر وليس في سبيله عائق). . واجتمع الناس في حفل كبير في مكان معركة جتسبرج ليمجدوا ذكرى ضحاياها وطلبوا إلى الرئيس أن يخطبهم في هذا الحفل المشهود فكان مما قاله: (منذ سبعة وثمانين عاماً أقام آباؤنا في هذه القارة أمة جديدة، نشأت على الحرية وعلى ما نودى به من أن الناس خلقوا جميعاً على سواء، ونحن الآن في حرب أهلية هي بمثابة اختبار لنرى هل تستطيع هذه الأمة أو أية أمة نشأت نشأتها أن تعيش طويلاً. . . ونحن نجتمع هنا لنخلد موضعاً منها نجعله مقراً نهائياً لهؤلاء الذين بذلوا أرواحهم كي يستطيع أمتهم أن تعيش؛ وهذا عمل مناسب ولائق بنا، ولكننا لن نستطيع في معنى أوسع أن نخلد أو نقدر هذه البقعة. . . إن البواسل من الرجال سواء في ذلك الأحياء والأموات الذين ناضلوا هنا قد خلّوها أكثر مما تستطيع قوتنا أن تزيد عليها أو تنقص منها وإن العالم سوف لا يهتم كثيراً وسوف لا يتذكر طويلاً ما نقول هنا ولكنه لا يستطيع أن ينسى ما فعل هؤلاء). . . ثم زاد على ذلك فقال (يجب أن نصمم على ألا ندع موت هؤلاء يذهب عبثاً وعلى أن تعطى هذه الأمة في عناية الله مولداً جديداً هو مولد الحرية، وعلى أن تكون حكومة الشعب التي قامت بالشعب وللشعب، بحيث لا تزول أبداً من فوق الأرض)

هذا هو خطاب الرئيس الذي سمعه الناس في تلك البقعة التي صبغتها دماء المجاهدين. ولقد وصلت كلماتها إلى أعماق نفوسهم فهزتها هزاً لم يتمالك معه الكثيرون أن يحبسوا دموعهم من فرط ما أحسوا من المعاني. . .

وآمن كثير من دعاة الهزيمة والتردد بما كان لثبات الرئيس من فضل، وأيقنوا أن سوف يكون مرد انتصارهم في النهاية إلى هذا الذي يحمل أثقال قومه فلا ينوء بها ولا يزداد على المحن إلا صلابة واعتزماً.

ولاحظ عليه المتصلون به أن تلك الشدائد وإن لم تنل من عزمه، قد نالت من جسده، ورأوا السنديانة يمشي إليها الذبول شيئاً فشيئاً حتى ليخافوا أن تذوى فتسقط - أجل فزع الناس أن يروا إبراهيم تتجمع وتتزايد في وجهه التجاعيد وهو من صدر شبابه لم يك خلوا منها، وأن يلمحوا في صفحة هذا الوجه المحبوب إمارات الجهد، وفي نظرات تلك العينين الواسعتين أثر السهد وطول العناء. . .

ولكن روحه أقوى وأعظم من أن يتطرق إليها الوهن، أو أن تتأثر بشيء مما يصيب جسده. . . أليسوا إذا جلسوا إليه لا يزلون يستمتعون بأحاديثه العذبة ونكاته المطربة الظريفة؟ أو ليسوا يسمعون حتى في تلك الأيام ضحكاته التي قد يطلقها أحياناً فتذهب في أرجاء الحجرة مجلجلة مدوية؟ ذهب إليه أحد الرجال في أمر من الأمور الهامة فأخذ الرئيس يقص عليه من قصصه حتى لم يطق الرجل صبراً فقال وفي لهجته حدة وفي عبارته شدة: (أيها الزعيم إنني ما جئت هنا هذا الصباح لأسمع قصصاً. . . إن الوقت عصيب). فاستمع إلى الرئيس يقول له في رزانة وأدب (اجلس يا أشلى، إنني احترمك كرجل مخلص ذي حمية، وإنك لم يبلغ اهتمامك أكثر مما بلغ اهتمامي هذا الذي ما فارقتني منذ أن بدأت تلك الحرب، وإنني أقول لك الآن إنه لولا هذا الذي نفس به أحياناً عن نفسي لحاق بي الموت).

ومن أولى من هذا الرجل وأحق أن ينفس عن صدره في هذه الشدائد المتلاحقة؟ هذا إلى أنه فيما يفعل إنما يصدر عن طبيعة لا قبل له بالتخلص منها. ولقد كان مما يستعين به في ضيقه أن يقرأ، وكانت مآسي شكسبير وفي طليعتها ماكبث ما يتناوله من الكتب. وأنه يفرح ويهش لمن يشاركه عواطفه وميوله كما أنه كان يضيق بالمتزمتين اللذين يزيدون الحياة بتبرمهم وسخطهم أثقالاً فوق أثقالهم. .

وسار العام الثالث إلى نهايته والبلاد يتزايد أملها في النجاح بعد أن كاد يعصف اليأس بالقضية كلها فيأتي عليها، فلقد رأينا ما كان من دعاة أعداء الحرب وعملهم على عرقلة مساعي الرئيس ومن هؤلاء ولدنجهام الذي مر بنا ذكره. . . وهنا نشير إلى رجل آخر هو حاكم ولاية نيويورك، فلقد كان هذا الرجل من أكبر المنادين بضرورة وضع حد لهذه الحرب أن كان لا يصيب الشماليين منها إلا الهزائم. . . ولقد أدت سياسته إلى قيام ثورة عنيفة في مدينة نيويورك قام فيها المشاغبون ودعاة الفوضى بأعمال عنيفة، وبالغوا في تمردهم وعصيانهم، حتى اضطرت الحكومة أن ترسل عليهم فريقاً من الجند يقضون على الفتنة. ومن غريب أمر هؤلاء المتمردين أن قامت حركتهم التي دبروها من قبل عقب الانتصار في جتسبرج وفكسبرج، وسبب عصيانهم يرجع إلى قرار أصدره المجلس التشريعي في مستهل ذلك العام بناء على اقتراح الرئيس يحتم على كل رجل صحيح البدن بين العشرين والخامسة والأربعين أن يحمل السلاح في سبيل قضية الاتحاد. ولقد كانت حركة نيويورك هذه من مآسي ذلك العام، ولولا أن جاء النصر وأشرق نور الأمل في ظلام اليأس لكان من الجائز أن تمتد الفتنة فتأني على كل شيء.

وافتح العام الرابع والأحزاب تتأهب للانتخاب، فلقد قرب موعد الانتخاب للرئاسة، ورأى المخالفون الفرصة تواتيهم ليعلنوا ما في نفوسهم نحو الرئيس لنكولن وسياسة حكومته.

وظهرت في الصحف وتواترت على الألسن أسماء مرشحين جدد لينافسوا الرئيس؛ فإن الديمقراطيين كانوا يقدمون ماكليان، ذلك الذي انسحب من الحرب على نحو ما رأينا؛ وكان بعض الجمهوريين، وعلى رأسهم جريلي، ذلك الذي ما فتئ ينتقد الرئيس ويسدي له النصح، يرشحون جرانت وتشيس وزير المالية، وفريق منهم رشحوا فريمونت لهذا المركز السامي.

ولبت الرئيس مطمئناً ساكناً إن خاف على شيء فليس خوفه على كرسي الرئاسة، ومتى ذاق طعم الراحة في ذلك الكرسي؟ وإنما كان يخشى أن يترك قيادة السفينة لربان غيره وهي لما تزل في طريقها، ولو أنه كان موقناً أنه يوجد غيره يقودها كما يقود هو لما تردد أن يعطيها له، فحسبه أن تصل إلى المرفأ. . . وكثيراً ما كان يقول: إنه لو وجد في الرجال من يحسن إدارة الأمور خيراً منه لتنازل له عن طيب خاطر بل لقبل ذلك مبتهجاً إذ يرى فيه وسيلة من وسائل النجاح.

على أنه يترك الأمر للبلاد فهي صاحبة القول الفصل، قال في تلك الأيام لبعض جلسائه: (إن انتخابي للرئاسة مرة ثانية إنما هو شرف عظيم كما أنه عبء عظيم، وإنني لن أجفل منهما إذا قدر لي ذلك. . .

ولكن البلاد لم تبغ من رجلها بديلاً، وما لبت أن أدرك مخالفوه أنهم كانوا واهمين، وكيف تتخلى البلاد عن ذلك الذي تدين بنجاحها له؟ ولماذا ينصرف عنه الناس ومكانته عندهم في صميم قلوبهم؟ لأنه أبلى فأحسن البلاء، وصبر فاجتنى من الصبر الظفر، وسهر فلم يشك يوماً من السهر؟. . . لقد كان الناس يدعونه في تلك الأيام بقولهم: (أبونا إبراهيم) وكانوا يخاطبونه فيقولون: يا أبانا ماذا ترى في كيت وكيت، وما كان أحلى هذا اللقب يضاف إلى ألقابه. . .

ألا إن الناس ليحرصون على (أبيهم) لا تدور أعينهم إلى غيره ولا تتسع قلوبهم لسواه؛ فما هي ذي العرائض بترشيحه تترى على الحزب من أنحاء

البلاد ومن ميادين القتال في كثرة عظيمة تليق بجلال قدره وخطورة شأنه وجليل ما قدمت يداه. . .

وندع الآن ذلك لنعود إلى الحرب وشؤونها؛ وأول ما نذكره أن الرئيس قد اتفق مع المجلس التشريعي على إسناد القيادة العليا للجيش جميعاً إلى القائد جرانت. ثم كتب إلى جرانت يدعوه إلى العاصمة فحضر إليها، وذهب إلى البيت الأبيض فلقى الرئيس وسمع منه عبارات الإطراء والثناء ثم تلقى منه نبأ تعيينه في منصبه الخطير.

ولقد تزامم الناس وتدافعوا بالمناكب حول البيت الأبيض وفي قاعاته ليروا هذا القائد الذي تعلق عليه بعد زعيمهم الآمال. . . ولقد علق جرانت على هذا اللقاء العظيم بقوله (هذه معركة أشد حراً مما شهدت في الميادين من المعارك).

وبعد أن درس القائد خطته المقبلة مع الزعيم ورجاله، استأذن في الرحيل فطلب إليه الرئيس أن يبقى قليلاً ليحضر وليمة أعدتها زوجته تكريماً للقائد ولم يكن يعلم بها من قبل ليدعوه إليها فاعتذر شاكراً من عدم قبوله بقوله (حسبي ما لاقيته من تلك المظاهر أيها الزعيم. . .) وفرح الزعيم أن يسمع ذلك من القائد وهل يهدم الرجال إلا الغرور وحب المظاهر الفارغة؟

ورحل جرانت إلى الميدان وقد زوده الرئيس بقوله (أنت رجل همة وعزيمة، وأنا لا أريد وقد سرني ذلك أن أضع في طريقك ما عساه أن يعوقك، وإذا كان في طاقتي أي شيء يمكن أن أمدك به فدعني أعرف ذلك. . . والآن سر في عون الله على رأس جيش باسل وفي سبيل قضية عادلة).

برز جرانت إلى الميدان وفي نفسه من العزم بقدر ما في فؤاده من الأمل، وكأنما سرت عزمته إلى قواده وجنوده فما منهم إلا من وطد النفس على أن يخوض أهوال القتال إلى النصر، ونبغ من هؤلاء البواسل قائدان صار لهما في تلك الحرب خطر عظيم هما شيرمان وشريدان

وزحف جراننت بجيشه في مايو عام ١٨٦٤ وكانت خطته أن يواصل الزحف ما وسعه القتال حتى يأتي رتشمند عاصمة الجنوبيين فيحصرها. ولقد لازمته النصر في هذا الهجوم على الرغم من مقاومة أعدائه، ومازال يدفعهم أمامه حتى أصبح على مقربة من عاصمتهم؛ وكانت تصل أنباء انتصاره إلى العاصمة فتتهزها هزاً وكان الناس يجتمعون حول البيت الأبيض فيطل الرئيس عليهم ويخطبهم وقد سره أن ذهب عنهم الروح

وكذلك سار شيرمان مبتدئاً من الغرب، وراح يدفع أعداءه أمامه، وإنهم لينازعونه الأرض شبراً شبراً ويعركون جيشه عركاً شديداً حتى واثه النصر عليهم في اليوم الثاني والعشرين من شهر يوليو، فسقطت في يده مدينة أتلنتا بعد أيام، وهي موقع حصين ومركز حربي خطير، وكان على رأس الجنوبيين في تلك الجهة قائدهم هود، وهو من ذوي البأس ولقد لم شمل جيشه وخاض الحرب مرة أخرى ولكنه ما لبث أن عاودته الهزيمة، وسر الرئيس وأصحابه بانهمزام هود وجنوده فلقد كانوا يوجسون منه شراً

ونشط الشماليون في البحر وضيقوا الخناق على أعدائهم فأذاقوهم لباس الجوع والخوف، وكانت سيطرة فراجت على البحر وثيقة، فكان بذلك موقفه عاملاً من أكبر عوامل النصر

وراح جراننت يبذل كل ما في وسعه ليحيط بالقائد الكبير (لي) قائد الجنوبيين، فإنه يدرك أن تطويقه خير وسيلة لهزيمته وإجباره على التسليم؛ وكان جراننت يدرك أن عدته وجنده أوفر مما هو لدى عدوه منها، ولذلك عول أن يشد عليه الوثاق

وكان لنكولن وأصحابه يتلقون هاتيك الأنباء الطيبة فتطمئن نفوسهم، ولكن الرئيس كان لا يفتأ مهموماً ضائق الصدر؛ وكيف يطبق قلبه الكبير أن يعلم نبأ هاتيك الضحايا دون أن يتحرك؟ لقد كان يجزع أشد الجزع لمرأى الأمهات

والزوجات يقفن في طريقه أو يجتمعن حول البيت الأبيض متسائلات وإنه ليسأل الله أن يجعل للناس من هذا البلاء مخرجاً. . .

وبينما كان جرانت وشيرمان يروعان بجيشيهما أهل الجنوب على هذه الصورة، زحف أحد قواد الجنوب ويدعى إيرلي زحفاً باغت به وشنجطون إذ صار منها على سبعة أميال. . . ولقد كان عمله هذا من أسوأ ما لاقته تلك المدينة في هذه الحرب، فما أقبح الخوف بعد الأمن وما أوجع الكربة بعد الفرح. ولكن جرانت لم يلبث أن أرسل شريدان فأقصى هذا العدو ورماه بالهزيمة وكان ذلك في أوائل سبتمبر عقب سقوط أتلنتا بيوم واحد. . .

وكان انتصار الجيوش على هذا النحو مما قضى على كيد الكائدين من خصوم الرئيس إذ كانت البلاد تتأهب للانتخاب؛ وكان الديمقراطيون يذيعون في الناس إن من مصالحهم أن يختاروا رئيساً غير هذا الرئيس، وراحوا تارة يقولون إن الحكومة من الوجهة الحربية قد منيت بالفشل منذ قامت الحرب ولا محيص من أن تتبع في الحرب سياسة أقوى وأسرع من سياستها، وتارة أخذوا يطالبون بمصالحة أهل الجنوب ووضع حد لهذا البلاء، وهم في ذلك يرشحون ما كليان للرياسة ضد إبراهيم، ولقد اختاره لذلك مؤتمرهم الذي انعقد في شيكاغو في أغسطس من ذلك العام

وكان بعض الجمهوريين من حزب لنكولن يدعون إلى انتخاب غيره إذ كانوا ينقمون عليه كما يزعمون ابتعاده عن مبادئ الحزب وروحه، فهم يخالفونه فيما أعلن عادة تحرير العبيد من أن ذلك كان من أجل ضرورة حربية وهم يعيبون عليه مسلكه تجاه الولايات الوسطى وتجاه أهل الجنوب، كما أنهم يقولون إن الحرب لا تسير على خير ما يرجى

وكان هؤلاء الجمهوريون يرشحون جرانت تارة، وفريمونت تارة، ولكن معظمهم كان يميل إلى تشيس وزير المالية، وكان تشيس هذا من أكفأ الرجال، وكان الرئيس يحترم آراءه ويحرص على أن ينتفع بها كما كان يشهد له بالذكاء

ويقر بفضلته. . . ولكنه كان دائم الشكاوى من الرئيس وكثيراً ما ضايقه بتقديم استقالته من الحكم، وكانت أخرى تلك الاستقالات في صيف هذا العام، ولشد ما أدهش الوزير أن قبلها الرئيس في غير تردد. وكان تشيس ينفس الرئيس مركزه ويعتقد أنه أحق به منه وأجدر

وما كان الرئيس كما أسلفنا يحرص على الحكم إلا أن يكون وسيلة لتحقيق غرضه، قال ذات مرة يرد على الداعين إلى ترشيح جرانت: (إذا كان الناس يعتقدون أن القائد جرانت يكون أسرع في القضاء على الثورة إذا كان في مركزي فإني أتخلى عنه له)

وعلى الرغم من ذلك كان خصومه يدعون أنه حريص على الحكم مولع بالرياسة، وكان من أقدر هؤلاء الخصوم وأنشطهم الصحفي جريلي، ذلك الذي طالما حرص الرئيس على مودته وعمل على إرضائه. . . على أن الرئيس كان على علم بهذا كله فلم يعبأ به وذلك لأنه كان يجعل اعتماده على عامة الناس، وهل اعتمد على غيرهم منذ كان يلوح بين الإحراج؟ وجاءت بعد ذلك أنباء انتصار جنده فكان ذلك أبلغ رد على ما يزعم المخالفون والخوارج

ولقد كان مؤيدو الرئيس من الجمهوريين أعز نفراً وأعلى في البلاد صوتاً، وهؤلاء أجمعوا أمرهم على ترشيحه في مؤتمرهم الذي عقدوه في الثامن من يونيو عام ١٨٦٤، وكانت حماسهم له جديرة به شديدة على خصومه وكارهيه. . . وحمل إليه نبأ ذلك فتلقاه على عادته في دعة، قال: (إنهم رشحوني لا لأنهم رأوني اعظم وأفضل رجل في أمريكا، وإنما كان ذلك لأنهم لم يروا من الحكمة أن يستبدلوا الخيل أثناء عبورهم الماء، ولأنهم رأوا بعد ذلك أنني لست فرساً بلغ من السوء مبلغاً لا يمكن معه استخدامه ولو في مشقة أثناء محاولة ذلك العبور). . .

وكان المؤتمر قد عبر عن رغبته في تعديل الدستور بحيث لا يكون من مواده ما يتضمن الاعتراف بنظام العبيد حتى لا يتعارض قرار التحرير مع

نصوص الدستور. ولقد وافق الرئيس على ذلك قائلاً: (إن مثل هذا التعديل المقترح يجيء خاتمة مناسبة ضرورية للنجاح النهائي لقضية الاتحاد، وهذا وحده يقف رداً على كل تجن. . . وإن الذين يوافقون على الوحدة بلا شرط من الشماليين والجنوبيين يدركون خطورته ويتعللون به، فباسم الحرية والوحدة مجتمعين دعونا نعمل على أن نكسبه صفة شرعية وأثراً عملياً). وسمع أن ولاية ماريلند قد عدلت دستورها على هذا الأساس فعلاً فاعتبط قائلاً (إن ذلك عندي يساوي انتصارات كثيرة في الميدان)

وحسب جريلي أنه واجد غمزة أخرى في سياسة الحرب فراح يندد بها وبتناولها ويدعوا إلى الصلح قائلاً إن البلاد قد باتت على شفا جرف هار وإن السلم على شروط معقولة خير من هذه الحرب التي ضجت البلاد منها ورزحت تحت أعبائها. ومما ساقه في هذا المجال أنه على صلة بقوم من الجنوب يقبلون الصلح على أساس الوحدة والقضاء على العبودية، وهنا لم يتردد الرئيس أن يرسل إليه يقول إنه على استعداد أن يلقي أي رجل أو جماعة من الجنوب يفاوضونه على هذا الأساس على شرط أن يكونوا مسؤولين وليكن جريلي شاهداً على ذلك؛ وعاد جريلي مستخذاً وقد رأى أن الذين دعوه إلى السلم من الجنوبيين قوم لا أهمية لهم. . .

وتطلبت الحرب عدداً جديداً من الرجال وأشفق أنصار لنكولن أن يدعوا البلاد إلى رجال في مثل هاتيك الظروف، ولكن هل كان مثله يحجم عن أمر يعتقد صوابه وعلى الأخص إذا كان هذا الأمر يتعلق بالحرب بله الحرب تحت قيادة جرانت؟ لم يحجم الرئيس ولم يتردد وأصدر أمره في ثبات وجراً. . .

وجاء يوم الانتخاب فكان فوز الرئيس عظيماً كما كان تواضعه غداة فوزه عظيماً. قال وما أجمل ما قال: (إنني أعرف قلبي وأرى غبطتي لا يشوبها شائبة من الفوز الشخصي، وإنني لا أعترض على بواعث أي شخص ضدي. وليس مما

يسرني أن أظفر على أحد ولكني أشكر الله على هذا البرهان الشاهد على
اعتزام الناس أن يؤيدوا الحكومة الحرة وحقوق الإنسانية)

وكان الداعون إلى السلم ينشرون مبادئهم في العاصمة الشمالية ولم يكفوا
عن ذلك منذ الصيف. وفي الشتاء وجدت دعوتهم قبولاً لدى الكثيرين في
العاصمة الشمالية حتى لقد أخذوا على الرئيس أنه يصم إذنه عن هذه الدعوة. .
. وحدث أن أرسل جفرسون دافز رسولاً إلى لنكولن يدعو إلى السلم ويقترح
عقد مؤتمر لتقرير ذلك. وكتب الرئيس لنكولن رداً حمله ذلك الرسول إلى
جفرسون وفيه يوافق الرئيس على عقد المؤتمر؛ واجتمع في مركز قيادة القائد
جرانت ثلاثة من قبل أهل الجنوب وناب عن الشماليين سيوارد ثم لحق به
الرئيس، وعرض الشماليون شروطهم فلم تحز قبولاً لدى خصومهم. ورأى
الرئيس أن في الأمر خداعاً وأنهم لا يريدون سوى أن يكسبوا الوقت بالمفاوضة
ريثما يعدون ما يستطيعون من قوة. ولذلك نراه ينصح إلى جرانت ألا يتهاون
أو يخفف من وطأته وانفض المؤتمر ولم يصل إلى رأي. . .

وأوضح الرئيس سياسته في خطابه الرسمي الذي ألقاه غداة تسلمه أزمة
الأمر للمرة الثانية. وإنك لتجدها واضحة في تلك العبارة الجميلة التي اختتم
بها ذلك الخطاب قال: (والآن فمن غير موحدة على أحد، بل مع الإحسان
للجميع، والثبات على الحق كما يطلب الله أن نرى الحق، دعونا نجهد لنفرغ
من هذا العمل الذي نحن بصده، وأن نضمد جراحات الأمة، وأن نعنى بهؤلاء
الذين قاموا بالجهاد وبأراملهم وأيتامهم. وأن نبذل كل ما في وسعنا لنصل إلى
السلام الدائم ونعزّه بين أنفسنا وبين جميع الأمم)

وجعل الرئيس ينتظر أخبار الميادين، وكثيراً ما كان يقضي وقتاً طويلاً في
غرف البرق يترقب ويتوقع. . . وكثيراً ما كان الرئيس يشخص بنفسه إلى
مراكز الجنود فيزورها واحداً بعد الآخر! وجاءت البشائر بالنصر يتلو النصر.
ففي الحادي والعشرين من ديسمبر أخذ شيرمان مدينة سفانا عنوة فأبرق إلى

الرئيس يقول: (أرجو أن تسمح لي أن أقدم إليك مدينة سفانا كهدية في عيد الميلاد) واستمر شيرمان في زحفه فاستولى على كولومبيا وشارلستون، وما زال حتى دخل ولاية كارولينا الشمالية وأصبح على اتصال بجنود جرانت وبذلك أوشكت جنودهما أن تحيط بجيش الشماليين

وكان جرانت يثخن في أرض الجنوبيين لا يألوهم نزالا كأهول ما يكون النزال، وكانت ضحاياه كثيرة يدمي لها قلب الرئيس، ولكنه كان لا يلين وما لبث هو وأعدائه أن يهزموا الجنوبيين في كل مكان حتى لم يبق في الميدان غير لي. . .

وحاصر جرانت مدينة رتشمند ودام حصاره لها طوال أشهر الصيف من عام ١٨٦٤ وأشهر الشتاء من عام ١٨٦٥، وفي السابع والعشرين من مارس التقى لنكولن وجرانت وشيرمان على ظهر زورق تجاري في نهر جيمس بالقرب من مركز القيادة وتداول ثلاثتهم في الأمر. ولشد ما تألم الرئيس أن علم أنه لا يزال دون النصر معركة حامية، وراح يتساءل في جزع: (ألا يمكن تجنب تلك المعركة؟ ألا يمكن تجنب تلك المعركة؟)

وأمكن تجنب تلك المعركة الحامية فلقد تمكن شيريدان وكان إلى يسار جرانت أن يقطع على (لي) آخر منفذ للهرب فتم لهما تطويقه، وأصبح تسليمه أمراً لا بد منه. وفي اليوم الثالث من أبريل سقطت رتشمند التي كانت طروادة هذا الصراع العنيف

وأنى للكلام أن يصف مبلغ ما كان بالعاصمة من شعور الفرح والحبور. . . لقد بات الناس وأفاقوا على مثل مظاهر العيد. وأي عيد أجمل من هذا الذي يبشر الناس فيه بانفراج الغمة واتحاد الأمة؟

وكان الرئيس في المعسكر منذ شهر مارس يبيت مع الجند ويستطلع الأنباء كل يوم ولقد نال الجهد والإعياء من جسده حتى ليبدو كالمريض وهو الرجل الذي عرف فيما سلف بقوة بدنه ووفرة حيويته. . . ولما بلغه سقوط رتشمند

وصل إليها في بساطة وهدوء، وليس معه إلا بحارة قارب حربي كان يرسو على مقربة منها فلا خيل من حوله ولا جند يفسحون له الطريق. ودخل الرئيس العظيم المدينة يمسك بيده يد ابنه الصغير تاد وهو يمشي على الأرض هوناً وليس في وجهه زهو ولا تطاول

وهرع الناس من كل فج يشهدون الرجل الذي دوت البلاد باسمه، فلما رأوه شعروا جميعاً نحوه بمثل ما يشعر الأبناء نحو أبيهم، وهو بين الجموع رابط الجأش يظهر قوامه الطويل للأعين. وتلفت الرئيس فإذا جموع السود تتقاطر من كل صوب وهم يملئون الجو بهتافاتهم باسم مخلصهم ومحطم أغلالهم، وكانوا من حوله يرقصون ويقفزون في الهواء لا يدرون ماذا يفعلون للتعبير عما في نفوسهم نحو هذا المحرر الأعظم. . . ثم تقدموا متزاحمين فتلقوا على الأرض أمامه يقبلون قدميه وهو يرفعهم بيديه ويمسح بهما على جباههم وأكتافهم والدموع تتساقط كبيرة ساخنة من عينيه الواسعتين فتجري على محياه الكريم

وحرار الرئيس برهة ماذا يقول وهو الذي لم يعرف قبل عياً ولا حصرأ، ثم ناداهم قائلاً (أي أصدقائي المساكين أنتم أحرار، أحرار كالهواء. إنكم تستطيعون أن تطرحوا اسم العبودية وتطأوه بأقدامكم؛ فأنكم لن تسمعوه بعد اليوم. . . إن الحرية حقكم الذي منحكم الله كما منح غيركم) وتألم الرئيس من أن يخروا سجداً على قدميه فقال: (لا تسجدوا لي، هذا ليس بالصواب، يجب أن تسجدوا لله وحده وأن تشكروه على الحرية التي سوف تتمتعون بها منذ اليوم).

وعاد الرئيس إلى وشنجطون وفي وجهه مثل ما يكون في وجوه الأبرار الصالحين، والناس حول ركابه يهتفون باسم (أبيهم أبراهام) بطل الحرية ومحطم الأصفاد ومعيد الوحدة إلى البلاد وحامي دستورها ورسول حاضرها إلى غدها. . .

وفي اليوم التاسع من هذا الشهر المشهود سلم لي جيشه للقائد جرانت وتلقت العاصمة النبأ وتلقاه الرئيس، وتنفس الناس الصعداء. وأحس ابن الإحراج بعد هذا الكفاح الطويل الشاق أن قد آن له أن يستريح ولو بضعة أيام. . . وتزاحم الناس حول البيت الأبيض وهم من فرط سرورهم يبدون كأنما طاف بهم طائف من الجنون، وأطل الرئيس عليهم وهم يتصايحون ويتواثبون ويقذفون بقبعاتهم في الهواء، فلم يدر ماذا يقول. ثم مسح بيده الدموع المنحدرة من عينيه وطلب إليهم أن يهتفوا ثلاثاً بحياة القائد جرانت ورجاله، وحياة القواد البحريين ورجالهم، وعاد إلى داخل حجرته. . .

وفي اليوم الرابع عشر كان على مجلس الوزراء أن يجتمع ظهراً، وكان جرانت ممن سوف يشهدون الاجتماع. وكان يبدو على محيا الرئيس قبل الاجتماع شيء من الهم، قال لبعض أصحابه: إنني رأيت حلماً كريهاً لا أرى مثله إلا قبيل حادث عظيم. . واجتمع المجلس ليرى ماذا تفعل الحكومة لإصلاح ما أفسدته الحرب. وفي هذا الاجتماع عارض الرئيس القائلين بالانتقام من أهل الجنوب وصاح بهم (كفانا ما ضحينا من الأنفس. يجب أن نطفئ في قلوبنا السخائم إذا أردنا أن نقيم الوحدة والوفاق) ألا ليت أعداءه سمعوه وهو يقول ذلك، ألا ليتهم سمعوه. . .

وركب الرئيس وزوجه في نزهة عصر ذلك اليوم. وفي المساء ذهب ليشهد رواية تمثيلية في المسرح، وكانت الصحف قد نشرت اعتزامه الحضور ومعه القائد جرانت، وتحلف القائد لأمر ما، وذهب الرئيس وجلس في مقصورة هو وزوجه وقائد من القواد. وفي الساعة العاشرة والنصف تسلل إلى باب مقصورته رجل فاقتحمه وفي يده مسدس أطلقه على رأس الرئيس. . . وكانت في يده الأخرى مدية طعن بها القائد، وقفز إلى خارج المسرح وكان هو وشركاؤه قد أعدوا حصاناً ليهرب به عدوا. . .

ورومت العاصمة بالنبا الفاجع، وتلاقت أمة تحمل شهيدها الأكبر ومحررها العظيم إلى مقره ليستريح الراحة الأبدية، وذهبوا بجثمان البطل إلى سبرنجفيلد في نفس الطريق الذي جاء منه إلى العاصمة قبل ذلك بأربع سنوات، والناس على جانبيه يشهقون اليوم ويجهشون ولا يملكون غير الدمع في هذا الخطب الفادح. ودفن الرئيس إلى جانب ابنه الصغير. ألا ليتهم حملوه إلى الغابة ليدفن حيث نشأ وحيث شب

(تم)